تاريخ المصريين

٥٢

مصر في كتابات
الرحالة والقناصل الفرنسيين
في القرن الثامن عشر

د. إلهام محمد علي ذهني

رئيس مجلس الإدارة

د. سمير سرحان

رئيس التحرير

د. عبد العظيم رمضان

مدير التحرير:

عبد العظيم الشبلى

الاخراج الفنى :

مراد نسيم

مصر في كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين في القرن الثامن عشر

تأليف

د. إلهام محمد علي ذهني

الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٢

تقـــديم

ربما كان من محاسن الصـدف وحدها أن هـذا الكتاب عن : « مصر فى كتابات الرحالة والقناصـل الفرنسيين فى القرن الثامن عشر » للدكتورة الهام محمد ذهني ، يصـدر بعد شـهر واحد من صدور كتابها : « مصر فى كتابات الرحالة الفرنسيين فى القرنين السادس عشر والسابع عشر » ، الذى يصدر عن سلسلة « مصر النهضة » التى يشرف عليها صديقى الأستاذ الدكتور يونان لبيب . ويرجع السبب فى ذلك الى تأخر صـدور هـذا الكتاب الأخير أكثر من عـام ، حتى تزامن صدوره مع كتاب المؤلفة الثاني ، الذى هو بين يدى القارىء

ويبدو أن السبب الذى دعـاني الى قبول نشر هذا الكتاب فى سلسـلة « تاريخ المصريين » هو نفس السـبب الذى دعـا الدكتور لبيب لقبول سابقه فى سلسلة « مصر النهضة » ، وهو أننا فى حاجة الى معرفة صورة مصر من عيون أخرى ، هى عيون الأوروبيين الرحـالة الذين وفدوا على مصر فى تلك الفترة الزمنية البعيدة ، بعد أن عرفناها من عيون مصرية ، مثل عين المؤرخ عبد الرحمن الجبرتى وغيره .

صحيح أن ما كتبـه هؤلاء الرحالة الأوروبيون قد تعرضت له كتابات مؤرخين مصريين ، مثل الأسـتاذ الراحـل الدكتور محمد فؤاد شكرى فى موسوعته عن تاريخ مصر فى مطلع القرن التاسع عشر ، « ومصر والحملة الفرنسية » ، وكتـاب الدكتور

مصطفى الحفناوى عن « قنــاة السويس » ، ولكن تقديم هــذه الكتابات من منظور آخر غير منظور قنــاة السويس أو الحملة الفرنســية ، والتركيز على الجوانب المختلفــة التى تعرض لها هؤلاء الرحــالة والقناصـــل أمر ذو فــائدة كبرى فى معرفــة رؤية الأوروبيين للمجتمع المصرى فى تلك الفترة البعيدة .

لم تكن زيارات رحالة القرن الثامن عشر لمصر قصيرة ، بل كانت زيارات طويلة امتدت عدة ســنوات ، جابو فيها مدن مصر ، وتوغلوا فى صعيدها وصحاريها ، واستطاعوا أن يضفوا الكثير من أحوالها السياســية والاجتماعيــة . وصفا مسهبــا ومفصلا . وكان من هؤلاء الرحالة جواسيس اهتموا بدراســة أحوال مصر السياســية والعســكرية لخدمة مصــالح بلادهم ، ومهــدوا بذلك لغزو مصر . ومن هؤلاء : البــارون دى توت ، وفولنى ، واوليفييه .

والدراسة التى بين أيدينا اعتمدت على النصوص الأصلية لهذه الكتابات ، وبلغتها الفرنســية القديمــة ، مما احتــاج من الدكتورة ألهام محمد ذهنى الى مجهود مضاعف . فلها الشكر على ما قدمت من جهد ، وما أبدت من مثابرة ، حتى تتيح للقارىء الاطلاع على هذه الدراسة الشيقة . وأملنا أن تسد هذه الدراسة ركنا هاما فى المكتبة العربيــة ، يضاف الى ما تقدمه هذه السلسلة الطويلة من الدراسات التاريخية عن « تاريخ المصريين » .

والله الموفــق ،

أ.د. عبد العظيم رمضان

رئيس تحرير السلسلة

المقدمة

تتناول هذه الدراسة أحوال مصر السياسية والاقتصادية والاجتماعية كما دونها القناصل والرحالة الفرنسيون فى القرن الثامن عشر وحتى مجىء الحملة الفرنسية وهى مكملة لدراسة سابقة نشرت فى « مصر النهضة » بعنوان « مصر فى كتابات الرحالة الفرنسيين فى القرنين السادس عشر والسابع عشر » ، وقد آثرت تخصيص دراسة منفصلة لكتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين فى القرن الثامن عشر عمن سبقوهم من الرحالة لعدة أسباب .

تشابه كتابات الرحالة الفرنسيين فى القرنين السادس عشر والسابع عشر عن رحالة القرن الثامن عشر فقد زار العديد منهم مصر بعد أداء فريضة الحج فى بيت المقدس من أجل زيارة المزارات المسيحية فيها ، خاصة دير سانت كاترين فى صحراء سيناء وبستان مريم فى المطرية ، والأديرة القبطية فى وادى النطرون ، ولذلك جاءت رحلاتهم سريعة اقتصرت على المزارات

المسيحية ومصر السفلى فقط ، كذلك تأثر رحالة القرنين السادس عشر والسابع عشر بكتابات هيرودوت Herodote وسترابون Strabon واقتبسوا العديد من الملاحظات واوردوها فى كتبهم وذلك تعويضا عن الفترة القصيرة التى قضوها فى مصر وعدم دراستهم لأحوال المجتمع المصرى دراسة وافية وان كان هذا لا يقلل من أهمية كتاباتهم التى تم تداولها من قصر الى قصر ومن كنيسة الى كنيسة ولا ننسى انهم حظوا بتشجيع ملوك فرنسا ولكن لا ننكر ان وصفهم لمصر جاء موجزا جافا مقتضبا سريعا .

اما رحالة القرن الثامن عشر فلم تقتصر زيارتهم لمصر على المزارات المسيحية فقط وانما جابوا مدن مصر وتوغلوا فى صعيد وصحارى مصر ولم تكن زيارتهم قصيرة وسريعة وانما مكث البعض منهم عدة سنوات فيها فجاءت كتاباتهم عن مصر أعمق بكثير ممن سبقوهم .

اختلفت الظروف السياسية فى مصر فى القرن الثامن عشر عن القرنين السابقين فقد كانت أحداث هذا القرن سريعة ومتلاحقة ففى النصف الأول منه كثرت المنازعات والحروب بين البيوت المملوكية وفرق الأوجاقات المختلفة ، اما فى النصف الثانى فقد اتسم بظهور صفوة عسكرية من المماليك استأثرت بالحكم مثل على بك الكبير ومحمد ابى الدهب ومراد بك وابراهيم بك هذا مع ضعف هيمنة الدولة العثمانية على مصر وغيرها من الولايات ولذلك جاء وصف الرحالة لأحوال مصر السياسية مسهبا ومفصلا عمن سبقوهم من الرحالة الذين اكتفوا بتقديم وصف موجز لبعض الوظائف السياسية الهامة خاصة وظيفة باشا مصر .

انفرد القرن الثامن عشر بمجيء مجموعة من الرحالة يمكن أن نطلق عليهم الرحالة الجواسيس نخص بالذكر منهم البارون دي توت ، فولني ، أوليفيه فقد اهتموا بدراسة أحوال مصر السياسية والعسكرية لخدمة مصالح بلادهم ومهدوا بكتاباتهم لغزو مصر ، ولا ننسى أن أوليفيه أوفد من قبل حكومة الادارة ليضع اللمسات الأخيرة لاحتلال مصر فقدم وصفا عن تحصيناتها العسكرية .

ساهمت كتابات رحالة القرن الثامن عشر فى مجيء الحملة الفرنسية على مصر فقد حثوا حكومة بلادهم على ضرورة الاستيلاء على مصر للحصول على ثرواتها الاقتصادية والافادة من موقعها الجغرافى الهام واحياء فكرة وصل البحرين الأحمر والمتوسط لتعم الفائدة الاقتصادية والتجارية على فرنسا ، حقيقة ان فكرة احتلال مصر ظهرت أيضا بين الرحالة الفرنسيين السابقين خاصة الأب كوبان Coppin فى القرن السابع عشر الذى دعى لاعلان الحرب الصليبية على الدولة العثمانية وتقسيم ممتلكاتها على أن تكون مصر من نصيب فرنسا . ولكن اختلف الوضع فى القرن الثامن عشر فدعوة القناصل والرحالة لاحتلال مصر جاءت نتائجها سريعة وحاسمة بدليل ما ذكره قادة الحملة الفرنسية وتأكيدهم بانه « لولا كتابات سافارى Savary وجرانجيه Granger وفولنى Volney واوليفيه Olivier لما تمكنا من معرفة مصر قبل أن نقدم على غزوها » .

لفتت مصر فى القرن الثامن عشر أنظار فرنسا بثروتها الاقتصادية فوجدت فيها البديل المثالى لتعويض ما فقدته فى حروبها فى اوروبا خاصة حرب السنوات السبع والتى أسفرت عن فقد فرنسا لممتلكاتها فى العالم الجديد والهند فكانت مصر هى محور

اهتمام الفرنسيين ومحط انظارهم فى هذا القرن بينما فى القرنين السابقين كانت الامبراطورية العثمانية وامبراطوريات الشرق الأخرى الفارسية والهندية هى محور اهتمام فرنسا ولذلك جاء الاهتمام بمصر خلال هذه الفترة باعتبارها ولاية تابعة لامبراطورية كبيرة وعظيمة هى الامبراطورية العثمانية .

يمكننا القول ان رحالة القرن الثامن عشر قدموا وصفا تفصيليا عن أحوال مصر السياسية والاقتصادية والاجتماعية واختلف وصفهم المسهب عن الوصف الموجز السريع لمن سبقوهم ويكفى أن العديد منهم قد تمكن من التوغل لأول مرة فى صعيد مصر فسجلوا مشاهداتهم عن أهم الآثار فيه وقدموا رسوما دقيقة عنها وأن كانوا قد وقفوا عاجزين عن قراءة النقوش والكتابات المسجلة على هذه الآثار .

أما عن سبب اضافة كتابات القناصل الفرنسيين عن مصر لهذه الدراسة فقد رأيت الاطلاع على ما كتبه القناصل العاملون فى مصر خاصة وان معظمهم جابوا مدن مصر ودونوا ملاحظاتهم عنها . ويقابلنا فى القرن الثامن عشر ظاهرة تسجيل القناصل لهذه المشاهدات ، حقيقة ان الأب كوبان الذى عمل نائب قنصل فى دمياط فى القرن السابع عشر قد دون مشاهداته عن مصر ولكنه اهتم فيها بالقاء الضوء على المنازعات بين القناصل وبينهم وبين الجالية الفرنسية ، أما فى القرن الثامن عشر فقد دون القناصل مشاهداتهم عن مصر ذاتها مثل ملاحظات القنصل الفرنسى ميليه Maillet التى نشرها الراهب لى ماسكريه Mascrier بعنوان « وصف مصر » أى قبل ظهور العمل العظيم للحملة الفرنسية وصف مصر بأكثر من ستين عاما وقد اقتبس علماء الحملة تسمية وصف مصر من كتاب ميليه

الذى القى الضوء فيه على احوال مصر السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

كذلك استطعنا التعرف على احوال مصر فى الفترة ما بين عام ١٧٧٤ م الى ١٧٨٩ م من رسائل القنصل الفرنسى مور Mure الى السفير الفرنسى فى الآستانة وفيها القى الضوء على محاولات الفرنسيين الاتفاق مع المماليك وعقد المعاهدات التجارية معهم وفتح طريق البحر الأحمر للسفن الفرنسية .

ولا نغفل رسائل القنصل ماجالون الى حكومة الادارة تلك الرسائل التى كان لها اثرها الفعال فى احتلال مصر وحث الحكومة الفرنسية على التعجيل بالحملة .

وقد حرصت على مقارنة ما دونه الرحالة والقناصل الفرنسيون عن مصر بكتابات المؤرخين المعاصرين مثل احمد شلبى واحمد الدمرداشى ومؤرخنا العظيم الجبرتى فوجدت تطابقا كبيرا وصدقا فيما ذكره هؤلاء الرحالة خاصة عند تسجيلهم لأحداث مصر السياسية .

كذلك اطلعت على ما دونه علماء الحملة الفرنسية فى « وصف مصر » فوجدت انهم اثنوا فى كتاباتهم على رحالة القرن الثامن عشر خاصة وان البعض منهم كانت له دراسات علمية قيمة فاشار علماء الحملة الى دراسة جرانجيه عن مصبات وفروع النيل ودراسة فولنى عن سطح مصر وملاحظات الأب سيكار Sicard عن منطقة وادى النطرون .

وقد حرصت ايضا على الاطلاع على ما كتبه الرحالة الأوروبيون الذين زاروا مصر فى القرن الثامن عشر خاصة الرحالة

البريطانيين والروس فوجدت ان كتابات ورسوم وخرائط الفرنسيين ادق وأفضل ولاحظت ايضا ان الرحالة الفرنسيين كثيرا ما كانوا يصححون أخطاء غيرهم من الرحالة مثل تحديد مواقع المدن .. الخ ، ولقد كان الرحالة الفرنسيون سلسلة متعددة الحلقات تتمم كل منها الأخرى ولم أجد هذه الأعداد من الرحالة لدى دولة أوروبية أخرى سوى فرنسا .

ان كتابات القناصل والرحالة عن مصر منذ بداية القرن الثامن عشر وحتى مجيء الحملة الفرنسية تعكس الرؤية الفرنسية لمصر ، وقد ذكرت ما كتبه الفرنسيون بالفعل من ملاحظات واوردت المبالغات التي دونها البعض منهم وحرصت على نقل ما لفت نظرهم بالفعل فى مصر حتى ولو كان شيئا يبدو مألوفا لنا ولكنه كان غريبا عليهم أثار دهشتهم وانبهارهم حتى الخرافات التي نقلوها عن العامة رايت ضرورة ذكرها مثل حديثهم عن معجزات ثعبان الشيخ هريدى فى صعيد مصر وغير ذلك .

واخيرا لقد تأثر الرحالة الفرنسيون بالثقافة العربية واتقن البعض منهم اللغة العربية خاصة دورفال D'Orvalle وفورمون Fourmont وسافارى فاطلعوا على التراث الاسلامى وتأثروا بكتابات المقريزى وابن دقماق وغيرهم وأشادوا بالحضارة الاسلامية واتيح لهم أثناء اقامتهم بمصر الاطلاع على مكتبة الأزهر فأشادوا بدوره فى مصر والعالم الاسلامى ويكفينا ما ذكره فورمون فى كتاباته « ان مصر قد ملأت العالم فخرا ومجدا بحضارتها وآثارها » .

الفصـــل الأول

علاقة فرنسا بالدولة العثمانية ومصر في القرن الثامن عشر

- موقف فرنسا من الصراع العثماني الأوروبي .
- فرنسا وفكرة تقسيم الدولة العثمانية .
- مصر في مخططات الساسة الفرنسيين .

موقف فرنسا من الصراع العثمانى الأوروبى

قويت الاتصالات الفرنسية العثمانية منذ القرن السادس عشر واتسمت العلاقة بين الدولتين بالود والصداقة ، ويرجع السبب فى ذلك ان أسرة الفالوا Valois (١) ارادت الاستعانة بسلاطين الدولة العثمانية فى صراعها ضد دول أوروبا للسيطرة على ايطاليا (٢) . وقد تزايدت هذه الاتصالات فى عهد فرانسوا الأول ثم ابنه هنرى الثانى وقدم السلطان سليمان القانونى بالفعل المساعدات القيمة للفرنسيين . وكان رد الفعل الأوروبى ازاء هذه الاتصالات عنيفا فاعتبرها البابا « وصمة عار فى جبين فرنسا » وندد « بموقفها المزرى » على حد قوله لاتصالها بالمسلمين ويمكن تفسير ذلك بأن الدولة العثمانية نجحت فى ذلك

---

(١) حكمت أسرة الفالوا فرنسا فى الفترة من عام ١٣٢٨ وحتى عام ١٥٨٩ م .

(٢) امتدت الحروب الأيطالية من عام ١٤٩٤ م الى عام ١٥٥٩ م .

الوقت فى تدعيم سيطرتها على البلقان بينما ما زالت أوروبا المسيحية متوثبة ومتحفزة ضد هذا المد الاسلامى الجارف الذى وصل الى عقر دارها وكان البابا فى روما ما زال يسعى لتكوين الأحلاف الصليبية للتصدى لقوة الأتراك المسلمين ، ولذلك كان اتصال اسرة فالوا بالدولة أمرا غريبا على المجتمع الأوروبى فى ذلك الوقت ومن الصعب قبوله . ويمكننا القول بأن فرنسا افادت بالفعل من هذه الاتصالات فقد قدمت لها الدولة العثمانية المساعدات القيمة ابان فترة الحروب الايطالية ، كذلك اثمرت هذه الاتصالات باستئثار الفرنسيين بالامتيازات التى منحت لهم عام ١٥٣٦ م (٣) .

شهدت السنوات الأولى من القرن السابع عشر بداية طيبة للعلاقات الفرنسية العثمانية خاصة فى عهد السلطان احمد خان الذى قبل فى عام ١٦٠٤ م تجديد الامتيازات الفرنسية ؛ بينما نشط سفراء فرنسا فى الآستانة طوال القرن السابع عشر للعمل على تقوية النفوذ الفرنسى فيها . واذا كانت فرنسا قد انشغلت فيما بعد بحرب الثلاثين عاما (٤) فى أوروبا ، فقد انشغلت الدولة العثمانية بدورها باضطراب أوضاعها الداخلية ولكن بتولى الوزير كولبير Colbert مهام منصبه عمل على تقوية وتجديد الصلات الفرنسية العثمانية والقضاء على كل ما يعكر صفو العلاقات بين البلدين . ونجح السفير

---

(٣) الهام ذهنى : مصر فى كتابات الرحالة الفرنسيين فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، الهيئة العامة للكتاب ١٩٩١ م ص ٢٨ ، ص ٣٦ .

(٤) نشبت هذه الحرب فى ١٦١٨ م وانتهت بتوقيع صلح وستفاليا ١٦٤٨ م وخلال هذه الفترة ضعف النفوذ الفرنسى فى الآستانة حتى ان البندقية تقاسمت حق حماية الكنائس مع فرنسا فى عهد مراد الرابع .

الفرنسي جيردان Girardin عام ١٦٧٣ م فى تجديد الامتيازات التى منحت للفرنسيين من قبل (٥) .

وجدير بالذكر أن تجديد الامتيازات الفرنسية فى عام ١٦٧٣ م لم يكن معناه استمرار العلاقات الودية بين الطرفين فقد تخللتها فترات من التوتر خاصة فى عهد الصدر الأعظم قره مصطفى الذى كان يتبع أسلوبا معاديا للأجانب وجاء ضرب الأسطول الفرنسي لجزيرة خيوه ١٦٨١ (٦) ليزيد من استياء الباب العالى ضد الفرنسيين ، ولذلك حرص السفير الفرنسى فى الأستانة على ارضاء الصدر الأعظم بالهدايا ليخفف من حدة غضب السلطان عليهم ولكن سرعان ما تحسنت العلاقة بين الدولتين فى عام ١٦٨٣ م بفضل جهود الدبلوماسيين الفرنسيين فقوى النفوذ الفرنسى فى الآستانة حتى نهاية حكم لويس الرابع عشر وتوج الفرنسيون ثمرة جهادهم ونجحوا فى الحصول على عدة فرمانات عثمانية تخدم مصالحهم التجارية (٧) فنمت تجارتهم نموا ملحوظا منذ عام ١٦٨٥ م (٨) .

وقد ناقشت الدكتورة ليلى الصباغ الامتيازات التى منحتها الدولة العثمانية للفرنسيين فى القرنين السادس عشر والسابع

---

(٥) الهام ذهنى : المرجع السابق ص ٣٦ .

(٦) دأب المغاربة على مهاجمة السفن الفرنسية والتجأ بعضهم الى خيوه فطاردتهم السفن الفرنسية وضربت الجزيرة بالمدافع .

(٧) شملت هذه الفرمانات منع سفن شمال افريقيا من مهاجمة السفن الفرنسية ـ اعفاء السفير الفرنسى من رسوم الجمرك ـ منح ملك فرنسا حق حماية الأماكن المقدسة .

(٨) ليلى الصباغ : الجاليات الأوروبية فى بلاد الشام فى العهد العثمانى فى القرنين السادس عشر والسابع عشر . بيروت ١٩٨٩ م جـ ١ ص ١٦٦ ، ص ١٦٧ .

عشر فذكرت أن مانتران Mantran رأى بأنها كانت منحة وكرما من الدولة التوية الى فرنسا وقد أكد هذه الحقيقة المسئولون الأتراك (٩) بينما فسر البعض هذه الامتيازات بانها كانت بسبب تحول طريق التجارة نحو رأس الرجاء الصالح ، واهتمام أوروبا بأمريكا القارة المكتشفة بدلا من الشرق مما دفع الدولة العثمانية لأن تكون أكثر مرونة فى علاقاتها التجارية ، وأضاف فريق ثالث ان ضعف سلاطين الدولة بعد سليمان القانونى كان من أهم الأسباب التى أدت الى منح الأجانب الامتيازات ويمكن القول أن الأسباب السابقة دفعت الدولة العثمانية لمنح الدول الأوروبية الامتيازات خاصة فرنسا (١٠) .

ويمكن القول انه حتى القرن السابع عشر حرصت الدولتان على تحسين علاقاتهما . فالدولة العثمانية خشيت من انضمام فرنسا الى الأحلاف المسيحية المعادية لها ، كذلك ادرك ملوك أسرة البوربون Bourbon خاصة لويس الرابع عشر أهمية التحالف العثمانى ضد القوى السياسية فى أوروبا (١١) .

واذا كان القرن السابع عشر قد شهد تقاربا فرنسيا عثمانيا الا انه شهد أيضا تعاظم خطرين على الدولة العثمانية الا وهما الخطر الروسى والنمساوى ، فقد برزت قوة روسيا الجديدة بعد تولى بطرس الأكبر (١٦٨٢ ـ ١٧٢٥) الذى قام بالعديد من

---

(٩) فى عام ١٦٧٠ م أرسل لويس الرابع عشر السفير الفرنسى دى نواتيل الى الآستانة لتجديد الامتيازات فأكد له الصدر الاعظم ان هذه الامتيازات « منحة سلطانية » « وليست معاهدات اضطرارية » واجبة التنفيذ : الهام ذهنى ص ٣٩ .

(١٠) المرجع السابق : ج ١ ص ١٩٨ ، ص ٢٣٢ .

(١١) المرجع السابق : ص ١٦٧ .

الاصلاحات ونجح فى ان يجعل روسيا تحتل مركزا سياسيا بين الدول الأوروبية ، كما عمل على اتباع سياسة توسعية خارج بلاده فركز عملياته الحربية ضد كل من السويد ، بولندا والدولة العثمانية وفى صراعه مع الأخيرة نجح فى الاستيلاء على حصن آزوف (١٢) عام ١٦٩٦ وانتزعه من أيدى القوات التركية (١٣) .

ولم يقتصر الخطر المحدق بالدولة على العداء الروسى فحسب وانما كان على الدولة مواجهة عدو آخر هي النمسا فكان على السلطان مصطفى خان الثاني (١٤) ان يحارب فى جبهتين الأولى ضد روسيا والثانية ضد النمسا التى حشدت قواتها بقيادة القائد النمساوى أوجين دي سافوا ولكن الصدر الأعظم كوبريللى حسين أوقف القوات المتقدمة واجبرها على التقهقر (١٥) .

وبعد محادثات طويلة وقعت الدولة العثمانية معاهدة كارلوفيتز Carlowitz (١٦) عام ١٦٩٩ م مع كل من روسيا ـ بولونيا ـ النمسا ـ البندقية وتسجل هذه المعاهدة بداية انسحاب الدولة العثمانية من الممتلكات التابعة لها واعترافها بذلك الانسحاب فى وثيقة رسمية (١٧) وهكذا بانتهاء القرن

---

(١٢) يقع الحصن عند مصب نهر الدون .

(١٣) زينب راشد : تاريخ أوروبا الحديث ، القاهرة ١٩٨٦ ، ج ١ ص ٢٩٥ .

(١٤) ١٦٩٥ م ـ ١٧٠٣ م (١١٠٦ هـ ـ ١١١٥ هـ) .

(١٥) محمد فريد : تاريخ الدولة العثمانية ، القاهرة ١٩١٢ م ص ١٤١ .

(١٦) تنازلت الدولة فى المعاهدة عن آزوف لروسيا فصار لها يد فى البحر الأسود وتركت الدولة بلاد المجر واقليم ترانسلفانيا للنمسا ـ وتركت بادوليا لبولندا ـ وتركت دلماسيا وقسما من المورة للبندقية .

(١٧) عبد الوهاب بكر : الدولة العثمانية ومصر فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، القاهرة ١٩٨٢ م ص ٣٢ .

السابع عشر كانت الدولة العثمانية قد بدأت تدخل مرحلة الضعف بصورة واضحة (١٨) .

ومع مطلع القرن الثامن عشر كان على الدولة العثمانية مراقبة نشاط روسيا والنمسا الطامعين فى املاكها ، فأولى السلطان أحمد خان الثالث (١٩) البحرية والأسطول اهتماما كبيرا فأكثر من المدارس البحرية وأصلح دار الصناعة فى استانبول خاصة وأن نشوب الحرب بين السويد وروسيا تم فى عهده ونجح ملك السويد شارل الثانى عشر فى دخول الأراضى الروسية ، فوجدت الدولة العثمانية ان الفرصة سانحة لها لتوجيه ضربة الى قوة روسيا العسكرية فعملت على تشجيع ملك السويد ، ولكن بطرس الأكبر نجح فى الحاق الهزيمة به فى بلطاوة واضطر شارل الثانى عشر الى اللجوء الى الدولة العثمانية عام ١٧٠٩ م فتعقبته القوات الروسية ودخلت أراضى الدولة العثمانية التى أعلنت بدورها الحرب على روسيا وتزعم بلطه جى محمد باشا حصار القوات الروسية بجانب نهر بروت حتى كاد بطرس الأكبر ان يقع فى الأسر (٢٠) . ولكن سرعان ما وقعت معاهدة بين الطرفين هى معاهدة فلكزن عام ١٧١١ م وبمقتضاها اخلى بطرس الأكبر آزوف Azov وتعهد بعدم التدخل فى شئون المنطقة (٢١) . ثم جدد يوسف باشا الصدر الأعظم المعاهدة بين البلدين وعقد معاهدة جديدة تضمنت وقف الحرب بين البلدين لمدة ٢٥ عاما ،

---

(١٨) عبد العزيز نوار : الشعوب الاسلامية ص ١٦١ .

(١٩) ١٧٠٣ -- ١٧٣٠ م (١١١٥ ـ ١١٤٣ هـ) .

(٢٠) الميرالاى اسماعيل سرهنك : تاريخ الدولة العثمانية تقديم ومراجعة حسن الزين ، القاهرة ١٩٨٨ م ص ١٩٦ ، ص ١٩٩ .

(٢١) قدمت كاترين زوجة بطرس الأكبر الى بلطة جى باشا مجوهراتها لكى يفك الحصار عن زوجها فقبلها وقبل توقيع الصلح .

ولكن كان من الصعب على بطرس الأكبر ان يتخلى عن طموحه وسياسته التوسعية فنشبت الحرب من جديد بين الطرفين وانتهت بتوقيع معاهدة أدرنة عام ١٧١٣ م وفيها تنازلت روسيا عن كافة أراضيها حول البحر الأسود (٢٢) .

وكما تجددت الحرب بين الدولة العثمانية وروسيا فقد تجددت مع النمسا أيضا بسبب رغبة السلطان فى الاستيلاء على كورفو فتقدمت القوات العثمانية الى كارلوفيتز ولكن القوات النمساوية الحقت بها الهزيمة واستولت على بلجراد عام ١٧١٧ م واضطرت الدولة لعقد معاهدة بساروفيتز Passarowitz عام ١٧١٨ م (٢٣) حيث تنازلت فيها للنمسا عن أجزاء كبيرة من أراضيها (٢٤) .

وقد سادت فترة من الهدوء بين الدولة العثمانية والدول الأوروبية بعد توقيع معاهدة بساروفيتز ، ولكن سرعان ما واجهت الدولة العثمانية خطرا جديدا تمثل فى الحرب التى دارت بينها وبين فارس فى عهد السلطان محمود خان الأول (٢٥) ، وطلب الشاه طهماسب توقيع معاهدة الصلح عام ١٧٣٢ م ولكن القائد نادر شاه عارض المعاهدة وعزل الشاه وولى ابنه عباس الثالث بدلا منه واقام نفسه وصيا عليه ثم قام بعدها بمحاصرة بغداد والموصل وحاول الوزير طوبال التصدى له ولكنه قتل ، وبعدها دارت محادثات بين الطرفين وتم الاتفاق فى عام ١٧٣٦ م فى مدينة

---

(٢٢) محمد فريد : المرجع السابق ص ١٤٣ .

(٢٣) تنازلت الدولة العثمانية عن بلجراد للنمسا وجزء من الصرب وآخر من الافلاق وأعيدت بلاد المورة الى الدولة العثمانية .

(٢٤) اسماعيل سرهنك : المرجع السابق ص ٢٠٣ .

(٢٥) ١٧٣٠ – ١٧٥٤ م (١١٤٣ – ١١٦٨ هـ) .

تفليس على أن ترد الدولة العثمانيـة كل ما أخذته من فارس وان تكون حـدود الدولتين وفقا لمعاهـدة ١٦٣٩ م المبرمة مع مراد الرابع (٣٦) .

ونلاحظ من خلال ذلك ان الدولة العثمانيـة قد وزعت جهودها العسكرية ضد القوات الأوروبية المتحالفة ضدها متمثلة فى روسيا والنمسا وكذلك اضطرت الى مواجهـة الفرس الذين كانوا يتحينون الفرصة لتوجيـه الضربات اليها باعتبارها أكبر قوة اسلامية سنية موجودة فى ذلك الوقت .

هذا ولم يستمر الهدوء الذى ساد بين الدولة العثمانيـة وروسيا طويلا فسرعان ما نشبت الحرب بينهما من جديد بسبب مملكة بولونيا فقد تم الاتفاق سرا بين روسـيا والنمسا وبروسيا عام ١٧٢٢ م على عدم تعيين ملك وطنى فى بولونيا خوفا من اتحاد الأهالى ولكن يستمر اضعافها فيتم اقتسامها بعد ذلك ، فلمـا توفى أوجست الثانى ملك بولندا انتخب الأهـالى فى عام ١٧٣٣ م ستانسلاس لكزينسكى ملكا عليهم بمساعدة فرنسـا التى ارادت الابقاء على بولندا وعدم تقسيمها فأعلنت روسيا والنمسا الحرب على بولندا ونادت بأوجست الثانى ملكا على البـلاد فسارعت فرنسا باعلان الحرب على النمسا دفاعا عن بولندا وسعت فرنسا لدى الباب العـالى بواسطة المسيو دى بونفال Bonneval قائد الطوبجية لاستمالته للدفاع عن بولندا والانضمام الى فرنسا لأن بولندا مثلت حاجزا بين روسيا وأوروبا ، فوضحت له نوايا روسيا تجـاه الدولة العثمانية ورغبتها فى احتـلال الآستانة ، ولمـا شعرت النمسا بمساعى فرنسا أسرعت بدورها فى ارضائها فوقعت معها معاهدة ويانة فى عـام ١٧٣٥ م واخذت النمسـا

---

(٣٦) محمد فريد : المرجع السابق ص ١٤٧ ، ص ١٤٨ .

تستعد مع روسيا لمواجهة الدولة العثمانية فأغارت روسيا على القرم عام ١٧٣٦ م كما احتلت كذلك ميناء آزوف وغيره من الثغور البحرية وحاول الصدر الأعظم مهاجمة القوات الروسية ولكنه اضطر لتوجيه جهوده صوب النمسا التى أغارت بدورها على البوسنة والصرب ونجحت القوات التركية فى النهاية فى اجبار النمسا على التراجع وطلب الصلح عام ١٧٣٧ م فقد سارعت النمسا بطلب وساطة المسيو فيلينوف Villeneuve السفير الفرنسى فى الآستانة لكى يقنع الدولة العثمانية بقبول عقد الصلح الذى تم فى عام ١٧٣٩ م ووقعت كذلك معاهدة بلجراد التى تنازلت فيها النمسا عما استولت عليه من الصرب بمقتضى معاهدة بساروفيتس (٢٧) ، بينما تعهدت روسيا بهدم قلاع آزوف وعدم تجديدها فى المستقبل وعدم انشاء سفن سواء كانت حربية ام تجارية بالبحر الأسود او بحرف آزوف وكذلك ان تكون تجارتها على سفن أجنبية وأن ترد للدولة العثمانية كل ما ضمته من الاقاليم والبلدان السابق استيلاؤها عليها ، وبذلك نلاحظ ان الدولة العثمانية نجحت فى معاهدة بلجراد فى استرداد جزء كبير مما فقدته من قبل فى معاهدة كارلوفيتز (٢٨) .

يتضح لنا مما سبق الدور الهام الذى لعبه السفراء الفرنسيون فى توجيه سياسة الدولة العثمانية وفق مصالح بلادهم السياسية فقد طالبوها بمساندة بولندا ثم عقدوا صلحا منفردا مع النمسا ، كذلك لعبوا دورا فى الوساطة بين الدولة العثمانية وأعدائها وذلك وفق ما تقتضيه مصالحهم لا مصالح الدولة العثمانية .

---

(٢٧) محمد فريد : المرجع السابق ص ١٤٨ ، ص ١٤٩ .

(٢٨) عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، القاهرة فى ١٩٨٠ م جـ ١ ص ١٩٥ .

ولما كانت فرنسا نفسها تخشى من نمو وتصاعد الخطر الروسي فقد نشط سفيرها فى الاستانة المسيو فيلينوف لاقناع الدولة العثمانية بمدى خطورة روسيا وتعاظم قوتها ونجح فى اقناع الدولة العثمانية بالتحالف مع السويد ضد روسيا وعقد الباب العالى بالفعل محالفة مع السويد فى عام ١٧٤٠ م ، وفى العام نفسه نجح السفير الفرنسي فى الحصول على حق تجديد الامتيازات الممنوحة للتجار الفرنسيين وارسل السلطان العثمانى محمد سعيد مبعوثا الى الملك لويس الخامس عشر ليقدم له صورة المعاهدة بين الدولتين وهى مطابقة لمعاهدة عام ١٦٧٣ م ولكن مع بعض التسهيلات الجديدة وحرص السلطان على ارسال الهدايا الثمينةمع البعثة العثمانية فأحسن الملك مقابلة البعثة وارسل معها عند عودتها مركبتين حربيتين ومدفعية فرنسية ومعلمين فرنسيين لتدريب الجيش العثمانى على النظام العسكرى الجديد الذى ادخله لوفوا Louvois الفرنسي الشهير فى القوات الفرنسية آنذاك (٢٩) .

لقد ازداد هذا التقارب الفرنسي من الباب العالى عندما نشبت حرب الوراثة النمساوية (٣٠) فى أوروبا ، وحاولت فرنسا تحريض الباب العالى على محاربة النمسا فعرضت عليه احتلال المجر واسترجاع الأملاك العثمانية لكى تعود الدولة العثمانية الى ما كانت عليه من اتساع فى عهد سليمان القانونى ، ولكن السلطان محمود لم يقبل تغيير مسلكه السلمى بل انه استمر متمسكا بمعاهدة الصلح مع النمسا مظهرا حرصه على السلام (٣١) .

---

(٢٩) محمد فريد ـ المرجع السابق ص ١٤٩ .

(٣٠) استمرت هذه الحرب فى أوروبا من عام ١٧٤٠ ـ ١٧٤٨ م .

(٣١) اسماعيل سرهنك : المرجع السابق ص ٢١٢ .

حرصت فرنسا حتى منتصف القرن الثامن عشر على التقرب من الدولة العثمانية لعدة أسباب منها رغبتها فى تجديد امتيازاتها التجارية والحصول على المزيد منها ، وكذلك للافادة من الدولة ودفعها لمحاربة منافسيها خاصة روسيا والنمسا للحيلولة دون توسعهما ، كذلك نلاحظ أن الدولة العثمانية حتى منتصف القرن الثامن عشر ورغم ما منيت به من هزائم الا أنهما واصلت رد ودفع الخطر الأوروبى وعملت على التصدى له . ولئن اختلف الأمر فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر فقد تزايد العداء بين الدولة العثمانية وروسيا بصورة خطيرة خاصة بعد تولى كاترين الثانية الحكم والتى عملت على اتباع سياسة بطرس الأكبر التوسعية سارت على نهجه فى محاربة الدولة العثمانية فأعلنت الحرب عليها فى عام ١٧٦٨ م ، كما عملت على تحريض الرعايا المسيحيين التابعين للدولة العثمانية على الانفصال عنها (٣٢) .

استمرت الحرب بين الطرفين ست سنوات منيت خلالها الدولة العثمانية بالعديد من الهزائم الفادحة واضطرت فى النهاية الى القبول بتوقيع معاهدة كتشك كينارجى Kutchek Kainardji عام ١٧٧٤ م وبمقتضى هذه المعاهدة تحول البحر الأسود من بحيرة عثمانية الى بحيرة روسية وتقرر لروسيا الحق فى انشاء قواعد عسكرية بحرية وبرية على سواحل البحر الأسود وبذلك أصبحت روسيا احدى دول البحر الأسود المعترف بها كما تقرر لها الحق فى انشاء قواعد عسكرية بحرية وبرية على سواحل البحر الأسود كما تقرر لها الحق فى أن تستخدم سفنها التجارية المضايق للخروج من هذا البحر الى البحار العامة والدخول منها اليه . وقد ورد فى المعاهدة

(٣٢) عبد الوهاب بكر : المرجع السابق ص ٣٤ .

مسألتان الأولى هى الحقوق الملاحية لروسيا فى البحر الأسود والمضايق والثانية هو الوجود العسكرى البحرى والبرى فى البحر الأسود . وقررت المعاهدة السماح للرعايا الروس بممارسة التجارة فى جميع ولايات الدولة العثمانية وأن يطبق عليهم نظام الامتيازات مثل رعايا بريطانيا وفرنسا ، وقد فاقت معاهدة كينارجي المعاهدات السابقة وشكلت نموذجا للعلاقة بين الدولة العثمانية وروسيا (٢٣) .

ثم دخلت الدولة العثمانية فى حرب جديدة ضد روسيا عام ١٧٨٨ م شاركت فيها النمسا وانتهت بتوقيع معاهدة ياسى Jassy عام ١٧٨٢ م التى حصلت روسيا بمقتضاها على عدد من الموانى عند مصب نهر الدانوب وكان السبب المباشر لهذه الحرب الأخيرة ان كاترين الثانية دأبت بعد معاهدة كينارجى على اشعال الفتنة بين رعايا الدولة العثمانية من الأرثوزكس فى البلقان وبحر ايجة وامدتهم بالأسلحة والمال فاضطرت الدولة العثمانية لاعلان الحرب عليها (٢٤) .

وجدير بالذكر أن فرنسا خلال الحرب التركية (١٧٦٨ - ١٧٧٤ م) خشيت سقوط الدولة العثمانية فعمل البارون دى توت على تحصين الدردنيل واصلاح القلاع وامدادها بالمدافع الضخمة بحيث جعل المرور من المضايق أمرا مستحيلا ثم حول عدة مراكب تجارية الى سفن حربية واسس مدرسة لتخريج ضباط البحرية واهتم بتدريبهم على احدث الأسلحة (٢٥) . فقد خشيت فرنسا انهيار الدولة وما يترتب

---

(٢٣) عبد العزيز الشناوى : المرجع السابق جـ ١ ص ١٩٦ ، ص ١٩٧ .

(٢٤) عبد الوهاب بكر : المرجع السابق ص ٣٨١ .

(٢٥) محمد فريد : المرجع السابق ص ١٥٨ ، ص ١٥٩ .

على ذلك من تصاعد النفوذ الروسي ، كذلك أرادت الحفاظ على تجارة أسكلات الشرق ومصالحها التجارية فيها وداب السفير الفرنسي فرجين على تحريض السلطان العثماني ضد روسيا (٣٦) .

لقد تعرضت الدولة العثمانية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر لتآمر دولتين كبيرتين : روسيا من الشمال والنمسا من الغرب ودخلت الدولة العثمانية في عدة حروب أخرى طاحنة مع روسيا التي اتخذت من حماية المسيحيين الأرثوذكس ذريعة لمحاربة الدولة العثمانية ولم يوقف من عمليات سحق الدولة العثمانية والقضاء عليها في نهاية القرن الثامن عشر سوى قيام الثورة الفرنسية وانصراف روسيا والنمسا الى مشاكل أوروبا (٣٧) .

وبذلك يمكننا القول ان الفترة التي أعقبت معاهدة كتشك كينارجي وحتى نهاية القرن الثامن عشر من أحلك الفترات التي عانت منها الدولة العثمانية ولا ننسى تشجيع الروس للحركات الانفصالية عن الدولة في الولايات العربية خاصة في الشام ومصر (٣٨) أي أن دورهم في تشجيع الولايات على الانفصال عن الدولة العثمانية لم يقتصر على الولايات والمناطق التي يقطنها أغلبية مسيحية فقط .

---

(٣٦) Roux, Charles : Les Origines de L'expédition d'Egypte Paris 1910 P. 62.

(٣٧) عبد الوهاب بكر : المرجع السابق ص ٣٩ .

(٣٨) Roux, Charles : Les Echelles de Syrie et de Palestine au XVIII siècle. Paris 1928 tome X. PP. 84 — 85.

فرنسا وفكرة تقسيم الدولة العثمانية

دافع الساسة الفرنسيون عن فكرة الابقاء على الدولة العثمانية وعارضوا فكرة تقسيمها ومن أبرز أنصار هذه الفكرة السفير الفرنسي فى الاستانة سان بريه Saint Priest الذى مكث فترة طويلة فى منصبه مما أتاح له فرصة مراقبة الطامعين فى الدولة من جيرانها خاصة النمسا وروسيا . وقد تمتع سان بريه بثقة سلاطين الدولة العثمانية فكلفوه بالوساطة بينهم وبين كاترين الثانية وجوزيف الثانى وقد أرسل دى بريه العديد من التقارير الى الحكومة الفرنسية منبها ومحذرا من تزايد الخطر النمساوى وموضحا اطماعها فى الدانوب كذلك نبه لحالة الضعف الشديدة التى وصلت اليها الدولة العثمانية وأظهر تخوفا كبيرا من أطماع روسيا فى ممتلكاتها (٢٩) .

كذلك ناقش الساسة الفرنسيون والقناصل مسألة سقوط الدولة العثمانية فقدم سور القنصل الفرنسى فى الاسكندرية

---

(٢٩) Roux, Ch. : Op. Cit., P. 103.

تقريرا فى عـام ١٧٨٣ م تنبأ فيه بسقوط الدولة العثمانية ، ولكن الكونت فرجين Vergenne وزير الخارجية الفرنسية لم يتفق معه فى الرأى وأكد أن الامبراطورية العثمانيـة ليست وشـيكة الانحـلال بالصورة التى تنبأ بها كل من مور او سان بريـيـه فى الاستانة ولكنه فى الوقت نفسه نبه على ضرورة المحافظة على علاقات الود والصداقة مع الدولة العثمانية (٤٠) .

وجدير بالذكر أنه على الرغم من مساندة فرنسـا للدولة العثمانية ودعوتها للابقاء على الدولة العثمانية ومنع انهيارها ، الا ان الشعوب المسيحية الخاضعة للدولة العثمانية قد نظرت الى فرنسا باعتبـارها المنقذ لها من سيطرة الدولة العثمانيـة وهيمنتها عليهم وخاصة بعد المساعـدات القيمـة التى قدمتها الحكومة الفرنسـية للثوار الأمريكيين من أجل الحصـول على استقلالهم عن بريطانيا ،ونذلل على ذلك بالرسالة التى أرسلها مواطنو كاندى فى ١٢ يونيو عام ١٧٨٥ م الى الملك لويس السادس عشر يطلبون منه فيهـا المساعدة والتدخل ومسـاندتهم ضـد الدولة العثمانية كما فعل من قبل مع ثوار أمريكا وقد وجد هذا الاتجاه تشجيعا من بعض الساسـة الفرنسيين فكتب البارون دى برتيه Bertier رسـالة يوضح فيها للحـكومة الفرنسية اهمية كاندى ومطالبا بتقديم يد المساعدة الى اهـالى الجزيرة للتخلص من السيطرة العثمانية (٤١) .

ولكن فرنسا ظلت على سياستها التى انتهجتهـا الا وهى المحافظـة والابقـاء على الدولة العثمانيـة وحـذر الدوق

---

(٤٠) عبد الرحيم عبد الرحمن : تاريخ العرب الحديث والمعاصر ، القاهرة ١٩٨٦ ص ٢٠٢ .

(٤١) Roux. Op. Cit., P. 176.

لوزرن Lauzern الذى أرسل مبعوثا الى كاترين الثانيـة فى روسيا من أطماع الأخيرة فى ممتلكات الدولة العثمانية فكتب فى تقريره الذى رفعه الى حكومته « ان الامبراطورة تريد طرد الأتراك من أوروبا ، وتريد أن يكون مقر عرشها فى القسطنطينية (٤٢) .

وإذا كان السفير الفرنسى سان بريبه قد تبنى لمدة ستة عشر عاما فكرة المحافظة والابقاء على الدولة العثمانية الا ان خلفه شوازيل جوفييه Choiseul-Gouffier كان له رأى آخر فقد رأى ضرورة تقسيم الامبراطورية العثمانية وان تكون مصر من نصيب فرنسا (٤٣) .

ويمكننا القول انه فى القرن الثامن عشر قد ظهرت عدة مشاريع لتقسيم الدولة العثمانية ، فمنها المشروع الروسى الذى يتلخص فى أن يكون لروسيا حق الزعامة على المسيحيين التابعين للدولة العثمانية وهذا بالطبع يعنى احياء الدولة البيزنطية القديمة بزعامة روسيا والعمل على اعادة مجدها القديم (٤٤) . اما المشروع الثانى وهو المشروع اليونانى الذى تضمن استبعاد الدولة العثمانية من اوروبا وتقسيم ممتلكاتها بين روسيا والنمسا على أن يكون البلقان من نصيب النمسا أما استانبول وتراقيا ومقدونيا وبلغاريا واليونان فتكون من نصيب روسيا (٤٥) . ويبدو ان الساسة الفرنسيين أعجبوا بالمشروع الأخير لأنه بمقتضاه تحصل فرنسا على مصر وسوريا وتشارك بريطانيا فى

---

(٤٢) Ibid P. 87.

(٤٣) Ibid P. 111.

(٤٤) جلال يحيى : مصر الحديثة ١٥١٧ ـ ١٨٠٥ ، الاسكندرية ص ٣٣ .

(٤٥) المرجع السابق ، ص ٣٣ .

تجارة حوض البحر الأبيض المتوسط الشرقى ، وتأكيدا لهذا المشروع سحبت فرنسا مستشاريها العسكريين من الجيش العثمانى عام ١٧٨٦ م ثم ما لبثت أن وقعت معاهدة صداقة وتجارة فى عام ١٧٨٧ م مع روسيا (٤٦) .

ولكن رغم هذا التغير فى السياسة الفرنسية وبعد قبول فرنسا توقيع معاهدة الصداقة مع روسيا الا أن الخط العام للدولة ظل قائما على سياسة المحافظة على ممتلكات الدولة العثمانية وكذلك المحافظة على الوضع القائم فيها وعدم فتح باب مناقشة تقسيم الدولة لما سيؤدي اليه من قلاقل (٤٧) . ونستدل على ذلك ان فرنسا أعادت خبراءها العسكريين الى الدولة العثمانية فعندما أظهر السلطان العثمانى سليم الثالث (٤٨) . ميلا نحو الاصلاح واخراج البلاد من عزلتها والأخذ بأسباب المدنية الأوروبية خاصة من فرنسا استدعى السفير الفرنسى فى الاستانة عام ١٧٩٦ ، عددا من المهندسين والضباط الفرنسيين لتدريب فرق الفرسان العثمانية على الطراز الأوروبى فكان من الطبيعى أن ينظر الروس لهذه التجديدات بعين الحسد والحقد (٤٩) .

وسرعان ما تغيرت العلاقة بين الدولة العثمانية وفرنسا وذلك بمجيء الحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨ م ، فأسرعت الدولة العثمانية بابرام تحالف دفاعى مع روسيا عام ١٧٩٨ م للدفاع عن استانبول وكانت مدة التحالف هذا ثمانى سنوات ، عقد بين السلطان سليم الثالث والقيصر بول الأول وخرج بذلك

---

(٤٦) عبد الوهاب بكر : المرجع السابق ص ٢٨ .
(٤٧) جلال يحيى : المرجع السابق ص ٣٣ .
(٤٨) ١٧٨٩ - ١٨٠٧ م .
(٤٩) سرهنك : المرجع السابق ص ٢٤٠ .

السلطان سليم الثالث عن السياسة العليا التي رسمها حكام الدولة العثمانية . ويرجع سبب هذا التحالف الى الذعر الذى أصاب الدولة العثمانية من احتلال فرنسا لمصر لأنه كان أول احتلال عسكرى اوروبى مسيحى لولاية عثمانية اسلامية فى التاريخ الحديث (٥٠) .

وهكذا شهدت السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر تحولا كبيرا فى العلاقات الفرنسية العثمانية .

---

(٥٠) الشناوى : المرجع السابق جـ ١ ص ١٩٩ .

مصر فى مخططات الساسة الفرنسيين

يرجع اهتمـــام فرنســا بمصر فى القرنين الســـادس عشر والسابع عشر الى حرصها على التعرف على امبراطوريات الشرق العظيمة خاصـــة الامبراطورية العثمانية والفارســـية والصينية والهندية فقد كان الاهتمام بمصر فى ذلك الوقت جزءا من الاهتمام الأكبر والأهم بالامبراطورية المهيمنـــة على مصر الا وهى الدولة العثمانية (٥١) . أما فى القرن الثامن عشر فقد اختلف الوضـــع فقد اهتمت فرنسا بمصر لذاتها فقد لفتت ثروات مصر الزراعية ، وموقعها الجغرافى الهام اهتمـــام الساسة الفرنسـيين ، ويرجع الفضل فى ذلك الى كتابات الرحالة الفرنسيين والقناصل الذين كتبوا بافاضـــة عنها فلم تعد معرفة الفرنسيين بها قاصرة على مدن مصر السفلى واهم المزارات المسيحية فيها كما كان الحـــال عليه فى القرنين السابقين وانما اكتملت صـــورة مدن مصر بعد ان جاب هؤلاء الرحـــالة مدن مصر العليا وتعمقوا فيها مسجلين

---

(٥١) الهام ذهنى : المرجع السابق ص ١٣٧ .

مشاهداتهم وملاحظاتهم مؤكدين على ضرورة الاستيلاء على هذا البلد الغني بموارده ومن هنا ظهرت فكرة غزو مصر لدى الساسة فى فرنسا فى القرن الثامن عشر .

وجدير بالذكر ان فكرة غزو مصر لايمكن أن تنسب الى القرن الثامن عشر فحسب وانما روج لها بعض الرحالة والساسة منذ القرن السابع عشر فدعا الرحالة الفرنسي الأب كوبان فى النصف الأول من القرن السابع عشر الى غزو مصر ونشر رحلته عن مصر فى كتاب عن الحروب الصليبية حرض فيه وعمل على اثارة حماس العالم المسيحى لغزو مصر مذكرا الأوروبيين بأمجاد جودفرى بويون وغيره . كذلك دعا الى اتحاد أوروبا ضد الدولة العثمانية وتحرير الشرقى المسيحى منها (٥٢) .

ثم تجددت هذه الفكرة فى عهد لويس الرابع عشر اذ عرض عليه الفيلسوف الألمانى ليبينيه Leibnitz مشروعا لغزو مصر عام ١٦٧٥ م موضحا فوائده خاصة وانه سيمكن فرنسا من احتكار تجارة الهند وجاء رد السفير الفرنسي أرنولد دى بونبون Arnauld De Pomponne بأن الملك اضطلع على المشروع ولكن « مشروعات الحروب المقدسة لم تعد مناسبة منذ عهد لويس التاسع » (٥٣) .

والواقع ان ليبينيه نادى بغزو مصر « لاعلان الحرب ضد الخونة » وعكف على وضع مشروعه بعد نجاح موقعة سلن جوتار عام ١٦٦٤ م فقدمه الى الوزير الفرنسي ورغم ان الأخير أجابه

---

(٥٢) المرجع السابق ص ٦٢ .

(٥٣) Clément, R. : Les Français d'Egypte au XVII et XVIII siècles. Le Caire 1960. P. 266.

برفض المشروع الا ان ليبينيه ظل يراسل لويس الرابع عشر موضحا اهمية غزو مصر حتى عام ١٦٧٦ م وما زالت تقاريره ومذكراته محفوظة فى مكتبة هانوفر (٥٤) . وقد حاول ليبينيه اثارة حماس لويس الرابع عشر فأكد له « ان الغزو سيؤدى الى القضاء على منافسة هولندا له لأن مصر هى الميدان الذى من الممكن توجيه ضربة منه الى هولندا ، وانها هى الطريق الحقيقى الى الهند وباحتلالها سوف يمتلك زمام التجارة وينتزعها من يد الهولنديين » كذلك اكد له « انه سيتمكن من بسط سلطان فرنسا وسيادتها فى بلاد الشرق وتكسبون عطف المسيحية وتستحقون ثناءها (٥٥) .

ويمكننا القول ان فكرة غزو مصر فى القرن السابع عشر لم تقتصر على ليبينيه وحده وانما نادى بها سفراء فرنسا فى الاستانة نخص منهم دنيس دى هاى Denis De Haye والماركيز دى نوانتيل De Nointel وجيردان Girardin وقد اثيرت هذه الفكرة فى عهد لويس السادس عشر حيث عكفت الحكومة الفرنسية على دراسة هذا المشروع دراسة جدية (٥٦) . وقد وجدت التقارير الخاصة بغزو مصر فى المكتبة الوطنية فى باريس ، كذلك وجد مخطوط يناقش هذه الفكرة (٥٧) .

وجدير بالذكر ان السفير الفرنسى فى الاستانة سان بريه الذى دافع عن فكرة الابقاء على الامبراطورية العثمانية وعدم

---

(٥٤) Brehier, L. : L'Egypte De 1798 à 1900 Paris 1900 P. 22.

(٥٥) عبد الرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر ، القاهرة فى ١٩٨١ م جـ ١ ص ٧٦ .

(٥٦) Clement : Op. Cit., P. 266.

(٥٧) Projet de Conquête pour La règne du roi Louis XV

تقسيمها بين الدول الأوروبية دعا لغزو مصر فكتب في ١٧ يوليو عام ١٧٦٨ م معللا فكرة الغزو « لأن مصر تعتبر دولة ذات طابع مستقل » (٥٨) .

ولاشك ان فكرة الغزو نمت حسب أحوال فرنسا الداخلية فعندما هزمت فرنسا في حرب السنوات السبع وفقدت ممتلكاتها في العالم الجديد والهند ظهرت هذه الفكرة بصورة قوية ونستدل على ذلك مما كتبه الدوق شوازيل الى الكونت فرجين عام ١٧٦٦ م يطالب « بغزو مصر لكي تكون بديلا من امريكا الضائعة والهند » (٥٩) . وعندما ظهرت مشروعات تقسيم الدولة العثمانية بين روسيا والنمسا رحب دي شوازيل بالفكرة عام ١٧٦٩ م على أن تكون مصر من نصيب فرنسا وبعد مضى أكثر من عشرين عاما على كتابات دى شوازيل ومقترحاته عن غزو مصر نجد أن السياسى الفرنسي الشهير تاليران Talleyrand يثنى عليه فيكتب في عام ١٧٩٧ م أى قبيل الحملة الفرنسية « ان الدوق دى شوازيل كان من القلائل الذين امتازوا بأن لديهم حاسة نحو المستقبل فاقتراحه بغزو مصر كان اقتراحا صائبا من اجل تنمية التجارة ولتعويض فرنسا عما فقدته من مستعمرات في امريكا والهند » (٦٠) .

وكما ذكرنا من قبل ان فكرة الغزو أصبح لها صفة رسمية منذ عهد لويس السادس عشر ففى عام ١٧٧٧ م ارسل البارون دى توت العمل مفتشا لأسكلات الشرق ولكن كانت له

---

(٥٨) Hanotaux, G. : Histoire de La Nation Egyptienne. Paris 1931 Tome V P. 202.

(٥٩) Roux : Op. Cit., P. 40.

(٦٠) Ibid P. 40.

مهمة أخرى سرية الا وهى بحث امكانيــة غزو مصر فزار المدن السـاحلية الهامة فى مصر كأبى قير والاسكندرية ودمياط ورشـيد فدون ملاحظاته حول تحصـينات هذه المدن واكد اهميــة غزو مصر « لأنه مشروع هين » على حد قوله ولكن بعثة دى توت لم تكن لها اية نتائج مباشرة لانشغال فرنسا بتدعيم ثوار امريكا للاستقلال عن بريطانيا (٦١) .

وخلال عامى ١٧٧٧ ـ ١٧٧٨ م قدم سان بريبه عدة تقارير الى الوزير فرجين (٦٢) تضمنت جميعها غزو مصر موضحا « خصوبة أراضيها حيث ينمو فيها النبات دون زراعة وبذلك نتمكن من تعويض جميع محـاصـيل مستعمراتنا التى فقدناها فى كندا كما ان القوة الحاكمة من السهل القضـاء عليهـا » (٦٣) . وفى عام ١٧٨٠ م وضع القس رينل Raynal (٦٤) كتابا أوضح فيه أهمية الاستيلاء على مصر لتعويض فرنسا عما فقدته بعد هزيمتها فى حرب السنوات السبع (٦٥) .

واثناء حرب الاستقلال الأمريكية وضــع البارون ولدنيه Waldner عـام ١٧٨٢ م مشروعـا بالاسـتيلاء على مصر واستبعاد تجارة بريطانيا من البحر الأحمر والهند (٦٦) . وفى عام ١٧٨٣ م تخوف مور القنصـل الفرنسى فى الاسكندرية من

---

(٦١) Clement : Op. Cit., P. 269.
(٦٢) Mémoire sur Le Commerce et la navigation au Levant
(٦٣) Hanotaux : Op. Cit., P. 204.
(٦٤) L'Abbé Raynal : L'histoire philosophique et Politique des établissements des Européens dans les deux Indes.
(٦٥) Roux : Op. Cit., P. 99.
(٦٦) Clement : Op. Cit., P. 270.

غزو النمسا لمصر وامكانية تعاونها مع الامبراطورة كاترين الثانية فى روسيا فكتب « ان تجارة الشرق خاصة مصر تعطى نشاطا وحيوية كبيرة للبحرية ، وان احتلال مصر يعوضنا عن منتجات امريكا » « ان اسطولا فرنسيا مكونا من ١٢ الى ١٥ سفينة فى السويس قادر على أن يحول فرنسا الى سيدة الموقف فى البحر الأحمر » ، وطالب مور بتدعيم السيطرة الفرنسية على مصر العليا ووضع قوة عسكرية فرنسية عند الشلال الأول لمد النفوذ على بلاد النوبة ووضع فصائل من الجنود من القاهرة حتى إسوان ، كذلك توزيع قوات عسكرية فى الفيوم ودمنهور لمراقبة عرب البحيرة وتركيز قوات بين الاسكندرية وطرابلس (٦٧) .

وفى عام ١٧٨٣ م أرسلت فرنسا بعض ضباط البحرية ليتعرفوا على النقاط الحربية الهامة فى مصر فقدمت البعثة برئاسة الكونت بونفال **Bonneval** ثم تبعه برفاليه **La Prevalay** الذى حاول عقد اتفاق مع المماليك ولكنه فشل فأرسلت الحكومة الفرنسية تروجيه عام ١٧٨٥ م للتفاوض مع المماليك (٦٨) .

وفى عام ١٧٨٤ م أوضح السفير الفرنسى فى الاستانة شوازل جوفييه فى مذكرة الى فرجين وزير الخارجية (٦٩) . مدى الضعف الذى أصاب الدولة العثمانية واعرب عن تخوفه من تزايد النفوذ الروسى والبريطانى واعرب عن اسفه من أن الملك لويس السادس عشر لم يكن لديه طموح الامبراطورة كاترين امبراطورة روسيا ولا جوزيف الثانى امبراطور النمسا (٧٠) .

---

(٦٧) Roux : Op. Cit., P. 125.

(٦٨) Ibid P. 144.

(٦٩) Notions sur L'état actuel de l'empire ottoman

(٧٠) Roux : Op. Cit., P. 118.

ومن الطريف انه فى سنة ١٧٨٦ م استقدم ابراهيم بك أعدادا كبيرة من المماليك من جورجيا والقوقاز فتخوف شوازل من ذلك وكتب الى حكومته « لقد أرسلت روسيا الى ابراهيم بك ٥٠٠ جندى واننى اخشى من المد الروسى » (٧١) .

وقبيل نشوب الثورة الفرنسية خرج مشروع غزو مصر من نطاق السرية وأصبح يناقش علنيا فى باريس ففى عام ١٧٨٧ م قدمت مذكرتان الى الحكومة الفرنسية الأولى مجهولة الكاتب والثانية كانت بتوقيع ريمون ليبون Raymond Lebon اوضحت المذكرات اهمية الاستيلاء على رودس « لأنها مدخل أوروبا وآسيا كما أنها فى مواجهة الميناء القديم الشهير الاسكندرية » . وأكد ريمون ليبون فى مذكرته اهمية رودس كطريق تجارى الى السويس « ان مركز جزيرة رودس كطريق تجارى تسمح بقيام نشاط تجارى وصناعى سواء مع فارس عن طريق البحر الأسود سواء مع مصر عن طريق ميناء رشيد » كما أن رودس سوف تتيح لنا الحصول على منتجات الهند عن طريق البحر الأحمر وتصل هذه المنتجات الى القاهرة بواسطة القوافل (٧٢) .

اما المذكرة الثانية وكانت عن احتلال رودس أيضا « من أجل مركزها بين مصر والبحر الأسود » ، « ولو أحكمت فرنسا السيطرة على رودس فأنها تستطيع أن تكون فى طريق البحر الأحمر تجارة تدر عليهم الأرباح » (٧٣) .

وعندما قامت الثورة الفرنسية عين ماجالون Magallon قنصلا فى مصر عام ١٧٩٣ م ولعب دورا هاما فى تنبيه حكومة

---

(٧١) Ibid. P. 129.

(٧٢) Roux : Op. Cit., P. 207.

(٧٣) Ibid. P. 208.

بلاده الى اهمية الاستيلاء على مصر فكتب يقول « ولابد من انهاء عبث الحكام المماليك بمصالح فرنسا التجارية ، ولابد للجمهورية ان تستخدم القوة لغزو مصر للمزايا والفوائد السياسية والاقتصادية التى سوف تجنيها فرنسا من سيطرتها على مصر وعلى البحر الأحمر » (٧٤) . وأوضحت تقارير ماجالون مزايا الاستيلاء على مصر لخصوبة اراضيها وتحويلها الى مستعمرة زراعية وسوق لتوزيع السلع (٧٥) . وذكر فى احدى تقاريره « ان اجمل هدية تقدم الى الشعب الفرنسى هى غزو مصر » (٧٦) . واوضح ماجالون فى تقرير كتبه فى ١٠ أكتوبر عام ١٧٩٥ م « أن الفترة الزمنية التى يمكن للقوات الفرنسية أن تتحرك فيها من فرنسا الى الهند عبر مصر والبحر الأحمر قبل أن تتمكن القوات البريطانية من مطاردتها تستغرق نحو ٤٥ يوما قبل أن يكون لدى بريطانيا فسحة من الوقت لتتخذ اى اجراء مضاد » (٧٧) .

اذا كنا قد استعرضنا موقف فرنسا الرسمى من فكرة غزو مصر فينبغى لنا أن نذكر ما كتبه الرحالة الفرنسيون عن هذه الفكرة نخص بالذكر منهم كلا من سونينى دى مانكور واوليفيه الأول زار مصر بعد نشوب الثورة الفرنسية والثانى زارها فى عهد حكومة الادارة ولنقرأ ما سجله سونينى « لابد من غزو مصر للافادة من ثرواتها ، فضلا عن ان بريطانيا استأثرت بالهند وأصبحت ممتلكاتها فريسة فى يدها ، فمن الأفضل لفرنسا ان

---

(٧٤) عبد الرحيم عبد الرحمن : المرجع السابق ص ٢٠٢ .

(٧٥) جلال يحيى : المرجع السابق ص ٣٣٥ .

(٧٦) Roux : Op. Cit., P. 272.

(٧٧) فاروق اباظة : عدن والسياسة البريطانية فى البحر الأحمر ، ١٨٣٩ - ١٩١٨ ، القاهرة ١٩٨٧ ص ٨٠ .

تستولى على مصر ، فهى تقع على ساحل افريقيا ، وتعتبر همزة الوصل بين آسيا واوروبا ، ومن الممكن أن تكون مركزا لتجارة العالم لو استولت عليها فرنسا ، فمصر هى مهد العلوم والفنون وسوف تنتعش تجارتها مما يتيح لفرنسا أن تكون أكثر دول العالم ثراء بسبب التجارة » (٧٨) .

أما أوليفيه فقد كتب « مصر هى الانحطاط والجهل والبؤس والطغيان ، انها تنحني دائما أمام أقدام الأجانب ، طوال تاريخها ، وذلك بسبب موقعها الجغرافى وأراضيها الخصيبة ولا نستطيع أن نعدد الغزوات التى تعرضت لها مصر ، وهى من السهل غزوها » (٧٩) ، كذلك دعا أوليفيه لانفصال مصر عن الباب العالى لأن ذلك « سيؤدى الى استقرار الفرنسيين وتجارتهم ولاسيما ان المماليك لا يكفون عن التطاحن ، والحكومة العثمانية عاجزة عن القضاء على سلالة العبيد الآسيوية بسبب انتشار الفوضى ولابد من غزو مصر لاعادتها الى عظمتها والافادة من طريق البحر الأحمر ، وفتح الموانى للملاحة مع الهند ولابد وان يعود للاسكندرية مكانتها السابقة » وعدد أوليفيه الفوائد التى سوف تعود على فرنسا من الغزو « ستصبح مصر أغنى دولة فى العالم وفى نفس الوقت سيضيف الغزو مجدا عسكريا لفرنسا » (٨٠) . « وينبغى علينا الا ننتظر سقوط الدولة العثمانية لتكون مصر من نصيبنا ان الغزو سيتيح لنا الحصول على المنتجات الفارسية والصينية والحبشية » « لابد من جيش

---

(٧٨) Sonnini, C. : Voyage eu Egypte Paris 1793 + 1 P. 265.

(٧٩) Olivier, G. : Voyage dans l'empire ottoman L' Egypte et La Perse + 3 P. 178.

(٨٠) Ibid PP. 220 — 233.

من العلماء والعسكريين ليصاحبوا الحملة المعدة لاحتلال مصر » « وسوف ينظر الينا الشعب المصرى على اننا محرروه » « ان سكان مصر اصيبوا بالعمى ولا يعرفون مصالحهم الحقيقية وانه من مصلحتهم ابعاد سلالة المماليك الذين جلبوا عليهم العار ، لابد من احلال أمة جديدة حرة تفتح ابوابها أمام التجارة وتعمل على تطوير الصناعة ، يجب الا نترك مصر غارقة فى يد البرابرة » (٨١) .

نلاحظ مما كتبه الرحالة الفرنسيون تركيزهم على مصالح فرنسا التجارية والفوائد التى ستعود عليها من جراء غزو مصر ، ولكنهم حرصوا على ان يحيطوا اطماعهم بهالة من المبادىء الانسانية مثل انقاذ شعب مصر من « الطغاة المماليك » وادخال المدنية الحديثة فى البلاد . ولاشك ان هذه المبادىء ما كانت تذكر الا لخدمة اهدافهم السياسية ولا ننسى ان القرن الثامن عشر هو عصر ظهور الحركة الفكرية فى فرنسا وما استتبع ذلك من نشر الأفكار الحرة فنادى المفكرون بأن فرنسا عليها التزام حضارى ازاء الشعوب المتخلفة ، ولكن فى حقيقة الأمر ان فرنسا ارادت بعد هزيمتها المريرة فى حرب السنوات السبع وانتزاع ممتلكاتها فى الهند واستبعاد نفوذها من كندا وامريكا الشمالية أن تعوض ما فقدته وقد وجدت فرنسا بالفعل البديل عن الهند فسعت فى أعقاب حرب السنوات السبع فى تكوين امبراطورية استعمارية كبيرة فى الهند الصينية (٨٢) ، كذلك سعت للبحث عن أماكن جديدة تعوضها عما فقدته فى أمريكا ولاشك ان مصر بحكم موقعها

---

(٨١) Ibid. PP. 316 — 318.

(٨٢) انظر بحث د. الهام ذهنى : فرنسا والهند الصينية ، مجلة كلية الدراسات الانسانية ، العدد السابع ١٤٠٩ هـ ـ ١٩٨٩ م .

الجغرافى كانت تصلح خير قاعدة لانطلاق النفوذ الفرنسى فى آسيا وافريقيا وتذكرنا هزيمة فرنسا فى حرب السنوات السبع وما اعقب ذلك من رغبة ملحة لدى الساسة والمفكرين لبناء امبراطوريات استعمارية جديدة بما حدث لفرنسا بعد ذلك فى فترة متأخرة فى القرن التاسع عشر عندما منيت بهزيمة فادحة من قبل المانيا وفقدت الالزاس واللورين فجند الساسة الفرنسيون طاقتهم لصرف انظار الشعب الفرنسى عن هذه الهزيمة بالتوسع فيما وراء البحار وتكوين امبراطوريات استعمارية فرنسية وان كانت النزعة الاستعمارية قد ظهرت بصورة أوضح فى القرن التاسع عشر .

ولاشك ان تقارير القناصل الفرنسيين وكتابات الرحالة قد أسهمت بدور كبير فى تأكيد فكرة غزو مصر ولكن ينبغى الا ننكر ان ضعف أحوال مصر الداخلية كان من اهم العوامل التى ساعدت على اتمام هذه الفكرة فقد شهد القرن الثامن عشر ضعف السلطة المركزية ، وانتشار المنازعات بين المماليك بعضهم وبعض وبين الأوجاقات مما ادى الى انتشار المذابح فى الشوارع . مما شجع البدو على الاغارة على القوافل التجارية (٨٣) ، كذلك ساعدت الأحوال الاقتصادية السيئة على تأكيد فكرة الاستيلاء على مصر خاصة بعد تدهور الصناعة والزراعة والتجارة واهمال الجسور والترع وتقلص مساحة الأراضى الزراعية والقحط بسبب انخفاض مياه الفيضان . وعبر المؤرخ المصرى الجبرتى عن تدهور الأحوال الاقتصادية أصدق تعبير « لا يجد الزبال شيئا يكنسه فى مصر » (٨٤) .

---

(٨٣) احمد الحتة : تاريخ مصر الاقتصادى فى القرن التاسع عشر ، القاهرة ، ١٩٦٧ ص ٣ .

(٨٤) جلال يحيى : المرجع السابق ، ص ٣١٥ – ص ٣١٨ .

وأخيرا فى عهد حكومة الادارة تقرر غزو مصر ولاشك أن كتابات تاليران أكدت كلها أهمية مصر لأنها « سوف تحل محل جزر الانتيل وتحولها الى مستعمرة فرنسية » كما أن الأدميرال روزيلى قدم عدة خرائط بحرية الى مونج مفتش العلوم والفنون فى أيطاليا عن مصر ، كذلك قدم عدة تقارير عن أوضاع البلاد الاقتصادية ، أضف الى ذلك مذكرات تروجيه عن مصر ورسائل ماجالون وكتابات غيرهم من القناصل والرحالة الفرنسيين تم تجميع كل هذه التقارير فى دوسيه كامل عن مصر وضعها مونج أمامه وعرضت على نابليون بصفته القائد الموكل اليه مهمة الغزو (٨٥) .

---

(٨٥) Roux : Op. Cit., PP. 304 — 305.

الفصـــل الثـــانى

تعريف بالرحالة والقناصل الفرنسيين

تعريف بالرحالة الفرنسيين

تزايد شغف الفرنسيين تجاه الشرق منذ القرنين السادس عشر والسابع عشر وحرص الرحالة الفرنسيون على تعريف أبناء بلدهم بامبراطوريات الشرق العظيمة في ذلك الوقت ، خاصة الامبراطورية العثمانية ، والفارسية والصينية والهندية ، وجاء الاهتمام بمصر خلال هذه الفترة باعتبارها جزءا من الامبراطورية العثمانية . وجاءت كتابات هؤلاء الرحالة عن الشرق ومصر بعد انقطاع طويل عن هذه المناطق فتم تداول كتاباتهم من قصر الى قصر ومن كنيسة الى كنيسة واستقبل الفرنسيون هذه الكتابات بشغف وحماس شديد .

ويلاحظ ان الرحالة الفرنسيين قد تنوعت وظائفهم في تلك الفترة فمنهم رجال الدين المسيحي مثل جريفان افاجار Greffin Affagart ، وفيلامون Villamont ، وكوبان Coppin ومنهم الساسة والسفراء مثل جان تينو Jean Thenaud وشسنو ودى بريف وفرمنال ، ومنهم الطبيب والفيزيائي والجغرافي مثل بيلون ومونكوني وتيفيه

Thevet . وقد اقتصر وصف هؤلاء الرحالة على مدن مصر السفلى وأهم المزارات المسيحية فيها ولم يحاولوا التعمق فى صعيد مصر اما لقصر الفترة التى قضوها فى مصر أو لعدم معرفتهم ودرايتهم بمدن الوجه القبلى وخوفهم من التجول فى مناطق مجهولة بالنسبة لهم ، كذلك كان لابد من حصولهم على اذن من السلطات لكى يتمكنوا من زيارة هذه الأماكن .

ويمكن القول أن كتابات هؤلاء الرحالة قد حوت العديد من المبالغات ، كذلك نقل البعض منهم ملاحظات وآراء استرابون وهيرودوت كما اتسمت كتاباتهم بالسرعة فجاءت فى صورة جمل قصيرة وعبارات جافة (٨٦) .

واذا كانت مصر العليا قد ظلت مجهولة بالنسبة لرحالة القرنين السادس عشر والسابع عشر ، الا ان رحالة القرن الثامن عشر عملوا على كشف هذا الغموض فتوغلوا فى صعيد مصر وساعدهم على ذلك ان الحكومة الفرنسية شجعت مثل هذه الرحلات خاصة فى عهد لويس الخامس عشر ويمكننا القول ان الاهتمام بالشرق قد تزايد فى القرن الثامن عشر وذلك لرغبة فرنسا فى التوسع الاستعمارى ونشر مذهبها الكاثوليكى بواسطة بعثاتها التنصيرية التى تدفقت على الشرق خلال هذا القرن . ويتضح لنا مدى هذا الاهتمام فى انكباب المستشرقين على ترجمة المؤلفات بالعربية فجددت ترجمة القرآن الكريم (٨٧) فى خلال

---

(٨٦) الهام ذهنى : المرجع السابق ص ١٣٥ ، ص ١٣٦ .

(٨٧) ظهرت عدة مؤلفات عربية منذ القرن ١٦ فقد أمر البابا جوليوس الثانى بتأسيس مطبعة عربية نشرت أول كتاب باللغة العربية وهو كتاب صلاة سواعى عام ١٥١٤ م ثم انتقلت الطباعة العربية الى جنوة حيث نشر =

أعوام ١٦٩٨ – ١٧٨٣ ، كما ظهرت بعض الدراسات عن تاريخ العرب نخص منها مانشره الكونت بولينفيل Boulainvilles (٨٨) عام ١٧٣١ م ، كذلك ظهرت عدة كتب ودراسات تناولت حياة الرسول منذ مولده وحتى وفاته (٨٩) .

وجدير بالذكر ان آراء الأوروبيين اختلفت تجاه الدين الاسلامي وشهد القرن الثامن عشر جدالا كبيرا حول هذا الموضوع فعقدوا المقارنات بين الديانتين الاسلامية والمسيحية ، واتسمت معظم الكتابات عن الدين الاسلامي بالتعصب والحقد الشديد خاصة من قبل بعض المفكرين أمثال فولتير الذى نشر كتابا فى عام ١٧٤٢ م باسم
Remarques sur L'essai sur Les Moeurs
شن فيه هجوما عنيفا على الاسلام ، بينما نجد فريقا آخر أعجب بالدين الاسلامى اعجابا شديدا وبتعاليمه السمحة ، ولكن رغم هذا الاعجاب الا انهم لم يعترفوا برسالة محمد عليه الصلاة والسلا وعلى رأس هذا الفريق ديدرو الذى اكتفى بالاشارة بالرسول الكريم (٩٠) . وانعكس الاهتمام بالشرق على الحياة

عام ١٥١٦ م سفر الزابور بأربع لغات ثم انتقلت الى البندقية وطبع القرآن الكريم ١٥٣٠ م وفى عام ١٥٨٤ م طبع فى مطبعة الابناء اليسوعيين فى روما كتاب « البستان فى عجائب الأرض والبلدان » وكتاب مبادىء اللغة العربية وكتاب الأدريسى ١٥٩٢ م « نزهة المشتاق فى ذكر الامصار والآفاق » أما المطبعة الملكية بباريس فطبع بها اول كتاب وهو سنامة النحو لجبرائيل الصهيونى .

(٨٨) L'histoire des Arabes.

(٨٩) Carré, Jean : Voyageurs et écrivains Français en Egypte. Le Caire 1922 + 1 P. 41.

(٩٠) Ibid P. 41.

الأوروبية فى فرنسا فاستوحى الكتاب الفرنسيون الأفكار والقصص منه خاصة ألف ليلة وليلة والتى قام لاكرو بترجمتها (٩١) .

ويمكننا القول ان الشرق بأكمله بديانته وحضارته وآدابه جذب انتباه فرنسا فظهرت العديد من الدراسات عن الامبراطورية العثمانية وكذلك ظهرت دراسات أيضا عن الهند وحصص للامبراطورية الصينية موسوعة ضخمة (٩٢) طبعت فى عام ١٧٧٦ م ، ولاشك ان البعثات التنصيرية لعبت دورا كبيراً فى تعريف القارىء الفرنسى بالشرق خاصة وانها تمتعت بحماية ملوك فرنسا منذ عهد لويس الرابع عشر . وكان هدفها الرئيسى نشر الكاثوليكية فى الشرق (٩٣) .

ويمكننا القول ان الرحالة الفرنسيين فى القرن الثامن عشر قد أفادوا من كتابات من سبقوهم عن مصر واضافوا عليها ، فجاءت كتاباتهم أعمق وأدق ، فقدموا وصفا شاملا للحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى مصر وقد أفاد علماء الحملة الفرنسية من كتابات هؤلاء الرحالة عندما أخرجوا مؤلفهم العظيم « وصف مصر » وقد أوضح فيفيان دنيون المرافق للحملة هذه الحقيقة فذكر انه « لولا كتابات هؤلاء الرحالة لما تمكنا من الكتابة عن مصر ودراستها الدراسة المستفيضة » وعند اطلاعنا على وصف مصر سنجد اشارات الى هؤلاء الرحالة وكتاباتهم بل أن علماء الحملة أشاروا فى كثير من المواضع الى صحة المعلومات التى أوردها رحالة القرن الثامن عشر ويكفينا أن نعرف ان كتابا

---

(٩١) Petits La Croix.

(٩٢) Mémoires concernant L'histoire, Les sciences, Les Arts, Les Moeurs et Les usages des chinois par Les Missionnaires De Pekin.

(٩٣) Carré : Op. Cit. P. 41.

طبع تحت اسم « وصف مصر » قبل مجيء الحملة الفرنسية بأكثر من ستين عاما وكان مؤلفه هو القنصل الفرنسي بينو دي ميليه الذي استفاد من تواجده في مصر فتجول في مدنها واصفا أحوالها السياسية والاقتصادية والاجتماعية وصفا دقيقا (٩٤) .

اذا استعرضنا أسماء الرحالة الفرنسيين الذين زاروا مصر في القرن الثامن عشر سنجد على رأس هؤلاء الطبيب الفرنسي شارل جاك بونسيه Charles Poncet وكان مقيما في القاهرة بالفعل منذ أواخر القرن السابع عشر وقد كلف من قبل القنصل الفرنسي بينو دي ميليه Benoit De Maillet بالسفر الى الحبشة لاقامة علاقات تجارية بين فرنسا والحبشة ، كذلك العمل على نشر المذهب الكاثوليكي وتحقيق آمال ومشروعات اليسوعيين (الجزويت) فيها (٩٥) . وقد سنحت الظروف القنصل الفرنسي لارسال بعثه بونسيه عندما طلب ملك الحبشة من الحاج علي رئيس قافلة تجارة القاهرة ارسال طبيب فرنسي من مصر لمعالجته من الجذام (٩٦) . وفي عام ١٦٩٨ م توجه بونسيه بصحبة احد اليسوعيين ويدعى بريدفان Brédevant الى الحبشة فتوغلا في مدن مصر العليا حيث مكثا فيها ثلاثة أشهر ومنها اتجها الى السودان ثم الحبشة وفي جوندار توفي بريدفان عام ١٦٩٩ م فواصل بونسيه رحلته حيث قابل ملك الحبشة واقنعه بارسال بعثة حبشية الى باريس ، وقد سافرت البعثة بالفعل بصحبة بونسيه الى باريس في عام ١٧٠٣ م ولكن القنصل

---

(٩٤) الهام ذهني : المرجع السابق ص ١٢٨ .

(٩٥) كلف الأب فانزليب بهذه المهمة في القرن السابع عشر ولكنه لم يتمكن من اتمامها

(٩٦) Carré : Op. Cit., P. 42.

(٩٧) Clément : Op. Cit., P. 100.

الفرنسي ميليه أرسل يشكك الملك لويس الرابع عشر في نوايا البعثة ولذلك أمر الملك باعادة البعثة الى القاهرة دون مكافأة بونسيه ودون أن يحقق اية نتائج تذكر وقد أكد هذه الحقيقة القنصل الفرنسي لى مير في عام ١٧٠٧ م عندما ارسل الى وزير البحرية بونشرتران يخبره « الى الرسائل التى وجدت مع بونسيه والموجهة من ملك الحبشة الى الملك لويس الرابع وعشر انما هى رسائل مزيفة » (٩٧) .

ورغم أن بعثة بونسيه كان هدفها الرئيسي الاتصال بملك الحبشة واقامة علاقات تجارية بين البلدين ، الا ان أهميتها ترجع الى انه كان من طلائع الفرنسيين الذين تعمقوا وتوغلوا فى مصر العليا حيث مكث فيها ثلاثة اشهر ووصل الى مناطق فى جنوب مصر لم يصل اليها فرنسي من قبل خاصة وان بونسيه حرص على تسجيل رحلته (٩٨) التى قام بها (٩٩) .

وجدير بالذكر أن بعثة بونسيه الى ملك الحبشة لم تكن الأولى وانما سبقتها بعثة الأب فرزيان Verzean عام ١٦٩٧ م وكان من اليسوعيين ، أراد نشر المذهب الكاثوليكي وقد أوضح هذه الحقيقة فى كتاباته الى غرفة التجارة بمارسيليا حيث ذكر « الملك أمرنى أن أقيم المنشآت فى القاهرة لأسهل الخطط التى يجب تنفيذها فى بلاد بعيدة « الحبشة » من اجل نشر المسيحية » . وقد طلب الوزير الفرنسي بونشرتران من ميليه القنصل الفرنسي فى القاهرة ضرورة كتابة التقارير عن بعثة فريزيان والتى لم يقدر لها النجاح وذلك بسبب مقاومة رجال

---

(٩٨) Relation abrégée des voyages que M. Ch. J. Poncet fit en Ethiopie en 1698 — 1699 — 1700.

(٩٩) Clement : Op. Cit., P. 93.

الدين فى الحبشة للبعثات اليسوعية وتمسكهم الشديد بالمذهب الأرثوزكسى ، أضف الى ذلك مقاومة بعثات الفرنسيسكان للبعثات اليسوعية فى مصر خاصة وأن السلطات المصرية قد سمحت لهم باقامة مستشفى فى أخميم وكانت فى حقيقة الأمر بمثابة محطة للفرنسيسكان الى الحبشة وقد اوضح القنصل الفرنسى فى القاهرة لحكومة بلاده « صعوبة التواجد فى الحبشة ، وارسال بعثات يسوعية فيها » وانه يجب أن يقتصر الاتصال بالحبشة على التجارة فقط وبذلك لم تحقق بعثة فريزيان أية نتائج واضحة (١٠٠) .

٢ — وتبع بعثة بونسيه الى الحبشة بعثة أخرى ثانية قام بها لى نوار لى رول Le Noir Le Roule وكان يعمل نائبا لقنصل الفرنسى فى طرابلس ثم عمل فى دمياط عام ١٧٠١ م ، وقد كلفته الحكومة الفرنسية بالاتصال بالحبشة لاقامة علاقات بين البلدين وفتح أسواق لتصريف المنتجات الفرنسية الصناعية فيها الى جانب نشر المذهب الكاثوليكى كما كلف بجمع المعلومات عن الاستعدادات العسكرية للحبشة (١٠١) . وقد سافر لى نوار قاصدا الحبشة بصحبة الطبيب الفرنسى ليبى Lippi فى عام ١٧٠٤ م واتجها فى قافلة مؤلفة من ستين جملا الى اسيوط ومنها الى الواحات الخارجة ثم الشلال الثانى جنوب وادى حلفا وعبرا النهر الى دنقلة ومنها الى كورتى ومروى وفى عام ١٧٠٥ م وصلت البعثة الى سنار (١٠٢) . حيث تم ابادة جميع افرادها

(١٠٠) Ibid. PP. 93 — 95.

(١٠١) الشاطر بصيلى عبد الجليل : معالم تاريخ سودان وادى النيل من القرن العاشر الى القرن التاسع عشر الميلادى ، القاهرة ١٩٥٥ م ص ٨٥ .

(١٠٢) Carré : Op. Cit., P. 43.

وبتحريض من بعثات الفرنسيسكان التنصيرية العاملة فى الحبشة والتى حرص أفرادها على الدس لدى حكام سنار ضد بعثة لى رول فأشاعوا ان البعثة سوف تعمل على تحويل مجرى نهر النيل الأزرق وسوف تقوم بتحريض النجاشى على احتلال سواكن ومصوع ومن سوء طالع البعثة ان الفيضان فى عام ١٧٠٥ م جاء منخفضا فراجت فكرة تحويل النيل وتم الانتقام من دي رول وبعثته وأخذ القنصل الفرنسي ميليه يتخبط فى اتهاماته لمقتل رجال البعثة فمرة يقول ان النجاشى حرض سلطان سنار ومرة يطلب من عمر باشا سواكن وعزل سلطان سنار (١٠٣).

والواقع ان البعثات التنصيرية الفرنسية خاصة اليسوعية قد واجهت مصاعب عنيفة من اجل نشر مذهبها فى الحبشة وذلك لتمسك الأحباش بمذهبهم الأرثوذكسى كذلك لتواجد البعثات الايطالية خاصة الفرنسيسكان فى الحبشة منذ فترة طويلة فاعتبرونا انفسهم أحق من الفرنسيين فى مجال التنصير لأنهم سبقوهم فى دخول الحبشة والاقامة فيها وقد أوضح لى رول قبل مقتله تلك الحقيقة فكتب الى الوزير بونشرتران يوضح له صعوبة العمل فى الحبشة فكتب « ان مسألة التنصير اليسوعى فى الحبشة أمر شائك مظلم مثل قصر التيه (١٠٤) . وهكذا كان الفرنسيون هم أول من وصل الى هذه المناطق البعيدة حتى اكتشفها البريطانى بروس Bruce ومن بعده فردريك كايو Frederic Caillaud ثم تيبو Thibaut وفاسيير Vassière وأرنوبك Arnaud-bey وسباتيه Sebatier (١٠٥) .

---

(١٠٣) الشاطر بصيلى : المرجع السابق ص ٨٧ ، ٨٨ .

(١٠٤) Clement : Op. Cit., P. 99.

(١٠٥) Carré : Op. Cit., P. 43.

رغم اننا تحدثنا عن بعثتى بونسييه ولى نوار لى دول الا اننا نعتبر ان البداية الحقيقية لتوافد الرحالة الفرنسيين على مصر تبدأ بمجىء بول لوكا وذلك لأن البعثتين السابقتين كانت وجهتها الرئيسية هى الحبشة كما أسلفنا .

٣ ـ تعتبر رحلة بول لوكا Paul Lucas الى مصر من اهم الرحلات التى تمت فى النصف الأول من القرن الثامن عشر ، وقد ولد بول لوكا فى روان عام ١٦٤٤ م ، وشغف بدراسة الآثار ولقب « بأثرى لويس الرابع عشر » وكلفه الوزير بوتشرتران بالسفر الى الشرق « البحث عن النباتات غير الموجودة فى فرنسا ، والبحث عن الأحجار الكريمة » وقام لوكا بعدة رحلات الى الشرق ، ففى عام ١٧٠٠ م زار مصر وسورية وفارس وفى الفترة ما بين عام ١٧٠٤ م وعام ١٧٠٨ م زار اليونان وآسيا الصغرى وافريقيا ثم قام بعدة رحلات الى آسيا والدولة العثمانية وسورية وفلسطين ومصر فى الفترة ما بين ١٧١٤ ـ ١٧١٩ م . وقد سجل لوكا رحلاته ودونها فى مذكرات ثم طبعها فى عام١٧٧٢م باسم Voyage du Sieur Paul Lucas au Levant . استعان بول لوكا بأعضاء اكاديمية المخطوطات وعلماء الآثار (١٠٦) . فى تفسير العديد من المخطوطات والنقوش التى أحضرها معه من مصر (١٠٧) .

سجل لوكا رحلته فى مصر خاصة مدن مصر العليا والتى اتيح له التجول فيها بحرية بفضل المساعدات القيمة التى قدمها له لى مير القنصل الفرنسى فى القاهرة والأموال التى حصل عليها من غرفة مارسيليا ، وخطابات التوصية التى أمده بها

---

(١٠٦) من أشهر هؤلاء العلماء فى تلك الفترة
Fourmont-Bandelot — Banier

(١٠٧) Clement : Op. Cit., P. 108.

ابراهيم بك من كبار ضباط الأوجاق فى القاهرة الى زعماء القبائل للسماح له بحرية التجول فى صعيد مصر وقد ادعى لوكا انه يعمل طبيبا وانه يبحث عن الأعشاب الطبية وعلل ذلك فى كتابه « لأن الأهالى يعتقدون ان الفرنسيين يفدون على بلادهم لانتزاع ثرواتهم وهم يدركون ان بلادهم مليئة بالكنوز وان ملوك مصر القديمة اخفوا ثرواتهم وان الأجانب يستخدمون السحر لاستخلاص هذه الكنوز » (١٠٨) .

اعتمد بول لوكا عند وصفه مصر على كتابات وملاحظات هيرودوت واسترابون كذلك على ما دونه الرحالة الفرنسيون فى القرنين السادس عشر والسابع عشر فاقتبس نفس ملاحظاتهم خاصة ملاحظات تيفنو فيما يتعلق بوصفه لآثار كليوباترة والحجر الذى يعتقد ان رأس سانت كاترين قطعت عليه فى الاسكندرية ، كذلك استعار ملاحظات من سبقوه عند وصف الأهرام فى الجيزة . ولجأ بول لوكا الى المبالغة فى كثير من ملاحظاته التى سجلها مثل تأكيداته بوجود « فتيات هوى » فى طهطا وهو أمر يتنافى مع تقاليد وعادات المجتمع المصرى فى ذلك الوقت (١٠٩) . أضف الى ذلك ملاحظات خيالية تعمد كتابتها وتأكيدها ربما بدافع اثارة انتباه القارىء الفرنسى وتشويقه مثل « وجود ثعبان مسحور فى اخميم يتم سلخ جلده فينمو فى الحال » كذلك وجود اسماك فى نيل مصر « متعطشة دائما للحم البشرى » « تهاجم المستحمين » كما يلاحظ فى كتابات لوكا عدة اخطاء فى تحديد مواقع المدن مثل مدينة الأقصر (١١٠) .

---

(١٠٨) Lucas, P : Voyage du Sieur Lucas au Levant Rouen 1772 + 1 P. 20.

(١٠٩) Carré : Op. Cit., PP. 44 — 45.

(١١٠) Ibid. P. 46.

ويمكننا القول اننا لا نستطيع أن نعتمد على كتابات بول لوكا كمرشد صادق أمين ولكن لابد من قراءة ما سجله لأنه أول من شاهد آثار مصر العليا وأول من رسمها وهو من الرواد الذين توغلوا فى صعيد مصر والذلك حققت كتاباته رغم ما فيها من مبالغات نجاحا كبيرا (١١١) . أضف الي ذلك الآثار الهامة (١١٢) . التى أحضرها معه الي فرنسا (١١٣) .

٤ ــ الأب كلود سيكار Claude Sicard (١٦٧٧ ــ ١٧٢٦) عمل أستاذا للدراسات الانسانية فى ليون ثم جاء الى الشرق على رأس بعثة دينية وفى سورية تعلم عدة لغات منها العربية واليونانية والسريانية والعبرية ثم جاء الى القاهرة فى عام ١٧٠٧ م ومكث فى مصر عشرين عاما حيث توفى عام ١٧١٦ م من جراء الطاعون (١١٤) .

كان الغرض الأساسى لبعثة سيكار هو تحويل « الأقباط الجهلة الي المذهب اليسوعى بدلا من المذهب الأوثوذكسى » على حد قوله والتعرف على العادات والتقاليد فى البلاد والاتصال بالكنيسة القبطية أى أن بعثة سيكار كانت بعثة دينية هدفها نشر

---

(١١١) Ibid. P. 46.

(١١٢) أحضر بول لوكا الي الاكاديمية الفرنسية العديد من الميدليات منها ٨ ميدليات ذهبية خاصة بملوك الاغريق و ١٥ ميدالية فضية خاصة بفليب المقدونى و ١٥ ميدالية فضية خاصة بالاسكندر و ١٨ ميدالية فضية لعصر فيليب واعداد كبيرة من الميداليات البرونزية واحجار مختلفة النقوش و ٢٥ مخطوطا باللغة العربية واليونانية والتركية .

(١١٣) Lucas : Op. Cit., P. 20.

(١١٤) Carré : Op. Cit., P. 48.

المذهب اليسوعي ولكنها لم تكن لها صفة رسمية أى انه لم يكن مكلفا من قبل ملك فرنسا رسميا (١١٥) .

والواقع ان ما دونه سيكار عن مصر ظل مخطوطا لم يطبع ولكننا استطعنا التعرف على أعمال ضمن رسائله الى جمعية اليسوعيين والتى تحدث فيها عن مصر ، فكانت هذه الرسائل هى المصدر الرئيسى لرحلات سيكار وقد وجه مجموعة رسائله الى الكونت تولوز Comte de Toulouse م ١٧١٦ م شرح فيها الرحلات التى قام بها خلال عامى ١٧١٢ - ١٧١٤ م أما رحلته الى الدلتا والشلالات فخصص لها رسالة منفرده كذلك وجه اهداء رحلته الى سيناء الى الأب فلريو Fleuriau أحد رجال الدين ، وحرص سيكار على تزويد رسائله بالخرائط عن مصر وآثارها وعززها بخريطة للآثار المصرية ما زالت فى المكتبة الوطنية بباريس (١١٦) .

كان من الطبيعى أن يبدأ الأب سيكار بزيارة المزارات المسيحية فى مصر ولذلك ركز رحلاته على الكهوف والأديرة القبطية فزار دير وادى النطرون ومكث مع الرهبان حوالى خمسين يوما قرأ خلالها مؤلفاتهم التى أطلق عليها « اساطير القديسين الأقباط » وتعمد فى كتاباته السخرية من الكنيسة القبطية فالمذهب الأرثوذوكسى على حد قوله « يحوى الكثير من الخرافات » والأقباط فى نظره « جهلة » ويمكن تعليل ذلك ان سيكار كان مكلفا بمهمة محددة الا وهى نشر المذهب اليسوعى

---

(١١٥) Sicard, Claude : Nouveaux Mémoires des missions de La Compagnie de Jésus dans Le Levant. Paris 1723 + 1 P. 6.

(١١٦) Carré : Op. Cit., P. 49.

وقد فشل كفيره فى هذه المهمة نظرا لتمسك اقباط مصر بمذهبهم، ولذلك نجد أن الأوصاف التى اطلقت على الأقباط والرهبان من قبل رحالة القرن الثامن عشر كانت كلها متشابهة تدور حول الجهل والخرافة حتى علماء الحملة الفرنسية اقتبسوا واستعاروا كثيرا من مصطلحات هؤلاء الرحالة عند حديثهم عن الأقباط .

اهتم الأب سيكار بزيارة دير سانت بول القريب من البحر الأحمر ووصف رهبانه « ان عقولهم فارغة » ولكنه أبدى اعجابه بما وجده فى الدير « من مخطوطات جميلة وكتب قيمة » كذلك وصف مكتبة دير سانت كاترين « بأنها عامرة بالكتب القيمة والمخطوطات السريانية واليونانية والروسية والعربية ولكن يلزمها التنسيق فهى مهملة والفوضى تدب فى كل مكان » (١١٧) .

اهتم الأب سيكار بزيارة الكهوف القبطية خاصة كهوف مصر الوسطى والعليا حتى وصل الأشمونيين فكان أول فرنسي يصل الى هذه المنطقة وسرعان ما جذبت الحضارة المصرية القديمة انتباه سيكار فبدأ فى البحث عن الموميات وزيارة الآثار القديمة فوصل فى تجواله الى مناطق لم يصل اليها أوروبى من قبل وهى مناطق وصل اليها فيما بعد علماء الحملة الفرنسية خاصة فيفان دينون Vivant Denon فقد نجح سيكار فى التوغل فى مصر العليا . وكتب عن آثارها خاصة معبد آمون ، الكرنك ، تمثال ممنون وكان أول أوروبى يصل الى الأقصر قبل غيره من الرحالة حتى قبل وصول الرحالة البريطانى الشهير بوكوك Pococke وقد نجح سيكار فى الوصول الى النوبة ويبدو أن الأهالى لم يحسنوا استقباله « وهددوه برماحهم » على حد

---

(١١٧) Clement : Op. Cit., PP. 115 — 116.

تعبيره » فعرض عليهم الهدايا من الطباق فسمحوا له بالتجول فى منطقة الشلالات فوصل جزيرة فيلة (١١٨) .

ويمكن القول ان سيكار بدأ رحلته من أجل هدف تنصيرى لتحويل الأقباط الأرثوذكس الى الكاثوليكية ولكنه سرعان ما جذبته الحضارة المصرية القديمة فغاص فى جنوب مصر مشاهدا متأملا حتى بلغ حصيلة ما زاره ٢٥ معبدا و ٥٠ كهفا ووصف ١٨ مسلة و ٢٠ هرما كبيرا و ٨٠ ديرا فكان أول فرنسى يكتشف آثار مصر العليا قبل وصول الحملة الفرنسية وهو أول من أعطى وصفا علميا دقيقا لما شاهده (١١٩) .

٥ ـ الطبيب جرانجيه Granger : ولد فى ديجون ودرس الجراحة وذاعت شهرته فى مارسيليا وطولون ، فى عام ١٧٢١ م سافر الى تونس حيث عمل جراحا فى مستشفى رجال الدين الأسبان والتقى بعد عودته الى باريس بالقنصل الفرنسى بينون Pignon الذى عرض عليه السفر الى القاهرة . وزار مصر عام ١٧٣٠ م ثم عاد الى فرنسا ومنها سافر الى اليونان وفى عام ١٧٣٤ م عاد الى مصر مرة ثانية ولكن فى هذه المرة كان مكلفا بمهمة رسمية من قبل ملك فرنسا الا وهى « البحث عما يخدم التاريخ الطبيعى » وبعد زيارته لمصر واصل رحلاته الى فلسطين وفارس والبصرة حيث توفى فيها عام ١٧٣٨ م (١٢٠) .

نشرت رحلات جرانجيه عام ١٧٤٥ م ولكنها كتبت بأسلوب

---

(١١٨) Carré : Op. Cit., P. 48.

(١١٩) Ibid. P. 49.

(١٢٠) Clement : Op. Cit., P. 185.

غير أدبى ، زار جرانجيه فى رحلته الأولى الى مصر الأديرة القبطية وتوغل فى مدن مصر العليا فوصل الى اخميم ثم أكمل رحلته الى العرابة المدفونة فى ابيدوس وكتب عن الكرنك فوصفها « انها أجمل معابد العالم » كذلك زار أديرة البحر الأحمر ودير سانت انطوان وسانت بول كما زار الكهوف القبطية وأديرة الكابوسين .

لم تقتصر جولات جرانجيه على مدن مصر العليا فحسب وانما زار مدن مصر السفلى ولذلك فهو يعتبر من الرحالة الذين جابوا مدن مصر كلها وحرص على تقديم وصف لها وان كان هذا الوصف يتسم بالسرعة . وترجع أهمية مؤلفه (١٢١) . انه خصص الفصول الأخيرة لتقديم دراسة عامة عن مصر وعن السلطات الحاكمة (١٢٢) .

٦ ــ الأب دورفال D'Orvalle زار مصر فى عام ١٧٤٧ م وكان الغرض الرئيسى من رحلته هو الحصول على المخطوطات العربية ، ولقى التشجيع والمساعدة من الكاردينال روشفوكول Rouchefoucauld المشرف على الفاتيكان ، وكذلك مد له القنصل الفرنسى فى القاهرة يد المساعدة بحكم اتصالاته ونفوذه وسهل له مقابلة كبار علماء الأزهر والتعرف بهم . وقد نجح الأب دورفال بالفعل فى الحصول على عدة مخطوطات من الأزهر الشريف ونجح فى عقد الصداقات مع شيوخ الأزهر فأشاد بهم وبأخلاقهم الكريمة وكتب عنهم « هؤلاء الرجال مسلمون بالفطرة ولديهم أعظم الأبناء (يقصد التلاميذ) فى العالم ولا أدرى اذا كانت

---

(١٢١) Granger, Le Sieur : Relation du Voyage fait en Egypte par Le Sieur Granger de L'année 1730. Paris 1765.

(١٢٢) Carré : Op. Cit., P. 55.

هذه الخصـــال بسبب غزارة علمهم ومعـــارفهم ، وهم يمتـــازون بالجد والاستقامة » « ومكتبة الأزهر معروفة لدى كل علمـــاء المسلمين يدرسون فيها ، وهى تحوى العديد من الكتب الثمينة فى الشرق وفى آســيا » وذكر دورفال انه علم بوجود قائمـــة بهـــا اسماء مائة من علماء الأزهر فطلب الاذن والسماح له بطبعها (١٢٣) .

ويعتبر الأب دورفال من القـــلائل الذين اثنوا على علمـــاء الأزهر فأوفاهم حقهم من التكريم والتبجيل لأن كتابات غيره من الرحالة اتسمت بالتعصب الى حد كبير ويمكننا القول أن الغرض الرئيسى من رحلة دورفال كان الحصـــول على المخطوطات العربية ولذلك ركز اهتمامه فيما حضر من أجله .

٧ ـ الراهب كلود لويس فورمون Claude Louis Fourmont

انتمى هـــذا الراهب لأسرة اهتمت بالآثار الشرقيـــة اهتماما كبيرا فنجد ان عمه ايتيان فورمون (١٦٨٣ ـ ١٧٤٥ م) كان مستشرقا وعمل أستاذا للغة العربية فى كلية فرنسا والف كتابا عن الشعوب القديمـــة نشر عـــام ١٧٣٥ م (١٢٤) . أما شقيقه وهو ميشـــيل فورمون (١٦٩٠ ـ ١٧٤٦) فقد كانت له اهتماماته بالآثار القديمة خاصة الآثار الاغريقيـــة القديمـــة قام بعدة رحـــلات الى اليونان والدولة العثمانية . اما رحالتنا الراهب كلود فورمون فقد زار مصر فى عـــام ١٧٤٧ م حيث مكث فى القـــاهرة لمدة أربعـــة أعوام ثم عـــاد الى مصر فى عام ١٧٥٤ م فزار مدن مصر العليـــا وقد قدم فورمون فى كتابه (١٢٥) . وصفا للقاهرة تعدادها ، آثارها ،

---

(١٢٣) Clement : Op. Cit., P. 189.

(١٢٤) Reflextions Critiques sur Les histoires des Anciens peuples jusqu'au temps de Crecs.

(١٢٥) Fourmont, claude : Descriptions Historique et Géographique des plaines D'Héliopjolis et de Memphis. Paris 1755.

المارستان المخصص للمجانين ، الوكالات ، الحمامات العامة كذلك قدم وصفا للاضطرابات السياسية التى عانت منها مصر خلال تلك الفترة ، وقدم وصفا عن تجارة مصر واقترح حفر قناة تمتد من السويس حتى البحر المتوسط وقد أفاد فورمون من اجادته للغة العربية واطلاعه على كتب المقريزى وابن دقماق فنقل عنهم الكثير من المعلومات . كذلك أشاد فورمون بمكتبة الأزهر وركز جهوده خلال فترة تواجده فى مصر على شراء المخطوطات لتزويد المكتبة الملكية فى باريس وحرص فورمون عند تأليف كتابه على تزويده بخريطة عن سهول منطقة منف وعين شمس وهى خريطة طبوغرافية وفيها شرح جغرافى للأماكن القديمة وقد أعجب فورمون بحضارة مصر اعجابا كبيرا نستدل على ذلك مما كتبه « ان مصر قد ملأت العالم فخرا ومجدا بحضاراتها وآثارها » (١٢٦) .

تميز النصف الثانى من القرن الثامن عشر وحتى مجىء الحملة الفرنسية بظهور كتابات علمية دقيقة عن مصر أطلق عليها كاريه Carré « التحقيقات العلمية عن مصر » وكانت هذه الكتابات هى نواة « المعهد العلمى المصرى » فى عهد الحملة الفرنسية ، ففى النصف الثانى من القرن الثامن عشر لم تعد مصر مجهولة أو غامضة أو مأهولة بالمتوحشين والأفاعى السحرية والحيوانات المتوحشة كما كان يحلو لبعض الرحالة السابقين وصفها مثل بول لوكا وانما ازدادت المعرفة عنها ولذلك اتسمت كتابات الرحالة فى هذه الفترة بالدقة (١٢٧) .

٨ ــ كلود ايتيان سافارى Claude Etienne Savary

---

(١٢٦) Ibid, PP. 23 — 54.

(١٢٧) Carré : Op. Cit., P. 79.

ويعتبر سافارى (١٧٥٠ ـ ١٧٨٥ م) من أهم الرحالة الذين زاروا مصر فى تلك الفترة وقد درس سافارى فى كلية الراين وسافر الى مصر عام ١٧٧٧ م حيث مكث فيها ثلاث سنوات و قد مد له لى مونييه Le Monnier عضو الأكاديمية العلمية فى باريس يد المساعدة فى كتابة رحلاته التى طبعت بتوصية من شقيق الملك لويس الخامس فى عام ١٧٨٦ م (١٢٨) . وقد ساعد سافارى دراسته اللغة العربية والقرآن وقام فى عام ١٧٨٤ م بطبع كتاب عن شمائل محمد ١٧٨٤ م وله مؤلفات عن النحو العربى وقد طبع بعد وفاته فى عام ١٨١٣ م ويمكننا القول ان سافارى أعجب بالحضارة الاسلامية اعجابا كبيرا (١٢٩) .

ذكر سافارى انه قام برحلته عام ١٧٧٧ م وان الغرض منها كان تدوين ملاحظاته عن الامبراطوريات والديانات وبطولات الشعوب والاتصال بالأتراك والعرب واليونانين وقد اتسمت كتاباته بالرومانسية الشديدة فله روح شاعر وهو يعتبر نموذجا للشباب الفرنسى المثقف وساعدته نشأته على صبغ كتاباته بالصبغة الرومانسية لأنه نشأ فى مقاطعة بريتانى حيث يقطن النبلاء والاقطاعيون الذين يهتمون بتثقيف أولادهم وكانت المنطقة قديما مقرا للقبائل الكلتية الوثنية فشاعت فيها قصص الأساطير والسحرة (١٣٠) .

وترجع اهمية كتابات سافارى انه جاء الى مصر فى الوقت الذى استشرت فيها الفوضى وقبض المماليك على زمام الحكم

---

(١٢٨) Savary, Claude : Lettres sur L'Egypte. Paris 1786

(١٢٩) Carré : Op. Cit., P. 79.

(١٣٠) ثروت عكاشة : مصر فى عيون الغرباء الرحالة والفنانين والادباء القرن التاسع عشر ، القاهرة ١٩٨١ م جـ ١ ص ٨٧ .

وانتشرت المكائد والدسائس فيما بينهم واشتعلت الحروب الأهلية مما مهد فيما بعد للحملة الفرنسية فى نهاية القرن . وقد اهتم سافارى بمناقشة الأوضاع السياسية فى مصر كما اهتم بتقديم وصف للمدن المصرية وقد امتاز وصفه بالرقة وكأنه فنان يرسم بريشته المناظر الجميلة التى شاهدها خاصة فى مصر السفلى « أن الدلتا حديقة كبيرة أرضها لا تكل عن العطاء » « أن انتاج الدلتا يسر القلب والعين » « أن جمال الطبيعة فى مصر تسر الناظر اليها فلابد للمريض أن يشفى عندما ينعم بأشعة الشمس » كذلك عند وصفه لليالى الصيف المقمرة يقترب فى وصفه من الأديب شاتو بريان « اسدل الليل ظلاله على الأرض ولكن الظل لايخترق الأرض وانما هو حجاب شفاف أن الليل فى مصر له الف سحر قلما نجده فى أوروبا » (١٢١) .

وضع سافارى مؤلفه فى ثلاثة أجزاء خصص الأول عن مصر السفلى وفيه ملاحظات عن قدامى الرحالة والمحدثين وخصص الجزء الثانى عن مصر العليا ، أما الجزءالثالث فهو دراسة للمناخ والتجارة المصرية الحديثة والحروب الأهلية وقد ركز سافارى على الأحداث التى شاهدها فىمصر بالفعل واصفا أحوالها السياسية والاقتصادية ولم يهتم بوصف مصر الفرعونية . وقد ترجم كتاب سافارى الى الألمانية ثم الانجليزية وحقق نجاحا كبيرا (١٣٢) .

وجهت الانتقادات لسافارى من الرحالة الفرنسيين خاصة فولنى الذى عاب عليه شاعريته وأسلوبه الرقيق فى الكتابة ، كذلك وجه اليه النقد لأنه ركز كتابته على مصر السفلى وهناك راى

---

(١٣١) المرجع السابق : ص ٦٨ .

(١٣٢) Clement : Op. Cit., PP. 242 — 243.

أن « سافارى لم يطأ بقدمه مصر العليا » وصاحب هذا الرأى هو الرحالة سونينى دى مانكور الذى أكد أن سافارى لم يزر مدن مصر العليا وانه اعتمد على كتابات القدماء ونقل عن هيرودوت وسترابون ثم جرانجيه وأكد سونينى ان ضابطا فرنسيا زار مصر قادما من السنغال تجول فى مدن مصر العليا والتقى بسافارى وقص عليه ما شاهده فيها فنقل سافارى عنه ما سمعه ونسبه الى نفسه (١٣٣) .

ورغم الانتقادات التى وجهت الى سافارى خاصة من قبل فولنى والمعروف بتعصبه ضد مصر يمكننا القول انه يكفى للدلالة على أهمية رحلة سافارى أن ضباط الحملة الفرنسية قد اصطحبوا معهم مؤلف سافارى عن مصر بينما كانت السفن الفرنسية تمخر عباب البحر الى الاسكندرية حتى أن نابليون لم ينس أن يحمل هذا المؤلف بين متاعه (١٣٤) .

ولكن على الرغم من أهمية مؤلف سافارى واعادة طبعه عدة مرات الا أن رحلة فولنى طغت على شهرة مؤلف سافارى فيرى كاريه « أنها انست الفرنسيين كتابات سافارى وان الأخير ظلم وان رحلته كانت جديرة بأن تحتفظ بشهرتها » (١٣٥) .

٩ ــ البارون دى توت De Tott : وهو نبيل من المجر عمل فى خدمة فرنسا حين مفتشا لاسكالة الشرق وبعد عودته الى أوروبا نشر مذكراته منها سبعون صفحة خاصة بمصر وصف فيها الاضطرابات التى شاهدها أثناء تفقده للمدن المصرية

---

(١٣٣) Carré : Op. Cit., PP. 88 — 89.

(١٣٤) ثروت عكاشة : المرجع السابق ص ٦٩ .

(١٣٥) Carré : Op. Cit., P. 79.

عام ١٧٧٧ م (١٣٦) . ولكنـــه لم يتمكن من زيارة جميع المدن بسبب هذه الاضطرابات ولذلك فان مذكراته عن مصر مأخوذة من كتابات الرحالة السابقين (١٣٧) .

١٠ ـ الأب لاشانيوان دى بينو Chanoine De Binos

زار مصر عــام ١٧٧٧ م وكان يعمل فى كاتدرائيـــة بيرنيه وضـــع مؤلفا (١٣٨) . عن مصر نشر عــام ١٧٨٧ م نشرته شقيقـــة الملك اليزابيث دى فرانس ولكن كتابـــه موجز اعترف هو نفســـه فى مقدمته بأن معرفته محدودة عن مصر وموجزة لأنه لم يمكث فيها سوى شهر ونصف ولم يتخط الدلتا وانمـا اكتفى بزيـارة الإسكندرية ، رشيد ، القاهرة ، دمياط ولكن أهمية كتابه أنه عاصر وشـــاهد الاضطرابات السياسيـة فى القاهرة بين المماليك وتحدث عن الفوضى السائدة فى البلاد حتى أن التجـار الفرنسيين اضطروا لاغلاق الخان المخصص لهم فى القاهرة (١٣٩) .

١١ ـ العـــالم الطبيعـى ســـونينى دى مانـــكور Sonnini De Manoncours (١٧٥١ ـ ١٨١٢) ولـد سونينى فى اللورين عمل محاميا ومهندسا بحريا زار أمريكا خلال (١٧٧٢ ـ ١٧٧٥ م) وافريقيـا الغربيـــة ، اهتم بالتاريخ الطبيعى والطبى سافر الى مصر خلال (١٧٧٧ ـ ١٧٨٠ م) ذكر فى كتابه « بسافرنا الى مصر بتكليف من الكونت بوفون للقيام بعدة أبحاث

---

(١٣٦) De tott : Mémoires Du Baron De tott sur Les turcs et Les tartares. Paris 1875 + 2.

(١٣٧) Clement : Op. Cit., PP. 239 — 240.

(١٣٨) Voyage par L'italie en Egypte, au mont Liban et en Palestine ou terre Sainte.

(١٣٩) Carré : Op. Cit., P. 106.

لتقديمها الى الوزير برتان » اذن كانت رحلته الى مصر رسمية ولذلك ساعدته غرفة تجارة مارسيليا بالأموال وقد زار مصر وقت زيارة البارون دي توت لها ونشر كتابه (١٤٠) . من ثلاثة أجزاء مصحوبا بالرسومات عن مصر وآثارها وثرواتها الزراعية ولكن رغم أهمية كتاب سونيني الا انه فقد أهميته بعد نشر وصف مصر (١٤١) .

ويعتبر مؤلف سونيني من أهم المؤلفات التى كان لها تأثيرها بعد كتاب سافارى وفولني وعمله يعتبر مكملا لعمل سافارى وفولني وباعتباره طبيبا كانت ملاحظاته أعمق من سافارى وفولني فيما يتعلق بالحياة الطبيعية والامراض ولكن كان من الطبيعى أيضا أن تجيء كتاباته عن الآثار سريعة وقد التقى سافارى بمراد بك وزاره فى معسكره وأشاد بفخامة المعسكر وحاول مراد بك اقناعه بالعمل فى خدمته كطبيب ومهندس ولكنه رفض ذلك (١٤٢) .

١٢ ــ الكونت دانتريج : هو ابن شقيق سان بريه السفير الفرنسي فى استانبول سافر الى مصر بصحبة المترجم الفرنسى ادنسون ومؤلفه عن مصر ما زال مخطوطا فى مكتبة ديجون : كتب رحلاته على شكل رسائل ويقال ان السبب فى ارساله الى مصر انه أحب احدى الأميرات فى بيرا (١٤٣) . فابعده عمه سان بريه من الاستانة وأرسله الى مصر فوصلها عام ١٧٧٩ م ومعه توصيه من أحد ضباط الأستانة ومنها الى باريس وكتب

---

(١٤٠) Sonnini, C. : Voyage eu Egypte. Paris 1793.

(١٤١) Clement : Op. Cit., PP. 244 — 245.

(١٤٢) Carré : Op. Cit., P. 115.

(١٤٣) تدعى : الكسندرين جيكا . Alexandrine Ghika

رسائله الى السيدة التى أحبها ذكر فيها انطباعاته عن مصر ولكنه لم ينشرها وانما نشر أوريان ما يخص مصر من هـذه الرسائل والتي ترجع اهميتها انها القت الضـوء على احوال مصر السياسية فى أواخر القرن الثامن عشر ويمكن القول ان رسـائله عن مصر كتبت باختصار شديد خاصة فيما يتعلق بالآثار والأديرة القبطية . فكتاباته عنها مختصرة الى حد كبير (١٤٤) .

١٣ ــ فولنى : ولد فى عام ١٧٥٧ م فى مدينة صغيرة فى مين بفرنسا ، عمل محاميا وأعجب بالمفكر الفرنسى فولتير ، فأخذ منه المقطع الأول من اسمه والمقطع الأخير من اسم المقاطعة التى ولد فيها وهى فيرنى ليصبح اسمه فولنى . وقد اتقن اللغـات القديمة وعكف على دراسة التاريخ والطب وذكر فى كتاباته أنه ورث مالا من والدته فتملكتـه الحـيرة فى استعماله واقترح عليـه البعض الاستمتاع به وانفاقه بينما اقترح عليـه البعض الآخر استغلاله والاستفادة من ريعه ولكن فولنى فضـل على حد قوله « ارضـاء نزعتى الثقافية وقد سمعت أن السفر من انجح الوسـائل لتجميل العقل وتهذيبه » (١٤٥) . وفكر فولنى فى السفر الى أمريكا الناشئة ولكنل فضـل السفر الى سورية ومصر ولكن فولنى على حد قول سانت بريف أحب مصر قليلا واحب سـورية كثيرا حتى ان عمله تجاه مصر اتسم بالتعصب وقد مكث فولنى فى سورية ثمانيـة اشهر أمضاها لدى الدروز فى دير عربى حيث تعلم العربيـة ثم جاء الى مصر فوصـل القاهرة ١٧٨٢ م حيث قـام بزيارة مدن

---

(١٤٤) Aurlant : Un Français d'Autre fois en Egypte. Paris. 1935. P. 277.

(١٤٥) فولنى : ثلاثة أعوام فى مصر وبر الشام ، القاهرة ١٩٤٩ جـ ١ ، نقلها الى العربية ادوارد البستاني ص ٧ .

الوجه البحرى فقط ولم يزر مدن الوجه القبلى ولكن ترجع أهمية رحلاته انه قدم مشاهداته عن مصر بطريقة مركزة .

ينقسم كتاب فولنى الى قسمين الأول تعريف بطبيعة مصر ، النيل ، الدلتا ، الهواء ، الطقس والقسم الثانى يتناول فيه الوضع السياسى والحكومة الفعلية للمماليك والنشاط التجارى وترجع أهمية كتاباته الى أنها ليست عن مصر الفرعونية أو القبطية وانما هى تتناول أحوال مصر العثمانية فى أواخر القرن الثامن عشر ولذلك فقد أهتم علماء الحملة الفرنسية بملاحظاته ولم يهملوها خاصة ما ذكره عن ربط السويس بالبحر المتوسط ، كذلك وصفه الاستحكامات العسكرية فى الاسكندرية ومصر وايضاحه مدى التدهور السياسى والعسكرى والاجتماعى لمصر حتى انه كتب « لا يمكن انقاذ مصر الا بتدخل أجنبى ويمكن أن تكون فرنسا هذا البلد » (١٤٦) .

ولكن فولنى كان شديد القسوة على مصر كرهها حتى عند وصفه للمماليك فاستعرض العسكرية المملوكية الماجنة ملمحا الى العادة المخزية المأثورة عند اليونانيين والتتار على أنها أولى الدروس التى يتلقاها فرسان المماليك على أيدى مدرب السلاح ومعظم كتابات فولنى عن مصر خالية من أى أطراء (١٤٧) .

ولكن رغم تعصب فولنى الا انه قدم ملاحظات قيمة فلم يكن يسرد مشاهدات فحسب وانما كان موسوعى النظرة قدم سجلا شاملا من خلال منهج علمى دقيق التبويب ومنهجه أقرب الى منهج كتاب القرن الثامن عشر الكلاسيكيين منه الى منهج

---

(١٤٦) Carré : Op. Cit., PP. 97 — 101.

(١٤٧) ثروت عكاشة : المرجع السابق ص ٧٢ ، ص ٧٣ .

الرحالة السابقين مباشرة فلم يجنح الى الخيال وهو يقدم صورة مصر الى قراء أوروبا رغم أنه كان يدرك أهميـة الخيال وجاذبيته للقارىء وذلك لأنه كان يؤمن ان فن الرحـلات ينتمى الى علم التاريخ لا الى الفن القصصى وذكر انه « لم يصـور البلدان بأجمل مما رآهـا كمـا لم يصـف النـاس بأفضـل ولا بأسـوء مما شاهدهم » (١٤٨) .

وعند مقارنة سافارى وفولنى نجد أن الأول أحب مصر بينما فولنى ورغم منهجه العلمي الا انه تغلبت عليه روح الكراهية لمصر بل انه وجه النقد الى سافارى لأن كتاباته غلبت عليها الشاعريه والحب لمصر واكد ان سافارى لم يزر مصر العليا « فهو لم يتخط الجيزة » (١٤٩) ، كذلك انتقد فولنى الرحالة الذين أشـادوا بمصر ووصفوها بأنها من أجمل مناطق العالم فرد قائلا « أفهم أن تكون مصر من أجمل مناطق العالم فى عين المصرى لأنه لم يعرف غيرها » وكتب أيضـا معربا عن دهشته لأن الأوروبيين رأوا مصر جميلة فهى فى نظره « ليست سـوى أرض مسطحة واشـجار نخيل تقوم على مسافة هزيلة وأكواخ من الطين لا ترى فى مصر شيءمن السحر ولا الغنى » (١٥٠) .

نشر فولنى كتابه عام ١٧٩٢ م فحقق نجاحا كبيرا وقـد زوده بالخرائط عن سورية ومصر والدلتا وسيناء (١٥١) . وبعد ظهور كتابه عينته حكومة الادارة أسـتاذا للتاريخ الطبيعي بمعهد المعلمين العالى وقد تأثر نابليون بمؤلف فولنى عن مصر وما أن استقر رأى نابليون على غزو مصر حتى عرض على فولنى اصطحابه

---

(١٤٨) المرجع السابق : ص ٧٣ .

(١٤٩) Carré : Op. Cit., P. 98.

(١٥٠) فولنى : المرجع السابق ص ١٦٧ .

(١٥١) Carré : Op. Cit. P. 101.

ولكنه اعتذر (١٥٢) . وفى حين كان صغار ضباط الحملة الفرنسية على مصر يأنسون بقراءة سافارى كان كتاب فولنى هو الأثير لدى قادة الجيش والعلماء اذ كان لهم دليلا ممتاز موجزا نفيسا فيه الجغرافية الاقتصادية والسياسية ويمكننا أن نقول أن فولنى كان جاسوسا بلغة العصر الحديث وكتابه مدعم بالحجج والبراهين بعيد عن أى زخرفة جامد صريح (١٥٣) . ويتضح ذلك لنا مما كتبه عن مصر « ان الرحالة يميلون الى المبالغة فى الوصف والتصوير وتغلب عليهم الحماسة وعلل ذلك ان ابتعاد الرحالة عن مصر يجعلهم ينسون انهم وقت اقامتهم فيها كانوا يتمنون الرحيل عنها » (١٥٤) .

واخيرا أن كلا من سافارى وفولنى اسهما بكتابيهما فى جعل حضارة مصر يتسابق اليها الرحالة والمفكرون والأدباء والفنانون والرأى العام الفرنسى أصبح شغوفا بالتعرف عليها ولذلك أيد الجميع حملة بونابرت على مصر تلك الحملة التى صورت فى فرنسا وكان الغرض الرئيسى منها هو اكتشاف الحضارة التى طالما قرأ عنها الفرنسيون وأعجبوا بها من خلال كتابات الرحالة (١٥٥) .

١٤ـ وأخيرا أوليفيه : كان عضوا فى الجمعية الجغرافية فى السين وطبيبا زار مصر واستانبول وفارس بتكليف من حكومة الادارة عام ١٧٩٦ م ويعتبر كتابه (١٥٦) سجلا لأوضاع الفوضى

---

(١٥٢) ثروت عكاشة : المرجع السابق ص ٧٤ .

(١٥٣) المرجع السابق : ص ٧٤ .

(١٥٤) فولنى : المرجع السابق ص ١٧٠ .

(١٥٥) ثروت عكاشة : المرجع السابق ص ٧٤ .

(١٥٦) Olivier : G. : Voges dans l'empire ottoman L'Egypte et La Perse fait par ordre du gouvernement de La République +- 3,

السياسية فى مصر قبيل الحملة الفرنسية مباشرة خاصة النزاع بين مراد بك وابراهيم بك ولاشك ان كتابه مهد لمجيء الحملة الفرنسية على مصر فقد أوضح فيه مدى سهولة الاستيلاء على الاستحكامات والقلاع والحصون العسكرية « لأن مصر بلا دفاع » فمصر هى الفوضى والجهل والفقر والطغيان » ولم يهتم أوليفيه بتسجيل الأوضاع السياسية فحسب وانما قدم وصفا للحياة الطبيعية فى مصر فوصف مناخ مصر وثرواتها الزراعية والحيوانية وسخر أوليفيه مثل زميله فولنى من وصف سافارى لمصر فكتب « ان منظر الحدائق المزروعة بالنخيل والبرتقال لم يشعل لهيب خيالى » (١٥٧) .

تحدثنا عن الرحالة الفرنسيين الذين وفدوا على مصر منذ بداية القرن الثامن عشر وحتى مجيء الحملة الفرنسية عام ١٧٩٨ م باعتبار ان حملة نابليون مثلت مرحلة جديدة فى تاريخ مصر اذ جاءت بحشد من العلماء انكبوا على دراسة مصر . ولكننى رايت وأنا بصدد الحديث عن الرحالة ضرورة الاشارة الى فنان له صفة الرحالة صاحب الحملة الفرنسية وكلف من قبل نابليون بالتجول فى مدن مصر لوصفها ورسم آثارها العظيمة هذا الفنان هو فيفان دينون Vivant Denon الذى رايت الاشارة اليه رغم انه جاء مصاحبا للحملة وذلك لأن كتابه عن مصر (١٥٨) نشر فى عام ١٨٠٩ م أى قبل ظهور « وصف مصر » بعدة سنوات ولتأثره بكتابات كل من سافارى وفولنى .

ولد دينون فى عام ١٧٤٧ م وكان من طبقة النبلاء اشتهر

---

(١٥٧) Carré : Op. Cit., P. 115.

(١٥٨) Voyage, dans La basse et La Haute Egypte Pendant Les campagnes du général Bonaparte.

بفنه ولوحاته الجميلة كلف في عهد الملك الخامس عشر بالعمل سكرتيرا في السفارات الفرنسية في بطرسبورج واستكهولم ونابولي وفي عهد حكومة المؤتمر الوطني كلف بالعديد من المهام الدبلوماسية التقى بنابليون في عام ١٧٩٧ م في حفل اقامه تاليران فعرض عليه مرافقته الى مصر لرسم آثارها العظيمة خاصة وانه كان عضوا في أكاديمية الفنون (١٥٩) .

وافق دينون على مرافقة الحملة الفرنسية الى مصر فجاء اليها وسط حشد من العلماء الفيزياء والرياضة والطبوغرافية ورغم عمله كرسام الا أن مهمته لم تكن هينة اذا كان يقوم برسم لوحاته سريعا خوفا من مهاجمة الأهالي وعمل في كثير من الأحيان وسط المعارك وطلقات المدافع فبينما كانت قوات نابليون تتقدم غازية مصر السفلي والعليا كان دينون يرافقها فكانت رسوماته شاهدا على المعارك التى خاضتها القوات الفرنسية ضد المصريين حتى أنه كاد أن يقتل في احد المعارك الدائرة في بني سويف (١٦٠) .

استمرت رحلة دينون في مصر منذ عام ١٧٩٨ م وحتى يوليو ١٧٩٩ م قدم خلالها عدة رسومات عن مصر الفرعونية والقبطية والاسلامية رسم الأهرامات ــ مساجد المماليك ــ رجال الدين المسلمين ــ رسم آثار مصر العليا ــ الأديرة القبطية ــ المعابد . وقد نشر كتابه وطبع أربعين طبعة (١٦١) ترجمت الى

---

(١٥٩) Goby, Jean : Les quarantes éditions traductions et adaptations «Du voyage dans La basse et La Haute Egypte De vivant Denon. Le Caire 1952. P. 140.

(١٦٠) Ibid. P. 140.

(١٦١) كلف الأمير ابراهيم حلمي جان ادوارد جوبي بنشر رحلة دينون فنشرت عام ١٩٥١ ــ ١٩٥٢ وأرفق جوبي بيانا بالأربعين طبعة وأماكن طباعتها .

الانجليزية والايطالية والألمانية . قدم فيه دينون صورة صادقة عن مصر وجمع فيه بين جدية فولنى وشاعرية سافارى وكانت لوحاته الأدبية أكثر شمولا وموضوعية من فولنى الذى سجل العادات والتقاليد ، أما لوحاته الفنية فتعتبر أشهر حصيلة من الصور المحفورة عن مصر عرفتها أوروبا فى نهاية القرن الثامن عشر. وقد خلفه شامبليون فى الاهتمام بالآثار المصرية وفك رموزها لأن دينون كان عاجزا بالطبع عن قراءة الهيروغليفية . وقد اعجب دينون بالآثار المصرية اعجابا شديدا فكتب مبهورا « ما أظن أن الاغريق أتوا بجديد فليس ثمة ابدع مما أراه ، كما انه ليس ثمة أبسط ولا أدق من تلك الخطوط القليلة التى يتألف منها هذا المعمار فما أخذ المصريون شيئا عن غيرهم من الأمم وما زحموا خطوطهم الأساسية بزخاف لا ضرورة لها بالغين فى ذلك ذروة الدقة والبساطة فالخطوط لها قدسيتها وما يبدو لنا عن قرب افراطا فى الزخاف سرعان ما يتلاشى على البعد » (١٦٢) .

وأخيرا يمكن القول ان الرحالة الفرنسيين فى القرن الثامن عشر قدموا وصفا شاملا للحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى مصر وأمتازت كتاباتهم بالعمق والتحليل بالقياس لمن سبقوهم من الرحالة فى القرنين السادس عشر والسابع عشر وان كان معظمهم لا تخلو كتاباتهم من روح التعصب والتعالى فكانت هذه الكتابات حافزا قويا لفرنسا لوضع يدها على مصر فى نهاية القرن الثامن عشر خاصة وان هؤلاء الرحالة مهدوا لها الطريق واوضحوا مدى ضعف وسائل الدفاع بل انعدامها واقنعوا حكومتهم بسهولة الاستيلاء على مصر .

وما دمنا قد تحدثنا عن الرحالة الفرنسيين فينبغى لنا أن

---

(١٦٢) ثروت عكاشة : المرجع السابق ص ٧٦ ، ص ٧٩ .

نلقى نظرة سريعة على أهم الرحالة الذين زاروا مصر خلال القرن الثامن عشر ولنبدأ بالرحالة البريطانيين ونخص منهم بالذكر بوكوك Pocoke (١٦٣) الذى زار مصر فى الفترة من عام ١٧٣٧ الى ١٧٤٢ م وتجول فى المدن المصرية ووصل جنوبا الى أسوان ، كما تجول فى منطقة البحر الأحمر وتفقد الأديرة القبطية وزار شبه جزيرة سيناء ويرجع اليه الفضل فى تحديد موقع مدينة فى الجيزة (١٦٤) . أما جيمس بروس فهو رحالة اسكتلندى ومكتشف كان الغرض الرئيسى من رحلته زيارة الحبشة والتعرف على منابع النيل فوصل الاسكندرية عام ١٧٦٨ م ثم تجول فى المدن المصرية عام ١٧٦٩ م خاصة فى قنا والقصير ومنها عبر البحر الأحمر الى جدة حيث استعد لرحلته الى الحبشة ونشر رحلاته (١٦٥) . فى سبعة مجلدات واصفا جميع البلاد التى ساح فيها ، وصحح الكثير من أخطاء الرحالة الدنمركى نوردن (١٦٦) .

وخلال فترة الاضطرابات التى مرت بها مصر فى عهد على بك قام لوزينيان بزيارتها (١٦٧) ولكنه لم يكن دقيقا لأنه

---

(١٦٣) وضع مؤلفا بعنوان : Pococke, R. : A Description of the east and some Countries. London 1763 Vol. 5.

(١٦٤) Carré : Op. Cit., P. 76.

(١٦٥) Bruce, James : + Travels to discover the source of the Nile in the years 1768 — 1769 — 1670 — 1761 — 1672 — 1673 London 1804.

(١٦٦) شوقى الجمل : تاريخ افريقيا واستعمارها ، القاهرة ١٩٧٢ م ص ٧٣ ، ص ٧٤ .

(١٦٧) Lusignan : A History of the revolt of Ali Bey Against ottoman porte. London 1783.

نشر كتابه بعد عودته بعشر سنوات فخانته ذاكرته فى كثير من أسماء الشخصيات والبلدان (١٦٨) .

كذلك شهدت مصر مجيء رجال الدين البريطانيين لنشر مذهب بلادهم كما عمل الرحالة الفرنسيون من قبل فجاء انت Antes من لندن الى القاهرة فى عام ١٧٧٠ م وتبع آثار بروس فى الحبشة ثم استقر فى مصر ولكنه فشل فى تحويل اقباط مصر خاصة فى البهنسا عن مذهبهم فترك مصر عام ١٧٨١ م (١٦٩) .

أما بلدوين فقد انحصرت كتاباته عن تجارة الرقيق فى مصر والاسكندرية وكتب عن أوضاع مصر السياسية ونشر الكتاب الأول فى عام ١٧٩٠ م وكان تقريرا صغيرا عن أحوال تجارة الرقيق الأبيض (المماليك) (١٧٠) . أما كتابه الثانى (١٧١) فقد نشر فى لندن عام ١٨٠١ م (١٧٢) .

كذلك وفد براون على مصر عام ١٧٩٢ م فى طريقه الى الحبشة وسجل مشاهداته عن مصر (١٧٣) وفى عام ١٧٩٥ م زار

---

(١٦٨) محمد انيس : المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الثانى ، العدد الثانى فى ١٩٤٩ ، مقالة للدكتور محمد انيس « النشاط الأوروبى بمصر وجيرانها فى أواخر القرن الثامن عشر الميلادى » ص ٧٥ .

(١٦٩) وله مؤلف بعنوان : A Description of the Maners

محمد أنيس ص ١٢٥ .

(١٧٠) Slave trade in Egypt and Alexandria 1790.

(١٧١) Political recollections relative to Egypt London 1801.

(١٧٢) محمد انيس : المرجع السابق ص ١٢٦ .

(١٧٣) Browne Travels in Africa, Egypt and Syria London 1799.

مصر جيلجهورن وكان أستاذا للتاريخ فى جامعة سانت أندروز وكان فى طريقه الى سيلان وكانت له اتصالاته مع بلدوين وروزينى وقدم عدة مقترحات (١٧٤) بشأن مواصلات بريطانيا بين الهند ولندن عن طريق البحر الأحمر ومصر (١٧٥) .

أما كابر فقد عمل فى خدمة شركة الهند الشرقية وله دراسه (١٧٦) عن طريق المواصلات عبر مصر وكانت له خبرة بالطرق البحرية الموصلة بين أوروبا والهند (١٧٧) .

ودون فاى وهو فى طريقه من بريطانيا الى الهند عن طريق مصر ١٧٧٨ م مشاهداته عن الاسكندرية ـ القاهرة ـ السويس (١٧٨) ، كذلك دون التاجر برسون وهو فى طريقه الى الهند ١٧٧٨ م ملاحظات عن المصريين وعاداتهم وتقاليدهم (١٧٩) .

نلاحظ مما سبق انه رغم كثرة أعداد الرحالة البريطانيين الذين زاروا مصر ، الا أن اقامتهم بها كانت قصيرة فقد وفدوا عليها أثناء ذهابهم الى الهند أو الحبشة فلم تكن مصر هى المقصودة كما كان الحال بالنسبة لمعظم الرحالة الفرنسيين الذين قصدوا مصر لوصفها ومشاهداتها . فمعظم هؤلاء الرحالة

---

(١٧٤) Cleghorn, H. : Cleghorn Papers. London 1925.

(١٧٥) محمد أنيس : المرجع السابق ص ١٢٦ .

(١٧٦) Capper, J. : observations on the passage to India through Egypt. London 1783.

(١٧٧) محمد انيس : المرجع السابق ص ١٢٦ .

(١٧٨) Fay; Letters from India

(١٧٩) Parsons, A. : Travels in Asia and Africa. London 1808.

البريطانيين كانوا اما تابعين لشركة الهند الشرقية أو تجارا يعملون بترخيص من الشركة ولذلك يمكن أن نطلق عليهم اسم « الرحالة العابرون » وقد انصب اهتمامهم بالنواحي المتعلقة بالبحر الأحمر فقط ولكن منهم ايضا الجغرافيون المستكشفون مثل بروس الذى خصص رحلته لاكتشاف منابع النيل فى الحبشة . ومنهم رحالة مستقرون أما تجار شركة الليفانت أو أصحاب مناصب رسمية ولكن تناقصت أعدادهم بعد اغلاق الشركة لقنصليتها فى القاهرة ١٧٦٧ م (١٨٠) .

شهدت مصر أيضا قدوم رحالة من المانيا والدانمرك وروسيا ومن اشهر هؤلاء المكتشف الألمانى هورنمان (١٨١) الذى زار مصر أثناء توجهه الى سنار وله العديد من الاكتشافات ١٧٩٨ — ١٨٠٠ م . اما الرحالة الدانمركى فردريك نوردن (١٨٢) فقد زار مصر والنوبة ١٧٥١ — ١٧٥٥ م ووصف اضطرابات البدو فيها (١٨٣) .

اما أشهر الرحالة الروس الذين زاروا مصر فى القرن الثامن عشر فنخص بالذكر منهم هيبوليت فيكنسكى وكان من رجال الدين ، ترك روسيا لزيارة الأماكن المقدسة فمر على مصر وبقى فيها حوالى اسبوعين من ٤ الى ٢٠ يونيو عام ١٧٠٨م زار خلالها دير سانت كاترين ودمياط والاسكندرية والقاهرة

---

(١٨٠) محمد انيس : المرجع السابق ص ١٢٦ .

(١٨١) Hornemann, E. : The Jornal of Hornemann's travel in 1797 — 1798. London 1808.

(١٨٢) Norden, F. : Voyage d'Egypte et de Nubie. Paris 1795.

(١٨٣) محمد انيس : المرجع السابق ص ١٢٧ .

ورغم أنه من رجال الدين الا انه قدم فصلين فى كتابه خصصهما للحديث عن الطيور فى مصر وقد نشرت الجمعية الملكية للتاريخ والآثار الروسية التابعة لجامعة موسكو رحلة هيبوليت فى عام ١٨٧٧ م (١٨٤) .

كذلك زار مصر الراهب بارسكى (١٨٥) وقد نشرت الأكاديمية الملكية للعلوم فى سانت بترسبورج رحلته التى تجول فيها فى الاستانة وكورفو وسالونيك والجزيرة العربية والقدس وسورية وزار مصر عام ١٧٢٦ م وفى عام ١٧٢٨ م اتجه الى سيناء ثم عاد الى مصر عام ١٧٢٩ م وقدم وصفا عن الاسكندرية والقلعة وبولاق والسويس ولكنه أخطأ فى تحديد بعض المواقع فلم يتعرف على طيبة وذكر انها فوة كما اعتقد ان قناة الاسكندرية تمثل فرعا رئيسيا من فروع النيل (١٨٦) .

اما عن اشهر الرحالة المسلمين المغاربة الذين زاروا مصر خلال القرن الثامن عشر فهو أبو القاسم الزيانى ولم مؤلف عنها باسم « الترجمانة الكبرى فى أخبار المعمورة برا وبحرا » (١٨٧) وقد قام أبو القاسم بثلاث رحلات الى بلدان الشرق الأولى لأداء فريضة الحج والثانية كان ضمن سفارة مغربية ارسلها مولاى محمد بن عبد الله الى استانبول عام ١٧٨٥ م ثم الأخيرة

---

(١٨٤) Volkoff, Oleg : Voyageurs Russes eu Egypte Le Caire 1972. PP. 51 — 61.

(١٨٥) Vassily Grigorovitch Baroky.

(١٨٦)

(١٨٧) يونان لبيب ، محمد مزين : تاريخ العلاقات المصرية المغربية منذ مطلع العصور الحديثة حتى عام ١٩١٢ ، القاهرة ١٩٩٠ م ، ص ١٢٥ ، ص ١٢٧ .

فى عهد مولاى سليمان عام ١٧٩١ م . ارتبطت نظرته الى مصر واقتصادها بحاجته أثناء سفره للمؤنة والمواصلات والأسواق ولذلك كان كتابه مفيدا للحجاج المغاربة المارين بمصر فتحدث عن المواصلات بين برقة والاسكندرية والقاهرة وهو لا يضيف شيئا جديدا عما ذكره ليو الافريقى فى القرن السادس عشر وقد نقل كثيرا عمن سبقوه (١٨٨) .

يتضح لنا مما سبق أن الرحالة الفرنسيين كانوا سلسلة متعددة الحلقات يتمم كل منها الآخر ، فلا نجد هذه الأعداد من الرحالة لدى دولة أوروبية أخرى سوى فرنسا ، كما أن كتاباتهم ورسومهم وخرائطهم كانت أدق وأفضل بكثير من غيرهم من الرحالة .

---

(١٨٨) المرجع السابق : ص ١٢٧ .

القناصل الفرنسيون

اتسم القرن الثامن عشر باهتمام القناصل الفرنسيين بالوثائق والمخطوطات وقد أفاد هؤلاء من وظائفهم فتجولوا بحرية فى البلاد مسجلين ومدونين ما شاهدوه وقد رأيت الاعتماد على ما سجله هؤلاء القناصل سواء كانت فى صورة تقارير الى الحكومة الفرنسية تعكس أحوال مصر السياسية أو كانت مذكرات طبعت ونشرت بالفعل .

وفى مقدمة اسماء القناصل الفرنسيين الذين ينبغى الاشارة اليهم القنصل الفرنسى بينو دى ميليه الذى مكث فى مصر حوالى ستة عشر عاما من ١٦٩٢ حتى ١٧٠٨ م وكان حريصا على تدوين مشاهداته عن مصر وقد قام الراهب لى ماسكريه بنشر مذكرات وملاحظات ميليه عن مصر عام ١٧٣٥ م باسم « وصف مصر » وهو الاسم الذى أقتبسه نابليون وعلماء الحملة عندما وضعوا العمل العظيم « وصف مصر » فكانت الأخيرة هى التسمية الثانية وليست الأولى (١٨٩) .

---

(١٨٩) Clement : Op. Cit., P. 82.

ولد بينو دى ميليه فى اللورين (١٦٥٦ ــ ١٧٣٨) وعين قنصلا فى القاهرة فى عـام ١٦٩٢ م ثم عين عـام ١٧١٥ م مفتشا عاما لأسكالات الشرق وأقام فى أواخر أيامه فى مارسيليا وقد ظهرت له عدة كتب بعد وفاته ففى عام ١٧٤٣ م ظهر له كتاب عن حكومات مصر القديمـة والحديثة (١٩٠) كذلك نشر بعد وفاتـه كتابا فى عـام ١٨٥٥ م يحوى محادثات بين فيلسـوف هندى وقسيس فرنسى (١٩١) .

أما مذكرات ميليه التى نشرت باسم « وصف مصر » (١٩٢) فكانت حصيلة لمشاهداته واكتشافاته للآثـار المصريـة القديمـة والموميات والمخطوطات القبطيـة وقد أعجب ميليه بآثـار مصر وحضارتهـا يتضـح لنا ذلك مما كتبـه فى عـام ١٧٩٣ م الى ريجور Rigord مفتش البحرية الفرنسية فى مارسيليا أوضح فيها اهمية الآثار فى مصر العليا « ان المعابد المذهبة الجميلة ذات الألوان الزرقاء فى مصر العليا تحتـاج الى كشف علمى بواسطة علماء لديهم حب الاستطلاع والمعرفة » (١٩٣) . وبذلك يكون ميليه هو أول من نبه لدراسـة آثار مصر دراسة علمية دقيقة متأنية بواسطة علماء متخصصين « فلابد للعلماء أن يتوفر لديهم الوقت الكافى للدراسـة لكى يعطوا المكان حقه المناسـب من الوصـف

---

(١٩٠) Idée du gouvernement Ancienne et Moderne de L'Egypte.

(١٩١) Entretiens d'un philosophe Indien avec un missionnaire Français.

(١٩٢) Maillet, Benois : Description de L'Egypte L'abbé Le Mascrier composée sur Les mémoires de M. Maillet ancien consul de France au Caire. Paris 1735.

(١٩٣) Clement : Op. Cit., P. 106.

والدراسة » على حد قوله ولكي تكون الدراسة على أكمل وجه « لابد من عمل خريطة كاملة لمصر » . كذلك أولى ميليه اهتمامه بالتاريخ القبطي فكتب انه « لابد من الكشف عن المخطوطات الهامة في الأديرة القبطية خاصـة في دير أبي مقار وسانت انطوان وجبل سيناء » ويعزى اليه فكرة نقل المسلة المصرية الى فرنسا قبل أن يقدم ديزيه على هذه الخطوة إثناء حملة نابليون فميليه هو صاحب الفكرة كذلك أراد نقل عمود السوارى من الاسكندرية الى باريس وراى انه « يصلح لوضـع تمثال لويس الرابع عشر فوق قمته » وقد قدم ميليه اقتراحه بالفعل الى الوزير الفرنسي بونشر تران ولكنـه رفض نظرا لتكلفة المشروع وعندما عاد ميليه الى فرنسا جدد العرض للوزير الفرنسي موروبا فلم يقتنع بجدوى المشروع (١٩٤) .

أما كتاب ميليه « وصف مصر » فهو من أهم المؤلفات التى ظهرت عن مصر أثناء النصف الأول من القرن الثامن عشر وقبل ظهور مؤلف فولنى وقد سجل ميليه مشاهداته عن مصر أثنـاء تجوله في البلاد على ظهر حمار يتبعه الجنود الانكشـارية فسجل الاحتفالات والأعياد والعديد من المظاهر الاجتماعية . ولكن هذا لا يعنى خلو وصفه من المبالغة مثل قوله « في مصر يتم صيد سمك له وجه انثى وله ذراعان ويدان وعند صيده يطلق أصواتا تشبه أصوات النساء » كذلك تأكيده أن المصريين يقصـدون المعـابد للعلاج فيمكثون عشرة أيام « لا يأكلون سوى الخبز والعسـل ومسحوق السحالى وبيض العصافير » (١٩٥) .

كتب ميليه مذكراته وملاحظاته حول مصر على هيئة رسائل

---

(١٩٤) Ibid. P. 107.

(١٩٥) Carré : Op. Cit., P. 57.

بلغ عددها ثلاث عشرة رسالة خصص الرسالة الأولى عن جغرافية مصر والثانية عن نهر النيل مجراه ومصبه ، وخصص الرسالة الثالثة لوصف الدلتا فى مصر ومدن رشيد ودمياط ، وخصص الرابعة عن مدينة الاسكندرية وآثارها القديمة أما الرسالة الخامسة فكانت عن القاهرة وآثارها والرسالة السادسة عن الأهرامات والسابعة عن موميات منف والثامنة عن مصر العليا ومدنها وثرواتها ودير سانت انطوان والتاسعة عن التاريخ الطبيعى وخصوبة اراضى مصر وثرواتها الزراعية والحيوانية والعاشرة عن ديانة الفراعنة والاحتفالات ، والحادية عشرة عن عادات السكان ومقارنتها بالعادات القديمة والثانية عشرة عن تجارة مصر ومشروع ربط تجارتها مع أوروبا وآسيا بواسطة البحر الأحمر أما الرسالة الثالثة عشرة والأخيرة فكانت عن القوافل فى مصر خاصة قافلة الحجاج (١٩٦) .

يتضح لنا اهمية كتابات ميليه لأنها تناولت تاريخ مصر فى مختلف المراحل كما أنه من الرواد الذين اهتموا بالعمارة الاسلامية والحضارة الاسلامية فوصف مسجد السلطان حسن وتحدث عن الفن فى العصر الفاطمى والأيوبى والمملوكى كما أنه بعد وفاته ترك مجموعة من المخطوطات العربية قام الوزير موروبا بشرائها لحساب المكتبة الملكية (١٩٧) . كذلك اهتم بالمزارات المسيحية والأديرة والكنائس وعندما جاءت الحملة الفرنسية الى مصر استطاع جيمار Guemard ان يرفع اسم ميليه من سجلات كنيسة مسيحية فى الموسكى (١٩٨) .

---

(١٩٦) Maillet : Op. Cit., P. 175.

(١٩٧) Carré : Op. Cit., P. 57.

(١٩٨) Ibid. P. 56.

تولى القنصلية فى القرن الثامن عشر عدد من القناصل لم يتركوا مؤلفات هامة عن مصر مثلما فعل ميليه وانما استطعنا أن نتعرف على أحوال مصر السياسية من خلال تقاريرهم ومذكراتهم الى غرفة تجارة مارسيليا والى الحكومة الفرنسية ويمكن أن نذكر بايجاز شديد اسماء هؤلاء القناصل .

تولى بيليرون Peleran شئون القنصلية فى مصر بعد رحيل ميليه (١٧٠٨ ــ ١٧١١) وقد القت كتاباته وتقاريره الضوء على الصراع الدائر بينه وبين التجار الفرنسيين الذين كانوا يرفضون اتباع أوامره فكتب « يمضى احيانا يوما بأكمله لا يزورنى احد فى الصباح » (١٩٩) .

عمل لى مير Le Maire فى مصر فترة طويلة (١٧١١ ــ ١٧٢٢) وهو ينتمى لعائلة يعمل جميع أفرادها فى القنصليات فله أقارب فى اسكالات الشرق المختلفة ومن خلال مراسلاته مع غرفة تجارة مارسيليا استطعنا أن نتعرف على النزاع الدائر بينه وبين التجار الفرنسيين الذين أرسلوا العديد من الشكاوى ضده لأنه الزمهم بتقديم الهدايا لابنته عند زواجها ، كذلك احاط نفسه بأقاربه فكتب التجار يشكون « ان جميع عائلته فى القاهرة وضواحيها » ومن خلال مراسلات لى مير أيضا تعرفنا على اهتمامه بالكشف عن الآثار المصرية والكتابة عنها من القناصل الذين أولوا الآثار اهتماما كبيرا (٢٠٠) .

وبعد وفاة لى مير لم يتم تعيين قنصل فى القاهرة لفترة من الوقت الى أن تم تعيين بينون Pignon الذى وصل الى مصر

(١٩٩) Clement : Op. Cit. P. 89.
(٢٠٠) Ibid. P. 107.

عام ١٧٣٠ م فدار صراع بينه وبين التجـار الفرنسيين كمـا حدث مع القناصل السابقين فشكا بينون من تصرفات التجـار وكتب « ان فرنسا فى حاجة الى قنصل لعلاج ما اصـاب التجارة من تدهور » ويبدو أن شخصية بينون كانت أقوى من غيره من القناصل فعمل على اصلاح احوال التجـار وأعلن ضرورة عودة التجار الفرنسيين الذين يخالفون النظـام والقوانين فوجهت اليه غرفة التجـارة بمارسيليا الاتهامات ووصفته بالقسوة وسـوء معاملة التجار فرد الوزير موروبا فى عـام ١٧٣١ م « ان الهدف هو صالح التجارة ولا مجال للعواطف فالقنصل يبحث عن الصالح العام » وكان بينون قد اقترح ترحيل التجـار الفرنسيين من القاهرة واحلال تجار غيرهم واقترح وقف التجارة لمدة ستة أشهر وقد كتب الى غرفة تجارة مارسيليا « ان القنصل فى هـذا البلد لا سلطة له على الفرنسيين » (٢٠١) .

كذلك كشـفت لنا التقارير ومراسـلات القنصـل دامير D'Amirat (١٧٣٦ — ١٧٤٧) عن التنافس ايضا بين القنصل ونوابه حتى اضطر القاضى الفرنسى الى تهديدهم بأن يتولى أمور القنصلية ابن شقيق القنصل البريطانى (٢٠٢) .

وقد وجدنا أن بعض القناصل لم تطب لهم الاقامة فى مصر خاصـة ليريكور Li Roncourt (١٧٤٧ — ١٧٥٠) الذى كتب « لقد أرسلت الى بلد لا يعرف المبادىء ولا المثل » واعرب عن استيائه لارتفاع الأسـعار فى القاهرة « فالحياة فيهـا اغلى من باريس » وكتب يرجو صديقه السفير فى روما أن يتوسط له ويتدخل لدى المسـئولين لارساله الى بلد آخر غير مصر (٢٠٣) .

---

(٢٠١) Clement : Op. Cit., PP. 144 — 145.

(٢٠٢) Ibid P. 145.

(٢٠٣) Ibid P. 147.

وهكذا نلاحظ ان كتابات القناصل وتقاريرهم ألقت الضوء على أوضـــاع الجالية الفرنسية فى مصر وعلى أوضـــاع التجارة كذلك الأوضاع السياسـية فى مصر من اضطرابات وتنافس وحروب أهلية كما سيجىء الحديث عنه .

ويعتبر القنصـل الفرنسى مور (٢٠٤) م ن أهم القناصل بعد ميليه فقد تولى شـــئون القنصلية فى مصر فى فترة حرجـة من تاريخها (١٧٧٤ — ١٧٨٩) وترجع أهميته الى الرسائل التى أرسلها الى السفير الفرنسى فى الاستانة شوازيل جوفييه والتى تعتبر مصـــدرا هاما لأحوال مصر فى تلك الفترة وهى محفوظة فى ارشيف الخارجية الفرنسية وقد تم نشرها بواسطة ايتيان كومب عـــام ١٩٢٧ م ويبلغ عدد هذه الرسائل ثمانية تناول فيها شئون التجارة وتكشـف عن دور مور فى تسهيل عقد معاهــدات تجارية بين فرنسا وبكوات المماليك بواسطة تروجيه ، وتضمنت آراؤه أهميـــة طريق البحر الأحمر وضرورة استخدامه لخدمة مصالح فرنسا التجارية كذلك كشفت رســـائله عن الصراع بين مراد وابراهيم بك من جانب واسماعيل بك من جانب آخر وآثاره على أحوال البلاد الاقتصادية (٢٠٥) .

واذا كان بداية القرن الثامن عشر قد شهد ظهور القنصـــل الفرنسى ميليه الذى سجل مشاهداته عن مصر فى كتابه « وصف

---

(٢٠٤) تولى قبـله جوانفيـــل ١٧٥٢ — ١٧٥٨ م ثم داميرا فترة ثانيـة ١٧٥٩ — ١٧٧٤ م ثم مور .

(٢٠٥) Lettres De Mure Consul De France à Alexandrie à M. G.R. Le Conte De choiseul-Gouffier Ambassade de France à La Sublime porte publiées par Etienne combe. Le Caire 1927 P. 192.

مصر » وهو يعتبر من أهم القناصل الذين تولوا خلال هذه الفترة فان السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر شهدت أخطر القناصل الا وهو ماجلون الذي دعى الى غزو مصر وكان لكتاباته اثر واضح على قرار الحكومة الفرنسية .

وقد عمل ماجالون عند قدومه الى مصر فى بداية الأمر وكيلا لأحد البيوت التجارية ١٧٦٨ م ثم تزوج من ارملة أحد التجار البنادقة الأثرياء (٢٠٦) وكانت تنتمى الى عائلة كبيرة تتاجر فى الأقمشة وكان لزوجة ماجالون علاقات وطيدة مع نساء المماليك خاصة مراد بك وابراهيم بك مما مكنها من خدمة أهداف وأغراض زوجها . وقد تم تعيين ماجالون قنصلا عاما فى الاسكندرية فى عام ١٧٩٣ م وترجع خطورة ماجالون فى الرسائل والتقارير التى ارسلها الى حكومة المؤتمر الوطنى والى لجنة الأمن العام ١٧٠٥ م أوضح فيها مدى ضعف مصر وضرورة الاستيلاء على السويس والبحر الأحمر ولاقناع الحكومة بآرائه طلب الاذن للسفر الى فرنسافوصل باريس فى عهد حكومة الادارة عام ١٧٩٧ م وأوضح أهمية احتلال مصر وقدم تقريره المشهور عن الأوضاع السياسية فى مصر منذ العهد العثمانى موضحا مساوىء المماليك وقد اتفقت وجهة النظر لماجالون مع الوزير تاليران وقرر المسئولون ارسال الحملة الفرنسية على مصر وأكد لهم ماجالون سهولة الاستيلاء عليها وان الخسائر الفرنسية ستكون طفيفة وان الغزو سيكون ضربة كبيرة ضد بريطانيا (٢٠٧) .

باستعراض اسماء القناصل الفرنسيين سنجد أن ميليه

---

(٢٠٦) يدعى : Bernadi.

(٢٠٧) Carré : Op. Cit., P. 83.

هو الوحيد الذى نشر كتابا باسمه حوى ملاحظاته القيمة عن مصر فترك عملا متكاملا اما غيره من القناصل فلا نتعرف على آرائهم الا من خلال التقارير والرسائل التى كانوا يتبادلونها مع السفراء الفرنسيين فى الآستانة او غرفة تجارة مارسيليا وقد نشرت رسائل القنصل الفرنسى مور فى عام ١٩٢٧ م نشرها ايتيان كومب فألقت الضوء على أفكاره ودعوته لاستغلال البحر الأحمر وفتحه أمام الملاحة الفرنسية ، واتصالاته مع المماليك ولعل اخطر القناصل واكثرهم شرا هو القنصل ماجالون ويمكن وصفه بالجاسوس فهو من أشد المحرضين على غزو مصر ، عاش فيها وتوثقت صلاته بمراد بك وإبراهيم بك وافاد من تناحر القوى السياسية فحث بلاده على ضرورة غزو مصر . أما من ذكرنا اسماءهم من القناصل فقد تعرفنا من خلال تقاريرهم على أحوال الجالية الفرنسية وعلى احوال مصر السياسية ولكن هذا لايعنى ان معظم القناصل كان لهم اثرهم الواضح بل على العكس نجد أن بعضهم قضى فترة عمله فى منازعات بينه وبين التجار الفرنسيين كما اسلفنا من قبل .

الفصل الثالث

أحوال مصر السياسية كما صورها القناصل والرحالة الفرنسيون

- احوال مصر السياسية فى النصف الأول من القرن الثامن عشر .
- احوال مصر السياسية فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر .

ظل نظام الحكم العثمانى يسير طبقا للأسس التى وضعت فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، ولكن ابتداء من الثلث الأخير من القرن السابع عشر بدأت الحكومة تفقد سلطاتها وسيطرتها على الولايات التابعة لها وذلك بسبب كثرة الحروب التى خاضتها الدولة العثمانية ضد دول أوروبا خاصة روسيا والنمسا ، أضف الى ذلك تدهور أوضاع الدولة الداخلية وانتشار الفساد فى اداراتها المختلفة فكان من الطبيعى أن ينعكس ذلك على مصر وهى من الولايات التابعة للدولة فبدأ الوالى العثمانى يفقد سلطته تدريجيا بينما تزايدت وتصاعدت قوة الفرق العسكرية من انكشارية وعزب (١) .

وبرز فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر عدة شخصيات قوية من المماليك مثلت الصفوة العسكرية فى البلاد مثل على بك ومحمد بك أبو الذهب ومراد بك وابراهيم بك فأصبح لهؤلاء النفوذ والسلطان بلا منازع (٢) .

وقد سجل الرحالة والقناصل الفرنسيون فى كتاباتهم وتقاريرهم أحوال مصر السياسية فى القرن الثامن عشر فالقوة

---

(١) جلال يحيى : المرجع السابق ص ٢٢١ .
(٢) عبد الوهاب بكر : المرجع السابق ص ٦٣ .

الضوء على المنازعات بين الفرق العسكرية المختلفة خاصة فى النصف الأول من هذا القرن كما سجلوا تصاعد نفوذ البيوتات المملوكية والتى قدر لزعمائها التحكم فى مصير مصر السياسى حتى مجيء الحملة الفرنسية .

أجمع الرحالة والقناصل الفرنسيون على أن مصر حكمت وأديرت بواسطة ثلاث قوى رئيسية الا وهى قوة الباشا والبكوات والأوجاقات العسكرية .

الباشا :

الواقع ان ما ذكره الرحالة عن سلطات الباشا العثمانى تقترب كثيرا مما ذكره الرحالة الذين وفدوا على مصر فى القرنين السابقين ولكن يمكننا القول بأن كتاباتهم فى القرن الثامن عشر كانت أعمق وأكثر اسهابا ، واتفق رحالة وقناصل القرن الثامن عشر على ضعف سلطة الباشا فى مصر بينما تزايدت قوة الانكشارية والمماليك وقد فند هؤلاء الرحالة فى كتاباتهم مهام الباشا على النحو التالى :

ذكر فورمون « ان الباشا هو حاكم البلاد نيابة عن السلطان ، له سلطة كبيرة وتمتد فترة حكمه الى ثلاثة أعوام وأحيانا أربعة ، وتعتبر هذه الوظيفة أى وظيفة « باشا مصر » من أهم الوظائف فى الامبراطورية العثمانية ، ولا يحصل عليها الا من يمتلك ثروة كافية لرشوة رجال الدولة ، ويتراوح ما ينفقه المرء للحصول على هذه الوظيفة ما بين « ٤٠٠ ألف ايكو و ٥٠٠ ألف ايكو » (٣) وقد أكد القنصل الفرنسى ماجالون هذه

(٣) Fournont : Op. Cit., P. 70.

الحقيقة فذكر « ان اسماعيل باشا دفع اموالا طائلة فى الاستانة للحصول على منصبه » (٤) .

ومن مهام الباشا كما أوضح جرانجيه « عقد الديوان ثلاث مرات أسبوعيا أيام الثلاثاء ، الخميس ، الأحد بحضور البكوات والأغوات ورؤساء الفرق العسكرية » (٥) . وقد اتيح للقنصل الفرنسي ميليه حضور احدى جلسات الديوان وذلك بشأن شكوى قدمها التجار الفرنسيون الذين صودرت بضائعهم فى جمرك الاسكندرية فكتب معربا عن سروره « اتيح لى مشاهدة انعقاد الديوان وهو أمر لا يتيسر للقناصل الا نادرا » (٦) .

ويعتبر ارسال كسوة الكعبة الى مكة من اهم مسئوليات الباشا ومن الطبيعى الا يدرك الرحالة وصف كلمة « كسوة » فوصفها فورمون بقوله « على الباشا ارسال العلم الى الكعبة سنويا » (٧) وتكون مصحوبة بالغذاء والحبوب (٨) .

ومن اهم واجبات الباشا ارسال الخزنة الى الاستانة التى قدرها القنصل الفرنسي ميليه « بستمائة الف ريال سنويا » وتكون مصحوبة بهدايا من الحبوب والسكر (٩) وفى عام ١٧٨٩ م عدد ماجالون الهدايا التى أرسلها اسماعيل باشا الى الاستانة فذكر « الأرز والقهوة والسكر والبلح والزعفران والعاج والبندق

---

(٤) جلال يحيى : المرجع السابق ، ص ١٤٣ .

(٥) Granger : Op. Cit., P. 25.

(٦) Maillet : Op. Cit., P. 157.

(٧) Fourmont : Op. Cit., P. 71.

(٨) Maillet : Op. Cit., P. 157.

(٩) Ibid. P. 157.

والقمح وغير ذلك من الحبوب » وكان ارسال الخزنة يتم بطريقة منتظمة سنويا حتى تولى على بك الكبير فمنع ارسالها تعبيرا عن عدم تبعيته للدولة العثمانيــة ولكن محمد بك أبو الذهب انتظم فى ارسالها ولكن بعد عودة مراد بك وابراهيم بك الى القاهرة فى عام ١٧٩١ م انقطع من جديد وصولها الى الاستانة (١٠) .

وأكد فولنى ان « المماليك كانوا يسقطون من الخزنة مقدار نفقات شــق وتنظيف الترع ونقل أوســاخ القاهرة الى البحر ومرتبات الجنود وترميم الجوامع ولكن جميعها على حد قول فولنى نفقــات وهميــة كاذبة والبــاب العــالى يغض النظر الطرف » (١١) .

ومن مهام الباشا « تبليغ أوامر الباب العالى وحماية مصر والحرص على آمنها من الاخطار الخارجية والحيلولة دون وجود أحزاب فيها ، وقد أعطى أعضــاء الديوان الحق فى رفض أوامر الباشا على أن يعللوا سبب رفضهم » (١٢) ولكن «بمرور الوقت ضعفت سلطة الباشا بينما قويت سلطة الزعماء العسكريين » (١٣) وقد عبر فولنى عن تدهور سلطة الباشا حتى انه أصبح محصورا فى القلعة مقيدا مراقبا فهو سجين المماليك اكثر مما هو ممثل السـلطان وهو معرض الباشـا للخلع والطرد فى أى وقت (١٤) وقد أكد سافارى على هذا الضعف فى كتاباته « ان منصب الباشا هو من أنواع النفى فهو لا يستطيع ان يخرج من القلعة الا باذن من شيخ البلد ، وهو سجين يرى نفسه وقد أحيط بمظـاهر

---

(١٠) Hanotaux : Op. Cit., P. 157.

(١١) فولنى : المرجع السابق ص ١٠٩ .

(١٢) المرجع السابق : ص ٧٥ .

(١٣) Olivier : Op. Cit., P. 186.

(١٤) فولنى : المرجع السابق ص ١٠٨ .

الأبهة ومن خلال هـذه المظاهر يشعر بثقل القيود التى يرسف فيها فهو لا بد له فى شئون الحكومة ومرتبه محدود بما يدخل من رسوم جمرك السويس والمتاجر التي ترد من البحر الأحمر على أن البكوات يبذلون له أكثر من ذلك فالباشـا الحـاذق يستطيع بمهارته ودسائسه أن يستجلب عطف الحزب الغالب من المماليك فيدر عليه الثروة ؛ وللباشا منبع آخر للمـال فان المماليك الذين يعينهم الديوان سناجق يدفعون الى الباشا اتاوة لاقرار هـذا التعيين ، واليه يؤول ميراث المـلاك الذين يموتون بلا عقب ، وبهذه الطريقة يستطيع الباشا أن يستقر فى منصبه أو مركزه ويجد منه الغنى فى سنوات قليلة ولكنه فى حاجة الى الحـذر الشـديد فى كل ما يأتى وما يدع لأن أصغر هفوة تورد موارد الحتف ، وقد يحدث أحيانا انه مع حذره ودهائه ينقلب عليـه قصده وذلك اذا طغى بعض السناجق على الحزب الغالب من البكوات الذى ينتمى اليه الباشا فيسلبه السلطة ويرتفع الى مشيخة البلد ، ومن ثم لا يكون الا أن يطرد الباشا فيخرج منها مذؤوما مدحورا (١٥) .

أورد القناصل والرحالة أسماء العديد من ولاة مصر مؤكدين بأن من مهامهم الرئيسية « العمل على حماية الفرنسيين وتوفير الأمان لهم » على حد قول جرانجيه (١٦) .

وقد رجعت الى كتابات المؤرخين المسلمين فى ذلك الوقت او العصر لمقارنتها بما كتبه الرحالة والقناصل الفرنسيون على أساس ان كتابات هؤلاء المؤرخين تمثل مصـدرا هاما لتلك الفترة

---

(١٥) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق ص ٤١ .

(١٦) Grauger : Op. Cit., P. 222.

فوجدت تطابقا كبيرا ودقة فى التواريخ التى اوردها الفرنسيون خاصة ما ذكره الأمير أحمد الدمرداشي (١٧) فى « الدرة المصانة » .

ومن أهم الأسماء التى حرص الفرنسيون على تسجيلها اسماعيل باشا (١٦٩٥ ــ ١٦٩٧) الذى وصفه ميليه « بأنه يمتاز بجمال الهيئة وهو أفضل واقوى من قابلت » (١٨) .

أما احمد الدمرداشى فقد ذكر تاريخ تولية اسماعيل باشا من ١٧ صفر عام ١١٠٧ هـ حتى ١٩ صفر عام ١١٠٩ هـ الموافق ٢٧ سبتمبر ١٦٩٥ م حتى ١٦٩٧ م وقد وصف اسماعيل باشا وصفا يقترب من وصف ميليه فأكد على قوة شخصيته وحرصة الدائم على استتباب الأمن فى البلاد (١٩) .

ويبدو ان اسماعيل باشا كان على علاقة طيبة مع الفرنسيين فقد اثنى عليه ميليه ثناء كبيرا ووصفه بأنه « من أكفأ حكام الامبراطورية العثمانية ، وقد اشتهر بالشجاعة والعدل » وأكد ميليه « أن الفرنسيين فى عهده تمتعوا بالحماية والصداقة » (٢٠) .

---

(١٧) كنى بالدمرداشى نسبة الى الطريقة الصوفية التى انتمى اليها ــ التحق بأوجاق العزب وتدرج فى المناصب حتى وصل منصب كتخدا أوجاق العزب وعن طريق المناصب التى تولاها عمل على رصد احداث مصر فى تلك الفترة منذ أواخر القرن ١٧ حتى منتصف القرن ١٨ فعمل على تسجيل المنازعات السياسية والأزمات الاقتصادية وأوضح انقسامات المماليك وصراعاتهم .

(١٨) Hanotaux : Op. Cit., P. 19.

(١٩) الأمير أحمد الدمرداشى : كتاب الدرة المصانة تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن ، المعهد العلمى للآثار الشرقية ، القاهرة ١٩٨٩ م ص ٢٦ ، ص ٣٩ .

(٢٠) Maillet : Op. Cit., P. 17.

كذلك أعرب ميليه عن سروره عندما عين قره محمد باشا (٢١) مؤكدا أن الفرنسيين نعموا بالأمان فى عهده « فهو صديق للفرنسيين » (٢٢) .

ولا جدال ان المدح أو الذم فى حكام مصر من الباشوات توقف على نوعية علاقتهم مع القنصل الفرنسي فاذا قويت العلاقة نجد المدح والشكر واذا ساءت بين الطرفين نجد الذم والنقد ، فنجد ميليه يكتب متحسرا على عزل قرة محمد باشا باعتباره صديقا للفرنسيين ويرى « ان عزله تم غدرا » وقد تأكدنا من حادثة عزل قرة محمد باشا فقد ذكرها الدمرداشي بقوله « نزل محمد باشا حاسبوه غلق ما عليه من مال وغلال وتراقى سفر وممتاد وفرش قايمقام أوضة شهر حواله ، وعين له تعيين لما يجى الباشا » (٢٣) .

أما محمد باشا رامى فقد تولى الحكم فى (٦ شعبان ١١١٦ ــ ٧ شوال ١١١٨ هـ) الموافق ٤ ديسمبر ١٧٠٤ ــ ١٢ يناير ١٧٠٧ م وقد اثني عليه القنصل الفرنسى ميليه مؤكدا « ان لديه معرفة بالعلوم والفنون والطب والفلسفة » وذكر ميليه ان الباشا كان على درجة كبيرة من الثقافة تحدث معه لفترات طويلة عن أوروبا وعلومها كما أنه أبدى أعجابه بتقدم فرنسا العلمى وانتشار اللغة الفرنسية فى أوروبا واشاد بعظمة ملوك فرنسا وحروبهم وغزواتهم » وقد وصفه ميليه بأنه سياسى كبير فى الامبراطورية العثمانية وأبدى إسفه لعزله (٢٤) .

---

(٢١) تولى فى ٢٤ ربيع الثانى ١١١١ هـ الى غرة رجب ١١١٦ هـ الموافق ١٩ اكتوبر ١٦٩٩ حتى ٣٠ أكتوبر ١٧٠٤ م .

(٢٢) Maillet : Op. Cit., P. 17.

(٢٣) احمد الدمرداشي : المرجع لسابق، ص ٦٩ .

(٢٤) Hanotaux : Op. Cit., P. 19.

ومن الأسماء التي ورد ذكرها ايضا ابراهيم بك (٢٠ يناير عام ١٧١٠ - ٩ سبتمبر ١٧١٠ م) الموافق ١٩ ذى القعدة عام ١١٢١ هـ - ١٥ رجب ١١٢٢ هـ واكد القنصل الفرنسي بأن ابراهيم باشا كان يعمل فى البحرية وهو قائد بحرى (٢٥) « وقد ذكر أحمد شلبى ان ابراهيم باشا قبودان وفد الى مصر فى زمن فتنة افرنج أحمد » التى سيرد ذكرها (٢٦) .

أما على باشا الحكيم فكانت مدة ولايته ١١٥٣ - ١١٥٤ هـ (١٧٤٠ - ١٧٤١ م) وقد اشاد القنصل الفرنسي به فوصفه بالعدل والادارة الحازمة كما انه كان من أهم المفاوضين فى معاهدة بلجراد (٢٧) وبالاطلاع على ما كتبه أحمد الدمرداشي نجد انه أورد بالفعل أمثلة على عدالة على باشا فكتب انه « اهتم بمعاقبة الباعة والتشدد فى الموازين » كما ذكر حديثا له فى احدى جلسات انعقاد الديوان ينم عن رغبته فى تحقيق العدل « أنا ما أتيت الا الى خلاص المال نقد فى الديوان ، ومال صرة الحرمين ، والخزينة العامرة ثانى يوم فى توت ، واصرف الجوامك الشهرية ثالث يوم فى الملوك ، والغلال كذلك تدخل الشون العامر ، وارسل غلال الحرمين ، ومن له شيء يأخذه من الشون » (٢٨) .

كذلك اثنى القنصل الفرنسي ليرنكور على احمد باشا الذى تولى من (١٧٤٨ - ١٧٤٩ م) الموافق ١١٦٢ - ١١٦٣ هـ فكتب يصفه « بالأدب الشديد حتى انه فى أخلاقه يماثل أخلاق النبلاء مهتم بالعلوم الرياضية » (٢٩) .

---

(٢٥) Ibid. P. 17.

(٢٦) انظر أحمد الدمرداشى : المرجع السابق ص ٧٩ - ص ٨٣ .

(٢٧) Hanotaux : Op. Cit., P. 17.

(٢٨) أحمد الدمرداشى : المرجع السابق ص ٢٢٥ .

(٢٩) Hanotaux : Op. Cit., P. 18.

اما مؤرخنا العظيم الجبرتى (٣٠) فقد اطلعت على ما ذكره عن أحمد باشا فوجدت تقريبا وصفا يماثل وصف القنصل الفرنسى فقد كتب بأنه يميل الى الرياضيات ، درس مع الشيخ حسن الجبرتى يقضى أوقات فراغه فى عمل المزاول التى زود بها الجامع الأزهر (٣١) .

وهكذا أمدنا القناصل الفرنسيون بأسماء عدد من باشوات مصر فى النصف الأول من القرن الثامن عشر ، أوردنا بعضا منها والتى يتضح لنا اختلاف اهتمامات وأعمال أصحابها فنجد ان من بينها السياسى مثل رامى محمد باشا ومنها القائد البحرى مثل ابراهيم باشا قبودان والدبلوماسى مثل على باشا وغيرهم .

وبمقارنة ما كتبه هؤلاء القناصل مع ما كتبه المؤرخون المعاصرون وجدنا صدقا كبيرا فى كتابات هؤلاء القناصل خاصة تجاه الحكام الذين كانوا على صلة طيبة معهم . وكان من الطبيعى أن يجىء وصف القناصل عن الباشوات وحديثهم عن علومهم واهتماماتهم أكثر مما كتبه الرحالة الذين زاروا مصر خلال هذه الفترة وذلك بحكم عمل القناصل واحتكاكهم وقربهم من السلطات الحاكمة فى مصر وبقائهم فى مصر عدة سنوات فمعرفتهم بالباشوات كانت أوثق لأنهم كانوا الأكثر قربا كما اننا نلاحظ أن الحديث عن الباشوات اقتصر على النصف الأول فقط من القرن الثامن عشر لأنه كما هو معروف ان النصف الثانى من هذا القرن شهد نمو قوة المماليك وظهور شخصيات قوية منهم سيطرت وهيمنت على الحياة السياسية فى مصر .

---

(٣٠) أثنى الجبرتى على العديد من باشوات مصر مثل عبد الله باشا ١٧٢٩ ـ ١٧٣١ م وذكر انه ملما بالقرآن والفلسفة وكتب التوحيد .

(٣١) جلال يحيى : المرجع السابق ص ١٣١ .

يعتبر المماليك القوة السياسية الثانية التى تحدث عنهـا الرحالة الفرنسيون فهم « حكام مصر الحقيقيين » على حد قول البارون دى توت (٣٢) وقد وكل الى البكوات المـاليك مهمـة ادارة الولايات الخمس الكبرى فى مصر وهى جرجا ـ الغربية ـ المنوفية ـ الشرقية ـ البحيرة (٣٣) كذلك وكل اليهم ادارة وحكم اقاليم مصر فذكر جرانجيه « ان مصر قسمت الى اربع وعشرين سنجقية يحـكم كل منهـا سنجق أو بك (٣٤) . وكانت مهمـة البكوات الدفـاع عن السناجق التى يتولون ادارتهـا (٣٥) وقد شبههم أوليفيه بأنهم يشكلون « البوليس الداخلى لمصر » كمـا أكد فورمون أن من أهم مهامهم « الدفاع عن سناجقهم ضـد هجمات العرب والبدو (٣٦) اى ان مهمتهم واضحة وهى المحافظة على الأمن الداخلى » على حد قول فولنى (٣٧) .

ولا تقتصر مهمة البكوات على الدفاع عن سناجقهم فحسب وانما « عليهم جمع الضرائب » (٣٨) وارسال كمية من الحبوب الى الباشـا خاصـة القمح والشـعير (٣٩) كذلك الاشراف على الجسور وتطهير الترع والاهتمـام برى الأراضى وذكر أوليفيـه ان بك البحيرة كان يتولى الاشراف على القناة التى تمد الاسكندرية بمياه النيل وانه كان يضع عليها حراسا لمنع العرب من استخدامها

(٣٢) De tott : Op. Cit., P. 12.

(٣٣) فولنى : المرجع السابق ص ٧٥ .

(٣٤) Granger : Op. Cit., P. 24.

(٣٥) Olivier : Op. Cit., P. 184.

(٣٦) Fourmont : Op. Cit., P. 74.

(٣٧) فولنى : المرجع السابق ص ٧٥ .

(٣٨) Olivier : Op. Cit., P. 184.

(٣٩) Fourmont : Op. Cit., P. 77.

حتى تمتلىء صهاريج مدينة الاسكندرية بالمياه وذكر أوليفيه أنه فى مقابل هذه المهمة كان يحصل على راتب قدره ٢٣٫٧٥ قرشا(٤٠).

وجدير بالذكر أن الرحالة الفرنسيين اجمعوا على وصف البكوات المماليك « بالطغيان » فما من احد منهم زار مصر فى القرن الثامن عشر الا واضفى هذه الصفة عليهم فكتب سونينى عنهم « ان مصر يحكمها أربعة وعشرون طاغية يتحكمون فى مقدرات مصر « ولا يعملون لصالحها ولا يهتمون الا بتنمية ثرواتهم » « وهؤلاء الطغاة يحكمون بلا قوانين ، لقد قضوا على آمال وطموح الشعب المصرى فالسلطة كلها فى أيديهم » (٤١) .

والحقيقة ان الصاق صفات الطغيان والقسوة والظلم بالمماليك وظهورهم بهذا المظهر السيىء ترجع الى الفترة التى امتدت للنصف الثانى من القرن الثامن عشر ، ولكن هذا لا يمنع من وجود بكوات اتصفوا بصفات حميدة وحسنت سيرتهم وقد زودنا الجبرتى بأسماء العديد منهم فمنهم من اتصف بالعطف (٤٢) والبر (٤٣) والأمانة (٤٤) والصرامة (٤٥) والمروءة (٤٦) والعلم (٤٧) الخ .

---

(٤٠) Olivier : Op. Cit., P. 60.

(٤١) Sonnini : Op. Cit., + 2 P. 315.

(٤٢) مثل ابراهيم بك ابو شنب .

(٤٣) حسن كتخدا .

(٤٤) عثمان بك ذو الفقار انشأ فى بيته دواوين لاقامة العدل وانصاف المظلوم .

(٤٥) على أغا الذى تشدد مع المطففين .

(٤٦) ابن أيوظ .

(٤٧) على بك الدفتردار الذى كان يجمع العلماء فى بيته للمناظرة ودراسة الفقه وعلوم اللغة .

وقد عمل المماليك كشافا ومنهم من ارتقى بعد ذلك الى بك والكشافون يعاونون البكوات فى الادارة « وتعتبر وظيفة الكاشف من أهم الوظائف » على حد قول لوكا (٤٨) . فقد كان لهم نفوذ كبير فى البلاد وقد ذكر المترجم الفرنسى ديجون فى عام ١٧٧٨ م « انه كان لبعضهم نفوذ أكثر من البكوات » ومن الطريف ان سيكار وصف أحد كشافى مصر العليا عام ١٧١٤ م « بأنه ادميرال يتجول وسط النيل بمركبه ويسير بصحبته عشرة مراكب وتعزف الموسيقى له طوال الوقت » (٤٩) .

وقد عمل بعض الكشافين فى القاهرة خاصة فى حلوان ، وكان على الكشاف البقاء فى القاهرة خلال شهرى أغسطس ويناير ، كما عمل البعض منهم مندوبين عن البكوات ففى عام ١٧٦٣ م أرسل ابراهيم بك كاشفا الى ماجالون للتفاوض مع الحكومة الفرنسية على بعض الأمور (٥٠) .

أما شيخ البلد فقد عاون البكوات والكشافين فى الادارة (٥١) وقد وصفه فولنى بأنه حاكم مدنى دون سلطة عسكرية (٥٢) — وقد فند أوليفيه المهام التى عمل بها المماليك جملة واحدة منهم « بكوات السناجق — حكام المديريات — كبار الموظفين — كخيا الوالى — دفتر دار — أمير الحج — الخازندار — قبودنات ثغور دمياط ، السويس ، الاسكندرية — بكوات الولايات الخمس الهامة (٥٣) .

---

(٤٨) Lucas : Op. Cit., + 3 P. 151.

(٤٩) Hanotaux : Op. Cit., P. 62.

(٥٠) Ibid, P. 62.

(٥١) De tott : Op. Cit., P. 7.

(٥٢) فولنى : المرجع السابق ص ٧٥ .

(٥٣) Olivier : Op. Cit., P. 184.

أما عن أعداد المماليك فقد ذكر فولني ان « اعدادهم تضاعفت فى آواخر القرن الثامن عشر وقدر عددهم بثمانية آلاف رجل بين بكوات وكشافين ومعتقين واعظم البيوتات ابراهيم بك الذى يتألف من ستمائة مملوك ثم مراد بك وله أربعمائة وهناك نفر من المماليك ينحدرون من بيوت منقرضة وهم على استعداد للانضمام لمن يزيدهم عطاء ويوجد منهم السراجون من خدم الجياد ينقلون أوامر البكوات وعددهم عشرة آلاف فارس (٥٤) .

وقد أفاض الرحالة الفرنسيون فى الحديث عن أصول المماليك وطريقة جلبهم من القوقاز وغيرها من المناطق الأوروبية وأفاضوا فى الحديث عن علاقة المملوك بسيده ومدى ارتباطه به ؛ وأعجبوا اعجابا شديدا بملابسهم وأسلحتهم وتدريباتهم المختلفة حتى ان سافارى كتب « لو أن المماليك تم تدريبهم على النمط الأوروبى بواسطة ضباطنا الفرنسيين لأصبحوا أشجع المقاتلين من بين امم العالم » . ولكنهم « يقاتلون دون خطة محددة او مدفعية تحميهم » (٥٥) .

عاش المماليك فى مصر حياة مترفة فذكر لوكا انهم « امتلكوا افخم وأجمل المنازل فى القاهرة وسكنوا فى الأحياء الراقية مثل السيدة زينب وبركة الفيل والأزبكية منازلهم تحيط بها الحدائق مثل منزل مصطفى الكاشف وابراهيم السنارى لديهم أجمل وافخم اصطبلات الخيل تسع من أربعين الى خمسين حصانا (٥٦) . وهم يتمتعون بالثراء يتملكون الأراضى وقد ذكر القنصل الفرنسى لى مير ان المماليك اعتادوا شراء العديد من

---

(٥٤) فولنى : المرجع السابق ص ١١٠ .

(٥٥) Savary : Op. Cit., + 2 P. 196.

(٥٦) Lucas : Op. Cit., + 1 P. 82.

الأراضي وان ابراهيم بك اشترى مائتى قرية وأصبح سيدا على مصر العليا وامتلك اسماعيل بك خمسا وأربعين قرية تدر عليه مليون قرش كل عام (٥٧) .

ورغم ثراء المماليك والحياة الراغدة التى كانوا يحيونها « الا انهم كانوا لا يفكرون فى مصلحة مصر فكل ما يتطلعون اليه هو تنمية ثرواتهم وان أصغر ضابط فيهم يمكن أن يصبح طاغية وكل ما يفعلونه هو القتال فيما بينهم ، انهم طغاة مثل الحيوانات المتوحشة يتقاتلون على الفريسة الا وهى الشعب المصرى الذى لم يعرف الراحة أبدا ولم يستمتع بخيرات بلاده » على حد قول أوليفيه (٥٨) .

(٥٧) Hanotaux : Op. Cit., P. 72.

(٥٨) Olivier : Op. Cit., P. 178.

أما القوة الثالثة التى هيمنت على البلاد وكان لها دورها الفعال خاصـة فى النصف الأول من القرن الثامن عشر فهى قوة الأوجاقات العسكرية التى اصبحت تدور فى فلك البيوت المملوكية وقد بلغ عدد الأوجاقات فى مصر سبع أوجاقات ونظم وضعها كما ذكر سافارى وفقـا لقانون نامة الصـادر فى عـام ١٥٢٥ م (٩٣١ هـ) (٥٩) . وتميز أوجاق الانكشـارية عن باقى الأوجاقات بتزعم قائدها أغـا الانكشارية القوات العسكرية فى مصر فكانت له الكلمة العليا فى البلاد وقد ذكر ميليه « ان السلطة كلها فى يد الانكشارية لا يستطيع الباشا تعيين قائد لهم دون أخذ موافقتهم » وهم أقوى الفرق ، ينتخبون قائـدهم ، ويحضرون الديوان ، يتولون حراسة القنصليات الأجنبية ومنهم من يتولى حراسـة القلعة يسمون أوجاق المستحفظان « وقد اهتموا بجمع الأموال من أثرياء القاهرة واشتروا بها قرى بأكملها كما انهم كانوا يجبرون التجار الأجانب على دفع مبالغ طائلة لهم . وكان للانكشاريـة نفوذ كبير على التجار الفرنسيين فتعددت الشكاوى منهم وقـد كتب القنصل الفرنسى ميليه بالفعل الى غرفة تجارة مارسيليا يشكو من قوتهم وقسوتهم مع التجار الفرنسيين وعبر عن ذلك بقوله « لا أحد يجهل نفوذهم فى هـذا البلد (٦٠) . ولكن رغم

(٥٩) Savary : Op. Cit., + 2 P. 196.

(٦٠) Maillet : Op. Cit., P. 16.

تعدد الشكاوى من الفرنسيين من المبالغ التى كانوا يضطرون لدفعها للانكشارية الا انهم كانوا يلجأون اليهم لحمايتهم خاصة ابان فترات الاضطرابات والفتن التى تسود القاهرة ، وذكر القنصل الفرنسي بيلرون عام ١٧١١ م « انه اضطر الى طلب الحماية من الانكشارية أثناء فتنة افرنج أحمد خوفا على حياة وتجارة الفرنسيين » وأكد هذه الحقيقة القنصل بينون فكتب عام ١٧٣٠ م « ان مصالحنا مع الانكشارية فلهم نفوذ يتميزون .. عن باقى الأوجاقات » (٦١) .

واذا كان النصف الأول من القرن الثامن عشر قد شهد تصاعد نفوذ الانكشارية ووكل الى اغا المستحفظات العمل مع المحتسب للاشراف على المهن المختلفة وتفقد الأسعار الا انه فى أواخر القرن الثامن عشر ضعفت سلطتهم بسبب اشتغالهم بالتجارة « حتى أصبحوا تجارا أثرياء وأصحاب حرف » فكتب فولنى « أصبح الانكشارية اليوم خليطا من الصناعيين والمرتزقة المتشردين الذين يرتضون حراسة أى باب لقاء أجر يومى يتقاضونه ويرتجفون أمام المماليك (٦٢) ، وقد قدر جرانجيه أعدادهم بنحو اثنى عشر الفا (٦٣) .

أوجاق العزبان : مشاة مسلحون بالبنادق يتولون اداء خدمات التشريف للباشا وحراسة القلعة بالاشتراك مع الانكشارية وكان سردار العزبان يشرف فى الاسكندرية على الجلود الواردة الى مصر (٦٤) وقد قدر جرانجيه أعدادهم بنحو

---

(٦١) Raymond, André : Artisans et Commerçants au Caire au XVIII Siècle Damas 1974. P. 606.

(٦٢) فولنى : المرجع السابق ص ١١٠ .

(٦٣) Granger : Op. Cit., P. 325.

(٦٤) Olivier : Op. Cit., P. 19.

شمانية آلاف (٦٥) وقد لمعت عدة شخصيات منهم ، ذكر منها ميليه الشوربجى والصابونجى اللذين تمتعا بالهيبة والنفوذ فى البلاد (٦٦) ويعتبر الكخيا هو رئيس الحزب وذكر أوليفيه « انه كان له نفوذ كبير في القاهرة ولابد لأى أوروبى عند زيارته للقاهرة ان يحصل على أذن من كخيا الحزب » (٦٧) .

أوجاق المتفرقة : تكون من أفراد جلبوا الاستانة الى جانب نفر من المماليك دخلوا فى خدمة الدولة وهم الحرس الخاص للباشا وحراس القلاع والثغور خصصوا لحماية قلاع وثغور مصر البحرية فى الاسكندرية ـ رشيد ـ دمياط ـ السويس ومن الطريف ان ميليه كتب عنهم « انهم لا قيمة لهم » (٦٨) أما فورمون مدحهم قائلا « انهم من أنبل الفرق يتولون حراسة قلاع مصر كلها فيما عدا القلعة وتقدر أعدادهم بنحو ألفين » (٦٩) وعلى راسهم اغا يعتبر زعيمهم (٧٠) .

أوجاق الجاويشية : يتكون من بقايا المماليك الذين أعلنوا ولاءهم للدولة العثمانيـة وعملوا فرسانا مهنتهم خدمة الديوان وتنفيذ أوامر الباشا وهم يتجولون على ظهور الخيل لتفقد أحوال البلاد (٧١) .

اما السباهية : فمعناها راكبو الخيول وتشمل ثلاث

---

(٦٥) Granger : Op. Cit., P, 225.

(٦٦) Maillet : Op. Cit., P. 10.

(٦٧) Olivier : Op. Cit. P. 18.

(٦٨) Hanotaux : Op. Cit. P. 39.

(٦٩) Fourmont : Op. Cit., P. 80.

(٧٠) Granger : Op. Cit., P. 225.

(٧١) Ibid, P. 226.

أوجاقات وهم . أوجاق الجوميلية الذين يحافظون على الأمن ، وأوجاق التفنكجية وهم فرسان يحملون البنادق ويتولون الحراسة فى الريف ، وأوجاق الجراكسة وهم أصلا من المماليك الجراكسة وهذه الفرق الثلاث متشابهة وزعت للعمل فى خدمة البكوات وحكام الأقاليم (٧٢) .

وكل أوجاق له قائد وكخيا ، وجميع الأوجاقات من الفرسان فيما عدا العزب والانكشارية فكانا من المشاة ولهذه الأوجاقات السبع خزانات مشتركة ويملكون العقارات والأراضى والقرى وكانوا يحتقرون البكوات (٧٣) وهم يمثلون جزءا أساسيا من النظام الحاكم فى مصر (٧٤) .

وقد قدر جرانجيه عدد فرسان الأوجاقات الخمسة بنحو عشرين ألفا أى مجموع أفراد أوجاقات السباهية قدر بنحو أربعين ألفا « ١٢ ألفا من الانكشارية وثمانية آلاف من العزب وعشرون ألفا من الفرسان » (٧٥) وتحصل هذه الفرق على راتبها من القلعة كل ثلاثة أشهر ولم يعد للباشا سلطة عليها (٧٦) . وقد أثارت هذه الفرق الاضطرابات فى البلاد بسبب المنازعات فيما بينها حتى أن الجبرتى ذكر ان أى حادث فى مصر لا يكتمل بدون تدخل الأوجاق (٧٧) .

---

(٧٢) Ibid, P. 226.

(٧٣) فولنى : المرجع السابق ص ٧٨ .

(٧٤) Maillet : Op. Cit., P. 16.

(٧٥) Granger : Op. Cit., P, 225.

(٧٦) Fourmont : Op. Cit., P. 82.

(٧٧) Hanotaux : Op. Cit., P. 41.

أحوال مصر السياسية فى النصف الأول من القرن الثامن عشر

عانت مصر فى النصف الأول من القرن الثامن عشر من تأزم العلاقات بين أوجاق الانكشارية وباقى الأوجاقات العسكرية الستة كما شهدت نزاعا طاحنا بين رؤســاء البيوتات العسكرية وبين الباشا الحاكم وأصبحت مصر مرتعا للحروب الأهلية والمنازعات بين القرى المختلفة (٧٨) وقد عبر القناصل الفرنسيون عن أوضاع مصر السياســية خلال هذه الفترة أصدق تعبير وبمقارنة ما دون مع ما كتبه مؤرخو مصر المعاصرون للأحداث فى تلك الفترة خاصة كل من أحمد الدمرداشي وأحمد شلبى (٧٩) وجدنا تطابقا كبيرا .

فى النصف الأول من القرن الثــامن عشر وبالتحديد حتى

---

(٧٨) عبد الوهاب بكر : المرجع السابق ص ٢٦ .

(٧٩) احمد شلبى عبد الغنى : أوضح الاشارات فيمن تولى مصر ، القاهرة من الوزراء والباشات الملقب بالتاريخ العينى تقديم وتحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن ، القاهرة ١٩٧٨ م .

سيطرة على بك الكبير على الحكم فى مصر انتشرت الاضطرابات وتكرر عزل الباشوات وتأزمت العلاقات بين الأوجاقات العسكرية السبعة خاصة بين الانكشارية والعزب ولنقرأ سويا ما كتبه القنصل الفرنسي ميليه فى ٢٩ أكتوبر عام ١٦٩٧ م الى الوزير الفرنسي بونشرتران « لقد تزايد نفوذ الانكشارية بصورة واضحة وهم يحاولون الاستيلاء على ايرادات الجمارك وقد طلب منهم اسماعيل باشا تسليم الأموال لخزانة الدولة فرفضوا فاشتعلت النار بين الطرفين واستمر النزاع ثلاثة أشهر أسفر عن عزل الباشا (٨٠) .

ولنقرأ ما سجله أحمد الدمرداشي بشأن عزل اسماعيل باشا من قبل الانكشارية « أرسلوا للباشا من كل بلوك اثنين اختيارية ، يقول له ان العساكر قامت على اختيارتها ، والاختيارية قامت على أغواتها ، والأغوات قامت على السناجق ، ولم يرضوك حاكم مصر » (٨١) .

ويستمر ميليه مؤكدا فى كتاباته تصاعد ونمو قوة الانكشارية فكتب فى ١٧٠٣ م « لقد تزايدت قوة الانكشارية ، فلم يعد الباشا قادرا على تعيين أى شخص دون أخذ موافقتهم لقد أصبحت السلطة فى أيديهم » (٨٢) ، وبزغ نجم على أغا فى ذلك الوقت ومثل أكبر قوة للانكشارية فعمل التجار الفرنسيون على التقرب والتودد اليه وأهداه ميليه سترة من فرو الثعلب ولكن يبدو أن على أغا كان يريد المزيد فطلب من القنصل تقديم هدية مالية له حتى يسمح للتجار الفرنسيين بالاتجار فى البن فرفض التجار

---

(٨٠) Hanotaux : Op. Cit., P. 91.

(٨١) الأمير أحمد الدمرداشي : المرجع السابق ص ٣٧ .

(٨٢) Clement : Op. Cit., P. 193.

ولكن على بك عمل على التنكيل بهم والقى القبض على التاجر الفرنسي لازار بلان وكان شقيق القنصل الفرنسي فى حلب لأنه كان مرتديا غطاء رأس لونه أبيض (٨٣) وأمر بضربه بالعصي والسياط فتدخل ميليه طالبا من الباشا عزل على أغا لأنه « رجل لا خير فيه » ولكن كان من الصعب تنفيذ ذلك خاصة وان الانكشارية « تمسكوا به » (٨٤) .

وفى عام ١٧٠٣ م قتل على أغا فبزغ نجم جديد هو اسماعيل بك الذى جذب الانتباه فى البلاد ووصفه ميليه « انه حقا ملك مصر » (٨٥) .

وفى عام ١٧٠٩ م نشب صراع بين الانكشارية والجاويشية سرعان ما استد الى باقى الأوجاقات فاندلعت الحرب الأهلية فكتب بليرون « أن الانكشارية يريدون الاستيلاء على القوة والنفوذ فى مصر » (٨٦) كذلك تدهورت الأحوال عندما طالب أصحاب النفوذ فى البلاد من الباشا منع بيع البن للفرنسيين واحتج الأوجاق بانهم لا يحققون اية أرباح من البن الذى يباع للتجار الفرنسيين فاضطر الباشا لاطلاع القنصل الفرنسي بيليرون على حقيقة الموقف (٨٧) . وقد سجل الجبرتي هذه الحادثة فى حوادث ذى الحجة عام ١١٢٠ هـ الموافق ١٧٠٩ م « ثم ان أهل الأوجاقات الستة اجتمعوا واتفقوا على ابطال المظالم المتجددة بمصر

---

(٨٣) كان يحرم على الأوروبيين واهل الذمة ارتداء اللونين الأخضر والأبيض .

(٨٤) Clement : Op. Cit., P. 193.

(٨٥) Hanotaux : Op. Cit., P. 95.

(٨٦) Raymond : Op. Cit., P. 754.

(٨٧) Ibid. P. 754.

وضواحيها وكتبوا ذلك فى قائمة واتفقوا أيضـا ان من كان له وظيفة بدار الضرب والأنباء والتعريض بالبحرين !و المذبح لايكون له جامكية فىالديوان ولا ينتسب لوجاقمن الوجاقات وان لايحتمي أحد من أهل الأسواق فى الوجاقات وان ينظر المحتسب فى أمورهم ويحرر موازينهم على العادة وان يركب معه نائب من باب القاضي مباشرا معه وان لا يتعرض أحد للمراكب التى ببحر النيل التى تحمل غلال الأبقار وان يحمل الغلال المذكور جميع المراكب التى ببحر النيل ولا تختص مركب منها بباب من ابواب الوجاقات وان ما يدخل مصر من بلاد الأمناء باسم الأكل لا يؤخذ عليه عشر وان لا يباع شيء من قسم الحيوانات والقهوة الى جنس الافرنج »(٨٨).

أدرك الفرنسيون فى مصر مدى قوة ونفوذ الانكشارية فسعوا لارضائهم والتودد اليهم فعندما عين افرنج أحمد زعيما للانكشارية أسرع القنصل الفرنسى بيليرون بتقديم التهنئة والهدايا له (٨٩) . ولكن الفرنسيين لم يتمتعوا طويلا بصداقة افرنج أحمد اذ نشبت الحرب الأهلية فى البلاد واستمرت لعدة سنوات بين الانكشارية والعزب كان النصر فيها من نصيب العزب بقيادة ابراهيم بك رغم ان افرنج أحمد انحاز اليه الباشا وبعض بكوات الصعيد وامدوه بالأسلحة وارسلوا البدو لمساعدته وسجل بيليرون قنصل فرنسا فى القاهرة خلال هذه الفترة أنباء الفتنة وكتب الى حكومته يشكو سوء حالة الجالية الفرنسية « لقد عانينا من الحرب الأهلية وتعرض الحى للهجوم عدة مرات » (٩٠) .

---

(٨٨) عبد العزيز الشناوى ، جلال يحيى : وثائق ونصوص التاريخ الحديث والمعاصر ، القاهرة ١٩٦٩ م ص ٤٤٩ ، ص ٤٥٠ .

(٨٩) Hanotaux : Op. Cit., P. 97.

(٩٠) Ibid. P. 96.

وجدير بالذكر انه اثناء اندلاع هذه الحرب اتهم الفرنسيين بمساعدة الانكشارية واعتقد العزب انهم يمدون الانكشارية بالأسلحة فقد حدث ان أطلق الانكشارية نيران المدافع من القلعة على العزب فقتلوا ثلاثا منهم واعتقد العزب ان الفرنسيين امدوا الانكشارية بالأسلحة فهاجموا الحى الفرنسى واضطر الفرنسيون لاغلاق أبواب الحى وتحصنوا فيه اما العزب فقد نجحوا فى حصار مسجد السلطان حسن وطلبوا من الفرنسيين امدادهم بالبارود فحاول بيليرون اقناعهم بأنهم لا يملكون أية ذخائر « وانهم يقفون على الحياد فى الصراع الدائر بينهم وبين الانكشارية » ولكنه فى نهاية الأمر اضطر الى دفع مبلغ من المال وحوالى ٤٥٠ سكينا الى ابراهيم بك زعيم العزب وطالبه فى مقابل ذلك بالتدخل لحماية الفرنسيين وتأمين ممتلكاتهم » (٩١) .

وسجل احمد شلبى هذه الحادثة فكتب يصف التحصينات التى اتخذها العزب فى مسجد السلطان حسن وتترسوا بمتاريس من جهة سوق السلاح ووضعوا المتاريس فى باب الجامع والشبابيك التى للجامع « وحصل الخوف الشديد لأهل مصر ؛ لكونهم لم يروا شيئا من هذا قبل الآن ، ولا سمعوا به ، وقفلت أسواقها ، وحوانيتها ، وخاناتها ، ورحل غالب السكان الذين يسكنون بجوار القلعة ، وبقربها الى داخل القاهرة » (٩٢) .

وقد انتهت تلك الفتنة بمقتل افرنج احمد عام ١٧١١ م كما ذكر بليرون « بعد ان تخلى الانكشارية عنه فذبحه أعداؤه على سلالم القلعة وعزلوا خليل باشا لمناصرته » (٩٣) .

---

(٩١) Clement : Op. Cit., P. 194.

(٩٢) احمد شلبى : المرجع السابق ص ٢٣٣ ؛ ص ٢٣٤ .

(٩٣) Hanotaux : Op. Cit., P. 96.

ورغم انتهاء فتنة افرنج احمد الا أن الهدوء لم يخيم على العاصمة فاستمرت الاضطرابات واستاء القنصل الفرنسي لى مير من ذلك فكتب الى حكومته فى ٢٦ ديسمبر ١٧١١ م « من الصعب على المرء السير فى الطرقات خوفا من أن يفقد رأسه » لقد فقد الباشا نفوذه ولم يعد له سلطة فى البلاد » (٩٤) .

. تم خيم الهدوء على القاهرة لفترة قصيرة استمرت حوالى أربع سنوات ولكن سرعان ما اندلعت الفتنة من جديد عام ١٧١٥م بين القاسمية والفقارية. اى بين قاسم بك الدفتردار ومنافسه ذو الفقار بك وحدثت مذابح كثيرة فى البلاد ولكن الفرنسيين كعادتهم وكما لاحظنا لجأوا الى الاحتماء بشخصية قوية فى البلاد وهو ابراهيم بك وكتب لى مير فى ٢٤ سبتمبر ١٧١٥ م « ما زالت الفوضى تعم البلاد ولكن ابراهيم بك ما زالت له السيادة انه صديق للفرنسيين وهو حامينا والمدافع عنا » وقد أرسل ابراهيم بك ملك فرنسا وأرسل له جوادين هدية فرد عليه الملك (٩٥) وأرسل بدوره عدة لوحات من الجوبلان (٩٦) .

وعندما زار الرحالة بول لوكا مصر حصل من ابراهيم بك على تصريح بالتجول فى البلاد مع توفير الحماية والأمان له وقد وصفه بول لوكا « انه امير البلاد ، واكثر الأمراء قوة ، لديه اجمل القصور فى القاهرة ويبدو ان لوكا أراد تملق ابراهيم بك ليسمح له بحرية التجول فى مصر فقال له « لقد رجوت القنصل لى مير ليسمح لى بمقابلتك فأنال شرف حمايتك » وبالفعل حصل لوكا

---

(٩٤) Ibid. P. 98.

(٩٥) كان لويس الخامس عشر صغيرا فى السن فى ذلك الوقت، فرد الوصي على الملك على هدايا ابراهيم بك .

(٩٦) Clement : Op. Cit., P. 195.

على تصريح بحرية التجول فى مصر العليا وأكد لوكا فى كتابه ان « ابراهيم كان صديقا للفرنسيين يحتسى القهوة معهم » وقد أكرم ابراهيم لوكا فاستدعى ضابطا لمصاحبته فى رحلاته كما عمل على توفير كاتب له ليعاونه « فى تدوين الملاحظات » وزوده بخطابات توصية الى البكوات والكشاف وشيوخ القبائل لاكرام لوكا الذى كتب عنه « ان النفوذ فى مصر كلها لابراهيم بك لم يعد للباشا اية سلطة ولا نفوذ » (٩٧) .

بعد وفاة ابراهيم بك عام ١٧١٩ م ظهر نفوذ اسماعيل بن ايواظ ويبدو انه كان وسيما الى حد كبير لأن القنصل الفرنسى لى مير ذكر أن « النساء اطلقن عليه قشطة بك » (٩٨) .

وقد ذكر الجبرتى وصفا شبيها بذلك « ان اسماعيل بن ايواظ لفرط جماله سمته النساء قشطة بك » (٩٩) .

وفى عام ١٧١٩ م اندلعت الحرب الأهلية من جديد بين اسماعيل بك وجركس محمد استمرت احد عشر يوما كتب له مير فى ٢٧ يونيو ١٧١٩ م عن خسائر هذه الحرب « قتل فى هذه الحرب ألف رجل » وتوقفت التجارة أكثر من اسبوعين واغلقت الحوانيت ونهبت المتاجر فى الشوارع « ولكن اسماعيل بك نجح فى الحاق الهزيمة بجركس وطلب منه جنوده قتله ولكنه رفض واكتفى بنفى جركس الى قبرص ولكن الأخير نجح فى العودة الى القاهرة فكتب لى مير فى ٢٠ سبتمبر ١٧١٩ م « رشا جركس

---

(٩٧) Lucas : Op. Cit., + 1 P. 83.

(٩٨) Hanotaux : Op. Cit., P. 102.

(٩٩) محمود الشرقاوى : دراسات فى تاريخ الجبرتى « مصر فى القرن الثامن عشر » ، القاهرة ، ١٩٥٧ ، جـ ٢ ، ص ٥٩ .

السلطات العثمانية ضد اسماعيل واتصل برجب باشا من مصر الذى عينه أميرا للحج منتهزا فرصــة سفر اسماعيل « وقد حاول جركس مهاجمة اسماعيل ولكن البدو حذروا الأخير الذى دخل القاهرة متنكرا فى زى امرأة وجمع البكوات حوله وقاموا بعزل رجب باشا (١٠٠) .

وقد ذكر الجبرتى بأن « جركس تهيأ للحرب والقتال فتوكل وهزم وخرج هاربــا عن مصر ، فقبض عليه العربان وأحضروه اسيرا الى اسماعيل بك فاشاروا عليه بقتله فأبى » (١٠١) . ورغم عزل رجب باشا الا أن جركس محمد نجح فى تدبير مؤامرة ضد اسماعيل بك الذى ذبح على ســلالم القلعة كما ذكر لى مير (١٠٢) .

وقد شكى القنصل الفرنسى من سيطرة جركس على البلاد « لأنه فى عهده توقفت التجــارة ولم ترد البضــائع لمدة تسعة أشهر ، وكسدت الأسواق حتى ان التجار الفرنسيين عجزوا عن تصريف بالات الأقمشة فبقيت لا تجد من يشتريها وقــام جنوده بنهب المتاجر واقتحموا الحمامات حتى فى الساعات المخصصــة للنســاء ، واستولوا على ملابسهن وسبوا النساء والأطفــال فى الطرقات » (١٠٣) .

اما ما ذكره الجبرتى عن جركس فهو لا يختلف كثيرا عمــا ذكره القنصل الفرنسى « كان من اظلم خلق الله واتباعه كذلك

---

(١٠٠) Hanotaux : Op. Cit., P. 102.

(١٠١) عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والاخبــار ، بيروت ، جـ ١ ص ١٨٩ .

(١٠٢) Hanotaux : Op. Cit., P. 102.

(١٠٣) Clement : Op. Cit., P. 196.

وخصوصا سراجه المعروف بالصيفى وطائفته وكانت أيامه شر الأيام وحصل منهم من أنواع الفساد والافساد ما لا يمكن ضبطه » (١٠٤) .

وسرعان ما ناصب ذو الفقار بك جركس العداء فكون الأخير جيشا من المغاربة لمحاربته وكتب القنصل الفرنسي دكسبيلى Déxpilly عام ١٧٢٩ م لقد « عادت الحرب الأهلية من جديد ولكن جركس رغم انتصاره لم ينجح فى دخول القاهرة واعد له ذو الفقار جيشا عظيما فى دهشور واحاط به اعداؤه فنزل بفرسه الى النيل ولم يستطع ان يخلص فرسه ففرت الى جانبها وأحضر اثنان من الفلاحين جثمانه فقطع خصومه راسه وأرسلوها الى القاهرة فى عام ١٧٣٠ م (١٠٥) .

لم يهنأ الفرنسيون بعد مقتل جركس فقد فرض الباشا غرامة كبيرة عليهم بحجة ان جركس أعطى مبلغا كبيرا من المال للقنصل الفرنسى دكسبيلى وقام الباشا بسجن المترجم الفرنسى لاجبار الفرنسيين على الدفع واضطر القنصل الفرنسى الجديد بينون الى اغداق الهدايا على الباشا ولارضائه ونجح فى جمع مبلغ الغرامة من اسكالات مصر الثلاثة (١٠٦) .

تقاسم السلطة فى مصر فى الفترة ما بين عام ١٧٣٠ الى ١٧٣٦ م اربع قوى رئيسية كان لها النفوذ والسلطة فلمعت اسماء كل من عثمان كتخدا الانكشارية الى جانب محمد بك قطماشى وعلى بك ويوسف بك كخيا « تقاسم هؤلاء الأربعة

---

(١٠٤) الجبرتى : المرجع السابق ، جـ ١ ص ١٩٦ .

(١٠٥) Hanotaux : Op. Cit., P. 105.

(١٠٦) Clement : Op. Cit., P. 196.

السلطة فيما بينهم » كما ذكر أخيرا القنصل الفرنسي ولكن يبدو أن عثمان كخيا كان على علاقة طيبة مع التجـار الفرنسيين فذكر القنصل الفرنسي بينون عام ١٧٣١ « ان مصالحنا اليوم مع عثمان كتخدا الانكشارية » ولكن سرعان ما تم التخلص من هـذه القوى الأربع بواسطة مذبحة دبرها محمد بك الدفتردار (١٠٧) .

وفي الفترة ما بين ١٧٤٤ م وحتى ١٧٥٤ م سيطر ابراهيم كخيا الانكشارية على البـلاد وقد سجل القنصل الفرنسي ليرنكور النزاع بينه وبين منافسـه حسين بك والذي انتهى بفرار الأخير الى الوجـه القبـلي فأصبح ابراهيم بك على حد قول ليرنكور « سيدا على البلاد والحاكم المطلق في مصر »(١٠٨) وظل ابراهيم كخيا مهيمنا على الأمور في مصر وأكد هذه الحقيقة جوانفيل في ٢٣ مايو ١٧٥٢ م عندما كتب « ان ابراهيم بك هو الوحيد صاحب القوة والنفوذ وهو القـادر على احـداث التوازن بين القوى المتصارعة المختلفة » (١٠٩) . « لقد نجح ابراهيم في الحفـاظ على قوته لعدة سنوات ولم يعد للباشا الجديد رغم أخلاقه الرفيعة اية سلطة (١١٠) . ويبدو أن ابراهيم كخيا كان يخشى على نفسـه من الاغتيال كما هو متبع في ذلك الوقت فذكر جوانفيل « انه كان يسير يوميا في شـوارع القاهرة تحيط به الجنود والعساكر وقد حرص على عدم الاستقرار في مكان واحد فهو يتوجه يوميا الى جهة من جهـات القـاهرة فخصص يوما للتجول في بولاق ويوما للتجول في شـوارع القاهرة ويوما في مصر القديمـة ويوما لتفقد العزب فقد كان يخشى على نفسـه من الخيـانة او الموت

(١٠٧) Raymond : Op. Cit., P 713.
(١٠٨) Hanotaux : Op. Cit., P. 106.
(١٠٩) Ibid. P. 113.
(١١٠) Clement : Op. Cit., P. 197.

مسموما » (١١١) وقد توفى فى عام ١٧٥٤ م فى قصره بعد أن اتخذ العديد من الاحتياطات خوفا على نفسه من القتل فكان من الزعماء القلائل الذين ماتوا ميتة طبيعية » على حد قول ليرنكور (١١٢) .

وقد اهتم ابراهيم ببناء المنازل فى مختلف أحياء القاهرة وأيدت كتابات الجبرتى ما ذكره ليرنكور فكتب « ان منزله فى الأزبكية جنة ، يقتنى غزالة » (١١٣) . وكان على علاقة طيبة ، مع الفرنسيين فى بداية الأمر فأهدوه مرايا كبيرة وأقمشة من القطيفة وأقمشة متنوعة من ليون ولكن سرعان ما توترت العلاقة بينه وبين الفرنسيين عندما شكا اليهود من الفرنسيين لتوقفهم عن شراء السنا لأنه لم يعد مطلوبا فى مارسيليا فاستدعى ابراهيم بك القنصل الفرنسى وأجبره على شراء السنا من اليهود وحاول الفرنسيون الاعتراض لدى الباشا ولكنه « كان عاجزا يبدو حزينا كالسجين فى القلعة لا حول له » (١١٤) .

وهكذا ألقت كتابات القناصل الفرنسيين الضوء على الخلافات والصراعات المستمرة والحروب الأهلية بين القوى السياسية المختلفة فى مصر فى النصف الأول من القرن الثامن عشر .

---

(١١١) Hanotaux : Op. Cit., P. 114.

(١١٢) Clement : Op. Cit., P. 200.

(١١٣) الجبرتى : المرجع السابق جـ ١ .

(١١٤) Clement : Op. Cit., P. 200.

أحوال مصر السياسية فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر

فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر انفصلت مصر عن الدولة العثمانيــة فلم يعد يربطها بها ســوى الجزية الســنوية والسيادة الاسمية وبرز على الساحة عدد من آراء المماليك واستطاع اقواهم نفوذا تولى السلطة فى البــلاد وقد عبر الرحالة الفرنسيون عن ذلك الوضع السياسى المضطرب وانعدام ســلطة الباشا فى البلاد أصدق تعبير فاجمعوا فى كتاباتهم « بانهم لم يجدوا من يعتمــدون عليــه رســميا فى مصر » (١١٥) حتى ظهــر على بك الكبير (١١٦) الذى قدر له تولى زمام السلطة فى البلاد وقد القى

---

(١١٥) Clement : Op. Cit., P. 209.

(١١٦) عرف على بك بلوقبطان أو على بك القازدغلى ثم على بك الكبير بعد فتوحاته وغزواته ، انظر محمود الشرقاوى ص ٦٨ ، وقد تولى الصنجقية فى عــام ١٧٥٤ م باســم على بك مير اللوقــاز طاغلى ، انظــر جــلال يحيى ص ٢٣٤ .

سافاری الضــوء على نشأته . فذكر انه ولد فى الأناضول فى عام ١٧٢٨ م واسمه الحقيقى يوسف داود كان والده قسيسا يونانيا من عائلة معروفة اهتمت بالتعليم وقد سرقه اللصــوص أثناء تنزهه فى احدى الغابات مع أصدقائه وكان يبلغ الثالثة عشرة عندما بيع فى القاهرة لابراهيم بك الذى سماء عليا وألبسه ملابس المماليك بعد أن تم ختانه وعلمه العربية والتركية وعلل سافارى كراهية على بك للأتراك عندما تولى الحكم « لأنهم أجبروه على تغيير دينه وحرموه من أهله » ولكننا نعتقد أن هــذا التعليل غير صحيح لأن معظم المماليك عرف عنهم الولاء لأمرائهم وتمســكهم بالدين الاسلامى ثم ناقض سافارى نفسه فأكد « ان ابراهيم بك قربه اليه وأحسن معاملته فاتقن فنون الفروســية وغيرها من مراحل التعليم اللازمة لكل مملوك » حتى انه لم يعد يوجد مملوك واحد اشجع منه ولا أبرع منه فى ركوب الخيل ولا التصــويب بالأسلحة النارية وقد اعتز به ابراهيم بك فعينه سلحدار أغـا ثم خزندار ثم كاشف وهو فى سن الثانية والعشرين (١١٧) .

ويقص لنا سافارى بشاعريته المعروفة قصة التقاء على بك بوالده بعد ان ازداد نفوذه فى مصر فيذكر انه أمر طنطاوى المشرف على ارسال الخزنة الى الاستانة بالمرور على الأناضول واحضـار والده الى مصر ثم يصف استقبال على بك لأبيه « ركع أمامه وقبل أقدامه وبكى الوالد العجوز عند رؤية ابنه الذى أحسن اكرامه » فأسكنه فى قصره فى الأزبكية وعرفه بزوجته ومكث داود فى مصر سبعة أشهر استقبله خلالها كبار الشخصيات وعندما أراد العودة الى بلاده « أرسله على بك على ظهر سفينة محملة بالهدايا وابقى أخته فى مصر » (١١٨) .

---

(١١٧) Savary : Op. Cit., + 2 PP. 208 — 212.

(١١٨) Savary : Op. Cit., + 2 P. 221.

ثم يمضى سافارى فى وصف تصاعد نفوذ على بك خاصة بعد أن تولى الصنجقية فيذكر « انه كان على علاقة طيبة مع الباشا حتى انه وسطه للتوفيق بينه وبين المماليك المتنازعين فى القاهرة » (١١٩) . ثم بدا على بك فى التخلص من كبار الشخصيات حتى خلت له الساحة ؛ وقد سجل القنصل الفرنسى مارتان التنافس بينه وبين غيره من المماليك خاصة الأمير « رضوان بك الذى نجح فى القضاء على نفوذه » ولم تكن له نفس قوة وشعبية على بك » (١٢٠) وبالرجوع الى مصدرنا الجبرتى نجده بالفعل يصف رضوان بك الجلفى « انه كان يتجاهر بالمعاصى والراح ؛ والوجوه الملاح » فأخذ الناس فى تقليده حتى تبرمت النساء و « مخاليع أولاد البلد » (١٢١) .

واذا كان على بك قد نجح فى التخلص من رضوان بك الا ان القنصل جوانفيل اكد لنا وجود منافسين جدد اقوياء خاصة خلال عامى ١٧٥٦ — ١٧٥٧ م وهم « عثمان بك وعبد الرحمن كخيا وحسين بك الصابونجى وحسين بك كشكشى » ولكن « على بك كان أقواهم نفوذا » . « فضل عبد الرحمن بك فى عام ١٧٥٦ م الانسحاب من الميدان فمكث فى منزله ينعم بالثراء وسط حريمه » (١٢٢) .

ثم خدمت الظروف على بك بمقتل منافس آخر وهو حسين الصابونجى فى عام ١٧٥٧ م فذكر جوانفيل « ان القتلة انتهزوا فرصة وجود حسين الصابونجى شيخ البلد بمفرده فى

---

(١١٩) Ibid. P. 212.

(١٢٠) Hanotaux : Op. Cit., P. 123.

(١٢١) محمود الشرقاوى : المرجع السابق ص ٦٦ .

(١٢٢) Hanotaux : Op. Cit., P. 123.

منزله فدخلوا عليه وطعنوه بالخناجر وقيل أن أحد مدبري الجريمة هو حسين بك كشكش ولكن المستفيد الأول منهما هو على بك » (١٢٣) .

وهكذا إحتدم الصراع على السلطة فى مصر بينما على بك يراقب الموقف ونفوذه فى ازدياد وسجل نائب القنصل فى عام ١٧٥٨ م هذه الحقيقة « ان على بك هو القائد الأول فى مصر سلطاته مطلقة ولكنه مكروه بسبب ظلمه وهو يكره المسيحيين وهو عدونا لا يتوقف عن سب المترجمين الفرنسيين » (١٢٤) ، وكان على بك بالفعل يتدخل دوما فى شئون الفرنسيين فعندما أراد القنصل جوانفيل بناء باب الحي الفرنسى « امره على بك بنزعه وارسل قواته لتنفيذ ذلك » ويتولى القنصل الفرنسى داميرا الذى عمل على التقرب منه « فأغدق عليه الهدايا واهداه ساعة ولكن على بك طلب ساعتين بدلا من واحدة « فاضطر الفرنسيون الى اهدائه ساعة مزينة بالماس قيمتها ٥٢ سكين » وحرص الفرنسيون على اغداق الهدايا عليه كل عام لارضائه « وتجنب الغرامات التى يفرضها عليهم » (١٢٥) .

وفى عام ١٧٦٠ م نجح على بك فى الوصول الى مشيخة البلد بعد منازعات مع منافسيه وأكد فولنى انه كان شديد الطموح وصل الى مشيخة البلد بعد أن نفى عبد الرحمن بك وغيره من المنافسين ولكنه لم يهنأ بمنصبه الجديد على حد قول فولنى « اذ دخل فى صراع مع منافسيه الذين نجحوا فى نفيه الى غزة ولكنه لم يمكث فيها طويلا اذ اتجه الى الصعيد واقام عامين فى

---

(١٢٣) Ibid. P. 123.

(١٢٤) Clement : Op. Cit., P. 211.

(١٢٥) Ibid. P. 213.

جرجا حيث لحق به أنصاره » وقد نجح على بك فى دخول القاهرة عام ١٧٦٦ م « وفى ليلة واحدة قتل اربعة بكوات ونفى اربعة آخرين وأصبح رئيسا على الغالبية ودخل القاهرة من باب النصر حاملا رؤوس منافسيه على صوان من الفضة » (١٢٦) وقد أكد الجبرتى هذه الحقيقة فذكر انه قطع عشرة رؤوس من بينها رأس كشكش بك وامرائه الخمسة (١٢٧) . وفى عام ١٧٦٨ م جلس على بك فى الديوان ووزع السلطات على حكام الأقاليم وكتب داميرا الى حكومته « لقد أصبح على بك سيدا على مصر (١٢٨) وقد عاون على بك فى تثبيت نفوذه محمد بك أبو الذهب الذى زوجه من شقيقته واقام الاحتفالات فى القاهرة لمدة ثلاثة أيام احتفالا بهذا الزواج » وقد أفاض سافارى فى وصف مظاهر هذا الاحتفال (١٢٩) .

بعد أن استتب الأمر لعلى بك لم يكتف بالقضاء على منافسيه من البكوات وانما أراد ان يكون له النفوذ والسلطة فى جميع أنحاء البلاد فعمل على القضاء على زعماء الصعيد البارزين خاصة ممن كان لهم شأن عظيم ونفوذ كبير ونخص بالذكر الشيخ همام (١٣٠) الذى أفاض الرحالة الفرنسيون وغيرهم فى مدحه والثناء عليه وقد ذكر فولنى « ان همام كان يتمتع بنفوذ كبير يدعو الى القلق فأراد على بك التخلص منه وكان يأوى الفارين والعصاة فوجه اليه على بك قوة كبيرة من المماليك بقيادة

---

(١٢٦) فولنى : المرجع السابق ص ٨٣ .
(١٢٧) الجبرتى : المرجع السابق جـ ٣ .
(١٢٨) Hanotaux : Op. Cit., P. 128.
(١٢٩) Savary : Op. Cit., + 2 P, 223.
(١٣٠) انظر ليلى عبد اللطيف : الصعيد فى عهد شيخ العرب همام ، القاهرة ، ١٩٨٧ م .

محمد بك أبو الذهب أبادت قوات همام في عام ١٧٦٩ م » (١٣١) .
وقد امدتنا تقارير القناصل بما يؤكد مدى انتشار وامتداد نفوذ الشيخ همام فذكروا انه مد نفوذه من أسيوط حتى اسوان وكان على جانب كبير من الثراء وهو ينتمى الى قبيلة الهوابره التى هاجرت من تونس واستقرت فى الصعيد ما بين جرجا وفرشوط فتملكت الأراضي والقرى (١٣٢) .

وقد أكد الجبرتى ثراء الشيخ همام فذكر ان فى منازله صوامع لتخزين الحبوب والسكر والبلح وعددا لا يحصى من المواشي والسواقي والعبيد السود والبيض وعددا لا يحصى من الأقباط يعملون فى خدمته « وقد توفى فى منفاه بأسيوط فمات مكمودا مقهورا » (١٣٣) .

اصبح على بك فى عام ١٧٦٩ م سيدا حاكما فعليا على مصر ، ساعده على ذلك انشغال الدولة العثمانية بحربها مع روسيا فى عام ١٧٦٨ م فانتهز هذه الفرصة للانفصال عنها خاصة بعد أن تخلص من منافسيه وقد علل فولنى رغبة على بك فى الاستقلال بمصر تعليلا مبالغا فيه فذكر « انه رأى فى سيادة الدولة العثمانية وتبعيته للاستانة امرا يجرح كبرياءه » ولذلك قام « بطرد الباشا ورفض دفع الجزية وأمر بسك النقود باسمه » ثم يوضح لنا فولنى موقف الدولة العثمانية من على بك بأنها حاولت القضاء عليه رغم انشغالها بحربها ضد روسيا « فأرسلت القبوجين يعملون مرسة المشنقة ولكن على بك كان يقابلهم بالسم والخفر فيحبط مساعيهم » (١٢٤) .

---

(١٣٢) Hanotaux : Op. Cit., P. 129.
(١٣٣) الجبرتى : المرجع السابق ط ١ ص ٤٣٠ .
(١٣٤) فولنى : المرجع السابق ص ٨٤ .

وجدير بالذكر ان الدولة العثمانية طلبت من على بك مساعدتها فى حربها ضد روسيا وذلك قبل ان تسوء العلاقات بين الطرفين فأبدى استعداده وجاءت السفن العثمانية لنقل الجنود من مصر ولكن أبو الذهب دس لعلى بك لدى السلطان وأكد له أن القوات المرسلة الى الاستانة انما هى لمساعدة الروس ولذلك أرسل السلطان امرا بقطع رقبة على بك اى أن خيانة أبو الذهب لسيده كانت قبل النزاع بينهما بفترة طويلة على النحو الذى ذكره سافارى (١٣٥) .

ولاشك ان على بك قد افاد من هذه الحرب الروسية التركية للتخلص من منافسيه وأكد القنصل الفرنسي بويه هذه الحقيقة « انفرد على باك بالحكم منتهزا فرصة هذه الحرب » (١٣٦) .

وما أن انفرد على بك بالحكم حتى عمل على الحصول على الأموال بكل الطرق ونكل بأثرياء القاهرة ووضعهم على الخوازيق وضربهم بالعصى وقتل كبير المشرفين على الجمارك وشنق اثنين من اتباعه واضطهد اليهود للحصول على أموالهم وقد ذكر المترجم الفرنسي ديجون (١٣٧) « انه استبعد اليهود من الجمارك وكانت فى أيديهم لفترة طويلة وأبعدهم عن الادارة ، ووضعها فى يد مسيحى الشام وطلب منهم حسن معاملة التجار الأجانب من أجل انعاش تجارة مصر » (١٣٨) .

---

(١٣٥) Savary : Op. Cit., + 2 P, 227.

(١٣٦) Hanotaux : Op. Cit., P. 127.

(١٣٧) Ibid. P. 127

(١٣٨) Savary : Op. Cit., + 2 P. 229.

وقد ساق الجبرتي في حوادث سنة اثنتين وثمانين ومائة والف أمثلة على اضطهاده لليهود « قبض على بك على المعلم اسحق اليهودي معلم الديوان ببولاق واخذ منه اربعين الف محبوب ذهب وضربه حتى مات ، كذلك صادر اناسا كثيرة من أموالهم من التجار مثل العشوبي والكميني وغيرهما وهو الذي ابتدع المصادرات وسلب الأموال من مبادىء ظهوره واقتدى به من بعده » (١٣٩) .

ولكن رغم ما ذكر عن قسوة على بك الا اننا نجد من بين الرحالة من يثني عليه رغم جوره فذكر سافاري « انه عمل على سن القوانين وحماية التجارة ومعاقبة اللصوص ومحاربة البدو الذين يغيرون على القوافل فعين سليمان كخيا وسليم أغا لحماية التجار حرصا منه على اقرار العدالة كما حرص على انعاش تجارة مصر وفتح أبواب الاتصالات مع كل الدول » (١٤٠) .

وقد اكد الجبرتي هذه الحقيقة فكتب انتشر الأمن في عهده حتى كاد المسافر يسير بمفرده ليلا « راكبا أو ماشيا ومعه حمل الدراهم والدنانير الى اى جهة ويبيت في الغيط أو البرية » (١٤١) .

افاض الرحالة الفرنسيون في وصف فتوحات على بك الخارجية خاصة في الحجاز وبلاد الشام وقد اثنى الرحالة على فتح بلاد الحجاز « لأنه بهذا الفتح أعاد الأهمية التجارية لطريق البحر الأبيض والبحر الأحمر » على حد قول فولني ، ففى عام ١٧٦٩ م أرسل على بك حملة الى جدة بقيادة حسن بك

---

(١٣٩) الجبرتي : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٣٧٩ .

(١٤٠) Savary : Op Cit., + 2 P. 229.

(١٤١) محمود الشرقاوي : المرجع السابق ص ٧٤ ، ص ٧٥ .

خرجت من ميناء السويس وعهد الى محمد بك بقيادة الفرسان للاستيلاء على مكة وكان الهدف الرئيسى لعلى بك « ان يجعل من جدة مستودعا لتجارة الهند وقد اوعز له بهذه الفكرة روزيتى أحد تجار البندقية » (١٤٢) .

وقد كتب القنصل الفرنسي داميرا فى ٢٤ اكتوبر عام ١٧٧٠ م « ان استيلاء على بك على الحجاز من أكبر الحروب التى خاضها » وان ما فعله هو الصواب لأن جدة ميناء تجارى هام بين الهند ومصر » ، « وقد حقق بهذا العمل نجاحا سياسيا وتجاريا لأنه سيطر على البحر الأحمر وعلى التجارة والجمارك فى جدة والسويس وأقام علاقات تجارية مع الهند مباشرة » ولكن واخيرا تخوف من اتصالات البريطانيين بعلى بك فكتب فى تقرير له عام ١٧٧٣ م معربا عن مخاوفه من « ارتفاع العلم البريطانى فى السويس » (١٤٣) كما أكد سافارى وصول السفن البريطانية الى السويس « محملة بأقمشة من البنغال واثنى على الخطوة التى أقدم عليها على بك بفتح الحجاز وعلل ذلك » لأنه يريد مجد مصر التجارى وفتح البلاد أمام التجار الأجانب فمصر رغم تدهورها قادرة على استعادة مجدها التجارى وثرواتها ولكن مصر فى حاجة الى من ينظمها ولو امتلكت أسطولا كبيرا لامتلكت ثروات كبيرة .

وجدير بالذكر ان مخاوف الفرنسيين من توافد التجار البريطانيين على ميناء السويس لم يكن أمرا مبالغا فيه فقد اتفق على بك بالفعل مع شركة أوروبية لتحويل البحر الأحمر الى بحيرة

---

(١٤٢) فولنى : المرجع السابق ص ٨٤ .

(١٤٣) Savary : Op. Cit., + 3 PP. 87 — 88.

مصرية وكتب أحد التجار البريطانيين الى على بك يقترح فتح طريق تجارى مباشر بين الهند والسويس وراسل على بك حاكم البنغال ١٧٧١ م وطلب معونته ثم تكونت فى كلكتا شركة بريطانية صغيرة للمتاجرة مع مصر ولما تولى وارن هاسنجر حاكم البنغال الجديد رحب بهذه الخطوة وبدات السفن البريطانية تفد بالفعل على السويس قادمة من الهند ، كما ان الرحالة البريطانى بروس ناقش على بك فى فتح الطريق التجارى عبر مصر من الهند الى أوروبا واكد له ان ذلك يتطلب فتح الحجاز وجعل جدة قاعدة للسفن والتجارة وهى نفس فكرة روزينى(١٤٤) .

اما بلاد الشام فقد تطلع على بك للاستيلاء عليها وأكد داميرا لحكومته « ان نظر على بك لا ينصرف عن سورية » وانه يعد العدة لهذا اليوم فهو يجمع الأموال اللازمة لتسليح الجيش أى جيشه (١٤٥) ، وبالرجوع الى ما ذكره الجبرتى نجد أن على بك عمل على جمع الأموال اللازمة من الناس« اضطر على بك الى فرض مبالغ على كل مدينة فى مصر ففرض اموالا على اليهود ، والأقباط حتى يتمكن من تجهيز هذه الحملة » (١٤٦) . وقد ساعدت الظروف الدولية على بك فى تحقيق هدفه وذلك لانشغال تركيا بالحرب مع روسيا فى الشمال كذلك تمرد ضاهر العمر ضد الدولة العثمانية فى جنوب بلاد الشام وصداقته مع على بك خاصة عندما نفى الى بلاد الشام ولذلك وجه على بك قواته الى غزة فأسرع عثمان باشا الحاكم العثمانى فى دمشق لصدها « فارتعدت فرائص المماليك من سرعة جنوده وغددها واستعدوا للفرار »

---

(١٤٤)

(١٤٥) Hanotaux : Op. Cit., P. 130.

(١٤٦) جلال يحيى : المرجع السابق ص ٢٥٥ .

ولكن ضاهر العمر ارسل لقوات على بك النجدات فأنقذهم من الهزيمة (١٤٧) . ثم يصف لنا سافارى استيلاء قوات على بك على باقى مدن بلاد الشام وعندما رفض اهالى نابلس التسليم حاصرها محمد بك ابو الذهب لكى يجبر السكان على الاستسلام خاصة بعد ان قطعت عنهم الامدادات وهددتهم المجاعة ، ثم تمكنت قوات على بك من الاستيلاء على القدس ويافا وصور (١٤٨) ، أما دمشق فقد أكد فولنى انه تم فتحها بمساعدة ضاهر العمر واطلق فولنى لفظ « الحلفاء » على ضاهر العمر وعلى بك فكتب « سيطر الحلفاء على دمشق الخالية من الجنود ومن المدافع وامعنوا فى التقتيل » (١٤٩) ، أما حلب فلم يستول عليها محمد أبو الذهب وعلل ذلك سافارى « لأنه كان ينوى الاحتفاظ بها لنفسه » (١٥٠) ، وأكد سافارى على اتصالات على بك بالروس فقد ارسل عام ١٧٧١ م محمد أبو الذهب الى بلاد الشام وتحالف مع الكونت الكسيس اورلوف الذى أكد رغبة روسيا فى معاونة على بك كذلك حاول محالفة البنادقة عن طريق التاجر روزينى ولكنهم وعدوه بمساعدته فى اعادة مجد مصر التجارى القديم (١٥١) .

وقد افاض الرحالة فى وصف الاحتفالات التى أقيمت فى القاهرة لمدة ثلاثة أيام بمناسبة انتصارات قوات على بك فى بلاد الشام وقد ذكر الجبرتى « وردت البشائر بذلك فنودى

---

(١٤٧) فولنى : المرجع السابق ص ٨٦ .

(١٤٨) Savary : Op. Cit. + 2 P. 232.

(١٤٩) فولنى : المرجع السابق ص ٨٨ .

(١٥٠) Savary : Op. Cit. + 2 P. 232.

(١٥١) Ibid. P. 231.

بالزينـة ، فزينت مصر وبولاق ومصر القديمـة زينـة عظيمـة ثلاثة أيام بلياليها » (١٥٢) .

ضاعت انتصـارات على بك فى بلاد الشـام اذ قام محمد أبو الذهب بالانسحاب من المدن التى فتحهـا واتجـه الى مصر فأسرعت قوات الدولة العثمانية بالاستيلاء على المدن السـورية فحرم على بك من « ثمرة نصره » وعلل فولنى خيانة أبى الذهب بأن عثمان باشا اتصـل به وأدخل فى روعه ان السلطان سـوف يقتص من على بك لأنه انتهك حرمة مدينة دمشق وطلب منه التعاون مع الدولة فأسرع أبو الذهب بسحب قواته جنوب مصر وسط دهشـة ضاهر العمر وابنائه واستعد على بك لمـلاقاة حليفه السابق فحصن أبواب القاهرة بناء على نصيحة روزيتى التاجر البندقى وخـلال اربعين يوما جمـع محمد أبو الذهب أنصاره والتقى بقوات سيده فهزمه شر هزيمة فلم يتسن لعلى بك سـوى الفرار مع ثلاثمائة من المماليك قاصـدا عكا ولكن أهل نابلس ويافا « سـدوا المسالك دونه » فاضطر ضـاهر العمر لنجدته وكان جنود عثمـان باشا والدروز يحـاصرون صـيدا فاستنجد أهـالى صـيدا بعلى بك فاتجـه اليها ضاهر العمر عام ١٧٧٢ م حيث دارت « أضخم المعارك » كما وصفها فولنى وكان الجيش التركى ثلاثة أضعاف جيش الحليفين ولكنه منى بخسـائر كبيرة وبقيت صيدا فى يد ضـاهر العمر الذى اتجه مع حليفـه الى عكا لمعاقبـة أهلهـا واستمر حصـار عـكا حتى عام ١٧٧٣ م (١٥٣) .

ثم بدأ على بك يعد العدة للعودة الى مصر ووعده ضاهر العمر

---

(١٥٢) جلال يحيى : المرجع السابق ص ٢٥٦ .
(١٥٣) فولنى : المرجع السابق ص ٩٢ .

والروس بالمساعدة وقد أعجب الرحالة الفرنسى باتصالات على بك بالروس فذكر « لو قدر لهذا التحالف بين شيخ البلد والروس الاستمرار لتغير وجه الشرق » (١٥٤) .

دبر محمد أبو الدهب مكيدة لعلى بك الذى وصلته رسالة تستعجله بالعودة الى مصر فطلب منه ضاهر العمر انتظار النجدة الروسية ولكن على بك تسرع بالسفر الى مصر وما كاد « يتورط فى الصحراء بين غزة ومصر حتى التقى بفرقة مختارة من المماليك بقيادة مراد بك » ويتوقف فولنى ويعلل سبب اختيار محمد أبو الدهب لمراد بك على رأس القوات المتوجهة لقتال على بك « لأن مراد شغف حبا بامرأة على بك فوعده محمد أبو الدهب بالزواج منها اذا سلم له رأسه « ولذلك ركز مراد بك جهوده لقتال على بك ونجح فى الحاق الهزيمة به » (١٥٥) .

وعلل سافارى سبب انتصار أبو الدهب على قوات على بك فى بلاد الشام فأرجعه الى « ثورة المدن السورية ضد على بك لأن محمد أبا الدهب عمل على بث الدعاية ضده وتشويه صورته لاتصاله بالأوروبيين خاصة الروس وتحالفه معهم ضد الدولة العثمانية المسلمة مؤكدا لهم انه سوف يبتلعون بلادهم كما فعل البريطانيون مع مسلمى الهند من قبل الذين دفعوا ثمن ثقتهم بالأوروبيين وأكد محمد أبو الدهب لأهالى الشام أن على بك سوف يأتى بالمسيحيين الى سورية مثلما حدث فى البنغال » (١٥٦) .

---

(١٥٤) Savary : Op. Cit., + 2 P. 240.

(١٥٥) فولنى : المرجع السابق ص ٩٢ .

(١٥٦) Savary : Op. Cit., + 2 P. 242.

ولاشك ان دعاية محمد أبو الدهب كان بها الكثير من الصدق والصحة لأن على بك أساء اختيار توقيت اتصاله بروسيا خاصة وانها كانت مشتبكة فى حرب دامية مع الدولة العثمانيــة المسلمة فاعتبر فى نظر المسلمين خائنا بالفعل .

ويصــور لنا فولنى الموقف بعد هزيمــة على بك ولقائه بمحمد ابو الدهب الذى « احسن استقبال سيده القديم وبالغ فى توقيره » و « خصــه بخيمة فاخرة الرياش » واوصى بالعناية التامــة به واكد له « ألف مرة انــه عبــده الذى يلثم موطىء قدميه » (١٥٧) وقد اكد القنصل داميرا عناية أبى الدهب بسيده حتى انه « ظــل يداوى جراحــه ويقبل قدميــه طوال فترة مرضــه » (١٥٨) ، ولكن على بك توفى متأثرا بجراحه وقيل أن أبو الدهب دس له السم ورجح فولنى الاحتمالين « الاحتمالان متعادلان بحيث تعذر الترجيح » (١٥٩) .

وختم فولنى حديثه عن على بك « انتهت حياة على بك الذى جذب انتباه واهتمام أوروبا وتوقع الساســة من ورائه تحولا خطيرا » « ولاريب انه رجل خارق ولكن من المبالغة ان نجعله فى مصاف الرجال العظام لأن المقربين منه اكدوا انه كان رجلا يفتقر الى الثقافة » وعدد فولنى أخطاء على بك من وجهة نظره :

١ ــ انه لم تكن لديه خبره كافية بالفتوحات .

٢ ــ اغداقــه المــال على فرد واحــد من خاصيته وهو محمد أبو الدهب .

---

(١٥٧) فولنى : المرجع السابق ص ٩٨ .

(١٥٨) Auriant : Op. Cit., P. 284.

(١٥٩) فولنى : المرجع السابق ص ٩٦ .

٣ - لم تستند أعماله على مبادىء العدالة الانسانية بقدر ما ترجع الى عوامل طمعه وزهوه « فمصر لم تكن فى نظره الا ملكا والشعب قطيعا يجوز أن يتصرف به على هواه » ودلل فولنى على ذلك باسرافه « وانه أنفق على قبضة خنجره مبلغا يزيد على عشرين الف ليرة » (١٦٠) .

أما سافارى فقد كان شديد الاعجاب بعلى بك فقد كتب بعد وفاته « قتل على بك نصير المصريين ضد استبداد وطغيان الأتراك » (١٦١) . بعد وفاة على بك تولى محمد أبو الدهب عام ١٧٧٣ م « فلم يظهر من خلال سنتى حكمه الا نزق اللص ولؤم الخائن » على حد قول فولنى (١٦٢) .

وقد اختلف موقف أبى الدهب مع الدولة العثمانية عن موقف على بك فقد أعاد ارسال الجزية الى الاستانة وجدد خضوعه للسلطان العثمانى وعلل القنصل الفرنسى داميرا ذلك « لأنه كان فى حاجة الى حماية ودفاع » وخشى من عداء الدولة فأحسن استقبال الباشا الجديد (١٦٣) .

اراد ابو الدهب الانتقام من ضاهر العمر لتحالفه مع على بك ، كذلك رغب فى مصادرة ثروة ابراهيم الصباغ وزير ضاهر العمر ولذلك استأذن الباب العالى فى شن الحرب على بلاد الشام فكان هدف أبى الدهب على حد قول فولنى « مزدوج الثأر والاثراء » ، فهاجمت قوات ابى الدهب غزة فأسرع رجال

---

(١٦٠) فولنى : المرجع السابق ص ٩٦ .

(١٦١) Savary : Op. Cit., + 2 P. 254.

(١٦٢) فولنى : المرجع السابق ص ٩٧ .

(١٦٣) Hanotaux : Op. Cit., P. 137.

ضاهر العمر بالهروب منها ثم زحفت قوات أبي الدهب على يافا ولكن « أهلها كانوا متمرسون على القتال فنجحوا في التصدى لقواته » فنصب أبو الدهب خيمته التى أسرف المماليك في زخرفتها أمام اسوار يافا كما عمل المماليك إكواخا من جذوع الأشجار وغصون الليمون تأهبا لطول الحصار ولكن نظرا لموقع يافا على تل فقد تمكن سكانها من القاء القنابل على معسكر أبي الدهب مدافعين عن مدينتهم دفاعا مجيدا ويسخر فولنى من المماليك فيصفهم أثناء حصار يافا « بانهم نجحوا فى احداث ثقب فى جدار سور يافا فحاولوا الدخول منه أولا على ظهور الجياد فلما تبين لهم ان ذلك مستحيل ترجلوا ثم ساروا بسراويلهم الواسعة وأرديتهم المشمرة يتعثرون بالانقاض والسيوف العقفاء في ايديهم والطبنجات فىأوساطهم وحسبوا انهم جاوزوا كل العقبات» ولكن أهالى يافا امطروهم بالرصاص واستمر الحصار ستة واربعين يوما ، وفتح اهالى يافا المفاوضات وابرمت معاهدة بين الطرفين ولكن بعض المماليك انسلوا الى المدينة وباشروا النهب فاستأنف القتال وأمعن أبو الدهب فى قتل النساء والشيوخ فى يافا « وأبت وحشية محمد ونذالته الا ان يصنع نصبا للنصر فأمر ان يشاد له هرم من رؤوس القتلى المناكيد الذين جاوز عددهم الفا ومائتى نسمة » (١٦٤) .

وقد أكد الجبرتى تلك الحقيقة فذكر ان أبا الدهب ارتكب المذابح فى يافا هو وجنوده « لم يميزوا بين الشريف والنصرانى واليهودى والعالم والجاهل والعالى والسوقى ولا بين الظالم والمظلوم » واقاموا من رؤوس القتلى عدة اهرامات (١٦٥) .

---

(١٦٤) فولنى : المرجع السابق ، ص ٩٨ ، ٩٩ .
(١٦٥) محمود الشرقاوى : المرجع السابق ص ٧٨ .

ثم اتجه أبو الذهب الى عكا مما أزعج القناصل الأوروبيين خوفا على رعاياهم فكتب القنصل الفرنسي مور في يونيو ١٧٧٥ م « لقد تعرض الفرنسيون للذبح أثناء حصـــار عكا » (١٦٦) ، فقد نهب أبو الذهب أبواب عكا وطالب سكانها بأموال ابراهيم كخيـــا وضاهر العمر وأنذرهم بالموت ولم ينقذ سكان عكا سوى اصابته بالحمى فتوفى متأثرا بها واعتقد المسيحيون « ان هـــذه الميتـــة قصاص من النبي الياس الذي كان أبو الذهب قد هتك حرمة كنيسته على جبل الكرمل » ويزعمون أيضا انه كان يراه مرات عديدة في صورة شيخ فيصرخ « ابعدوا عنى هـــذا الشيخ الذي يلازمني ويرعبني » وعلل فولني وفاة أبي الذهب تعليـــلا علميـــا منطقيا ، فأرجعه الى الطقس والحرارة الشديدة والارهاق أثناء حصار يافا وأشار في موضوعية الى « اننا لو شئنا الاعتماد في كتابة التاريخ الحديث على رواية مسيحيي سوريا ومصر لجاءت ملأى كما في العصور السالفة بالمعجزات والرؤى » (١٦٧) .

وقد أفاض الرحالة الفرنسيون في وصف قسوة أبي الذهب مع أبنـــاء مصر نفســـها فوصفه الكونت دانتريج « انه طاغيـــة متوحش » وعقد مقارنة بينه وبين نيرون « انه يشبه نيرون في قسوته وحبه للقتل وسفك الدماء » « أن مصر كلها شهود على طغيانه » وضرب دانتريج أمثلة على قســـوته وان كان البعض مبالغا فيه فذكر « انه قتل في يوم واحد ستين فلاحا تحت اقدام الأفيال » كذلك كتب عن قصـــة سمعها تدل على عنفـــه فذكر « انه كان يتنزه في النيل فرأى مجموعة من الفتيات الجميـــلات فهاجم أحداهن فصرخت الفتاة واحتمت بأبويها فأسرع عبيد البك بانتزاعها من يد أهلها ونقلوها على ظهر مركب أبي الذهب الذي

---

(١٦٦) Hanotaux : Op. Cit., P. 130.

(١٦٧) فولني : المرجع السابق ، ص ١٠٠ ، ٢٠١ .

أمر باستدعاء أهل الفتاة فخشي والدها من عقابه فارتمى عند أقدامه وطلب منه العفو لأنه كان لا يعلم شخصيته وانه دافع عن ابنته ضد العبيد الذين هاجموه ولكن أبا الذهب أمر باغراق الرجل وزوجته فى النيل وسط صراخ الفتاة » (١٦٨) .

وهكذا نلاحظ تشابه كتابات الرحالة عن محمد أبى الذهب وقسوته مع المصريين أبناء البلاد الأصليين أما عن علاقته بالأوروبيين فقد حذا حذو على بك من حيث رغبته فى اخراج مصر من عزلتها ورغبته فى فتح موانى البحر الأحمر أمام الملاحة الأوروبية وتيسير سبل الاتصال بين الهند والسويس وأوروبا وأكد القنصل الفرنسى مور هذه الحقيقة فكتب فى فبراير ١٧٧٥ م « ان محمد بك يسعده رؤية السفن الفرنسية فى البحر الأحمر لتنمية التجارة مع الهند وأكد مور انه طلب منه السماح للسفن الفرنسية بالمرور فى السويس وتخصيص الضرائب على الفرنسيين » ، كما أن الوزير الفرنسى سارتين كتب فى أكتوبر عام ١٧٧٥ م معربا عن رغبته فى زيادة الصلات التجارية مع مصر « لو ان هذه البلاد مستقلة عن الباب العالى مثل المغرب لأمكننا التجارة مع حكامها بحرية وعقد الامتيازات معهم » (١٦٩) . وقد عقد محمد أبو الذهب معاهدة تجارية مع شو مبعوث وارن هاستنجز حاكم البنغال فى ٧ مارس ١٧٧٥ م كفلت مواد المعاهدة حرية التجارة للبريطانيين بين الهند ومصر عبر البحر الأحمر ومنحتهم التنقل فى داخل البلاد . ولكن هذه المعاهدة لم تلتزم بها الحكومة البريطانية لأنها عقدت بين أبى الذهب وحاكم البنغال وليس مع الحكومة البريطانية . وقد راقب القناصل الفرنسيون

---

(١٦٨) Auriant.: Op. Cit., P. 286.

(١٦٩) Roux : Op. Cit., P. 60.

آثار هذه المعاهدة وعملوا على الا تخرج الى حيز التنفيذ خوفا من استفحال النفوذ البريطاني فى مصر . وقد الغى الباب العالى هذه المعاهدة بالفعل عام ١٧٧٧ م وقرر منع الملاحة فى البحر الأحمر (١٧٠) .

توفى محمد أبو الدهب فى عام ١٧٧٥ م بالحمى عند أسوار عكا ونقل جثمانه الى مصر خوفا من أن يقوم السكان بنبش قبره وكتب عنه سافارى « توفى محمد أبو الدهب الزعيم الشرير » (١٧١) والواقع ان محمد أبى الدهب فرض العديد من الغرامات على (١٧٢) الفرنسيين لمجىء الحملة الفرنسية على مصر خاصة وانها تزايدت بصورة ملحوظة فى عهد كل من مراد وابراهيم بك .

قدر لمصر أن يحكمها بعد وفاة محمد بك اثنان من مماليكه هما مراد بك وابراهيم بك اللذان تحكما فى شئون البلاد فى الفترة ما بين عام ١٧٧٥ م حتى مجىء الحملة الفرنسية عام ١٧٩٨ م . وقد تم تقسيم السلطات السياسية بين المملوكين فتولى ابراهيم بك مشيخة البلد وعين مراد دفتردارا كذلك اتفقا على تعيين يوسف بك أميرا للحج وقد كتب القنصل الفرنسى مور ١٧٧٥ م بان الأمراء الثلاثة خرجوا من منزل محمد أبى الدهب وانه يسعى جاهدا للتقرب من هذه القوى الرئيسية فى مصر وتدعيم علاقته بهم لصالح الفرنسيين (١٧٣) .

وقد أفاض الرحالة الفرنسيون فى الكتابة عن مراد

---

(١٧٠) عبد الوهاب بكر : المرجع السابق ص ٨٤ .

(١٧١) Savary : Op. Cit., + 2 P. 256

(١٧٢) سوف نتعرض لهذه الغرامات عند الحديث عن الجالية الفرنسية فى القاهرة .

(١٧٣) Hanotaux : Op. Cit., P. 140.

وابراهيم بك باعتبارهما من أهم القوى السياسية فى البلاد فتتبع أوليفيه أصولهما « انهما قوقازيا الأصل تولى تنشئتهما رجل واحد ولكن ابراهيم بك أكثر ذكاء وأكثر استقامة من مراد بك حتى عبيده أكثر تحضرا من عبيد مراد ، ولكن مراد أشجع من ابراهيم ويتصف بالقسوة والكرم محب للذات يكره العمل يضع ثقته فى أصدقائه ومستشاريه من الرقيق الذين تم اختيارهم من بين أكثرهم شجاعة واقداما وابراهيم أكثر ثراء من مراد ولكنه يتصف بالحرص والتنظيم ويمتلك أعدادا أكبر من العبيد » ثم يسرد أوليفيه رأيه فى حكمهما « أن مصر بائسة بين هذين الرجلين الطموحين اللذين يفتقران الى موهبة العلم والأخلاق عاجزان عن اقرار العدالة » (١٧٤) .

اما الكونت دانتريج فقد التقى بماجالون عند زيارته لمصر فسجل راى الأخير فى كل من مراد وابراهيم « ان مراد يشبه محمد أبى الدهب له نفس نقائصه ، ويتسم مثله باللؤم والقسوة » (١٧٥) .

وعن أثر حكم هذين المملوكين لمصر كتب سافارى « قدر لمصر أن تترك فى يد عصابة من ثمانية آلاف أجنبى يلتهمون ثروات اقاليمها ولا يكفون عن الحرب » (١٧٦) .

ثم يصف لنا الرحالة أحوال مصر السياسية منذ وفاة محمد أبى الدهب وحتى مجىء الحملة الفرنسية فى ظل التنافس القائم بين مراد بك وابراهيم بك من جهة ومنافسيهم من جهة

---

(١٧٥) Olivier : Op. Cit., PP. 191 — 193.

(١٧٤) Clement : Op. Cit., P. 250.

(١٧٦) Savary : Op. Cit., + 2 P. 254.

أخرى حيث نشبت الاضطرابات فى البلاد فى عام ١٧٧٦ م واضطر مراد وابراهيم الى الفرار الى الصعيد ونجح منافسوهم فى الاحتفاظ بالسلطة فتحالف كل من يوسف بك ومحمد بك طوبال واسماعيل الكبير واسماعيل الصغير وعينوا اسماعيل بك الكبير شيخا البلد وعبر عن هذه الاضطرابات القنصل الفرنسى مور فى عام ١٧٧٦ م » ان اضطرابات عام ١٧٧٦ م لم تترك للبلاد سوى الموت والدمار » (١٧٧) .

لم تنعم القاهرة بالهدوء بعد طرد مراد وابراهيم فسرعان ما نشبت الاضطرابات بين اسماعيل بك الكبير والمماليك عام ١٧٧٧ م وقد وصف سونينى انعكاس هذه الاضطرابات على الحى الفرنسى وعلى أحياء القاهرة فكتب « انتشرت الفوضى والاضطرابات فى كل أحياء القاهرة وتكرر اقتحام الجنود المنازل واشعال النيران فيها ، وعاش التجار الفرنسيون فى رعب خشية هدم حيهم ونهب ثرواتهم وقتلهم وسط أولادهم وزوجاتهم وكنت فى وسط هذه المأساة وقد قمت مع بعض الشبان من الفرنسيين بالدفاع عن مدخل الشارع لآخر قطرة فى دمائنا ، وجاء مائتان من الجنود بأسلحتهم ورماحهم لاقتلاع باب الحى الذى يمثل ملجأنا الوحيد ولكنه لحسن الحظ كان متينا فاضطروا للانصراف عنا الى المنازل المجاورة ، وقد استمر هذا المشهد المرعب يومين لم تنقطع خلالهما أصوات المدافع وصرخات الضحايا » (١٧٨) .

ثم يصف سونينى امتداد الاضطرابات فى أنحاء القاهرة خاصة بولاق كذلك فى أقاليم مصر « لم تنته الحرب بين المماليك كذلك ثورات القرى والمدن بسبب عجز أهلها عن دفع الضرائب

---

(١٧٧) Hanotaux : Op. Cit., P. 143.

(١٧٨) Sonnini : Op. Cit., + 2 P. 219.

فامتدت الثورات فى باجورة والفيوم وطهطا واستخدام كاشف طهطا العنف لاخضاع أهلها » (١٧٩) .

والواقع ان هـذه الاضطرابات والفوضى لم يقم بتسجيلها الرحالة الفرنسيون فحسب وانما سجلها غيرهم من الرحالة الذين زاروا مصر خلال الفترة فأكد نوردن على امتداد الاضطرابات الى الأقاليم « وانتهاز البدو الفرصة لقطع الطرق والسلب والنهب مما أدى الى صعوبة السفر الى مصر العليا » (١٨٠) .

وكان من الطبيعى أن تشجع تلك الأحداث اللصوص وقطاع الطرق للاغارة على المدن والقرى الآمنة فحدثنا سونينى عن عصابة فى الأقصر تعمل على اغراق سفن المسافرين ونهب أمتعتهم وان الفوضى انتشرت بدرجة ملحوظة فى الوجة القبلى وان الطرق مقطوعة بين مدن الصعيد خاصة بين قوص والقصير (١٨١) .

أراد اسماعيل بك الكبير وضع حد للفوضى والاضطرابات التى نجمت عن فرار مراد وابراهيم الى جرجا فأرسل فى يناير ١٧٧٨ م تجريدة الى الصعيد للقضاء عليهم ويصف القنصل الفرنسى سعادة المصريين لارسال هـذه التجريدة « عم الفرح والسرور البلاد وهنأ الناس بعضهم بعضا فى الطرقات بسبب ارسال هذه التجريدة مما يدل على مدى كراهية الشعب المصرى للطغاة والبكوات الفارين » (١٨٢) . ويأسف سافارى على فشل خطة اسماعيل بك الكبير فقد نجح مراد وابراهيم بك فى الحصول

---

(١٧٩) Ibid. P. 312.

(١٨٠) Norden : Op. Cit., P. 6.

(١٨١) Sonnini : Op. Cit., + 3 P. 245.

(١٨٢) Raymond : Op. Cit., P. 791.

على المساعدات القيمة من البدو وعمل ابراهيم بك على رشوة جنود اسماعيل بك الكبير الذين أنضموا الى قواته فاضطر اسماعيل الى التراجع وهرب الى القاهرة ومعه خمسون جملا محملة بالذهب والفضة والجواهر الثمينة واتجه الى سورية ومنها الى الاستانة حيث حاول الحصول على وعد من الباب العالى بالعودة الى مصر ومساعدته ضد منافسيه ولكن دون جدوى . وبفرار اسماعيل أصبح ابراهيم ومراد اسياد مصر فدخلا القاهرة وعين ابراهيم بك شيخ بلد ومراد بك اميرا للحج وتم خلع الباشا الذى ناصبهما العداء ورحل الى الاستانة » (١٨٣).

ويصف سافارى الاحتفالات التى أقامها مراد وابراهيم فى القاهرة فيذكر « انهما رفعا مماليكهما الى رتبة بك وطافا فى شوارع القاهرة فى احتفال كبير ممتطين خيول مغطاة بالذهب والماس واخذا يقذفان عملات الميدين والسكين للناس وتبعهما ستة آلاف مملوكى بثيابهم الغنية الجميلة ، كذلك ، تبعهما فرق الانكشارية، والعزبان وشهد الاحتفال اكثر من اربعمائة الف شخص » (١٨٤) .

ولكن مراد وابراهيم رغم تخلصهما من اسماعيل بك الا انهما لم يعملا على احلال الهدوء فى العاصمة اذ اتجها الى حسن بك ووضعا ستة مدافع أمام قصره عقابا له على مناصرته لاسماعيل بك وأحدثت دوى المدافع « الرعب فى قلب سكان القاهرة » واندلعت الحرب من جديد وسط الشوارع وعلى اسطح المنازل ويؤكد سافارى انه « سمع اصوات الضحايا وصرخاتهم » وافادت العصابات من الفوضى فقامت بنهب العاصمة

---

(١٨٣) Savary : Op. Cit., + 2 PP. 259 — 260.

(١٨٤) Ibid P. 261.

وكان لذلك تأثيره على التجار الفرنسيين الذين أرسلوا بشكواهم الى الحكومة الفرنسية طالبين الحماية (١٨٥) .

وقد عبر القنصل الفرنسي مور فى رسائله عن استمرار الفوضى فى البلاد وتدهور أحوال مصر الاقتصادية « فالسكان لا يملكون ثمن شراء القمح ويقال ان عدد سكان مصر السفلى قد تناقص الى النصف » (١٨٦) .

ووصف فولنى طغيان مراد وابراهيم بك خلال هذه الفترة بانهما « أرسلا رجالهما على ضفاف النيل يوقفون المراكب ويسوقون ربانها تحت تهديد العصي الى القاهرة والناس يتهربون من السخرة وفرضت على تجار المدينة ضريبة هائلة واكره أصحاب الأفران والتجار على بيع سلعهم بأسعار هى دون أسعار تكاليفها » وفى عام ١٧٨٣ م خرج مراد الى الصعيد لتعقب منافسيه خاصة وان العلاقات ساءت بينه وبين ابراهيم بك وانقسم المماليك فريقين فخرج مراد الى الصعيد لتعقب الفارين ثم اتجه الى الجيزة . وظل الفريقان خمسة وعشرين يوما وجها لوجه يفصل بينهما النهر ولا يتقاتلان ثم شرعا فى التفاوض وتم الاتفاق على استمرارهما فى السلطة (١٨٧) .

ولتدهور الحالة أو الأحوال الاقتصادية أرسلت الدولة العثمانية حملة بقيادة حسن باشا لوضع حد للفوضى فى مصر فوصلت قواته الاسكندرية فى يوليو ١٧٨٦ م ومنها اتجه الى رشيد والدلتا وكتب ماجالون « لقد كاد حسن باشا أن يلقى

---

(١٨٥) Ibid, PP. 262 — 264.

(١٨٦) Lettres de Mure P. 199.

(١٨٧) فولنى : المرجع السابق ص ١٠٤ ، ص ١٠٦ .

القبض على البكوات ويشتتهم » وفى رشيد أكد حسن باشا للسكان انه جاء لمراعاة شئون الرعية ولكن حسن باشا عمل على التنكيل بالمماليك « فدخل منازلهم ونهبها ولم يحترم نساءهم وصادر أموالهم » (١٨٨) ، ولم يشفع لهم عند حسن باشا سوى المشايخ أحمد الدردير والعروسي والحريرى فلما نهرهم قالوا له « انما نحن شافعون ، والواجب علينا قول الحق (١٨٩) ، وكتب أوليفيه عن نتائج حملة حسن باشا بأن « عين اسماعيل بك فى مصر وعجز مراد وابراهيم عن تحقيق أى نصر ضد قوات حسن باشا وفرا الى الصعيد « (١٩٠) .

ولكن حسن باشا اتبع مع الفرنسيين نفس أسلوب مراد بك وابراهيم بك رغم توصيات السفير الفرنسي له فى الآستانة شوازيل جوفيه فقد فرض عليهم الغرامات وكتب ماجالون يشكوه مؤكدا ان الفرنسيين قدموا له الهدايا عند حضوره مصر فقدموا له ساعة مذهبة على نحو ما كانوا يعملون مع مراد وابراهيم بك ـ (١٩١) .

سافر حسن باشا عائدا الى الآستانة تاركا السلطة فى يد اسماعيل بك شيخ البلد الذى حرص ماجالون على تقوية نفوذه لديه حتى انه « طلب النجدة من الفرنسيين لمساعدته ضد مراد وابراهيم كذلك طلب مهندسا فرنسيا وخمسة ضباط مدفعية وعددا من صناع القنابل وعددا من البنائين لاقامة منشآت على النيل » فوعده ماجالون بتحقيق ذلك ولكن نشوب الثورة

---

(١٨٨) Hanotaux : Op. Cit., P. 145.

(١٨٩) عبد الوهاب بكر : المرجع السابق ص ١٣٠ .

(١٩٠) Olivier : Op. Cit., P. 193.

(١٩١) Clement : Op. Cit., P. 228.

الفرنسية ادى الى انشغال السلطات الحاكمة فى مصر فلم تستجب لمطالب اسماعيل بك ولا لرسائل ماجالون الذى أكد فيها اهمية مساعدة اسماعيل بك « لأن ذلك سوف ينهى الفوضى فى مصر » (١٩٢) .

وهكذا نلمس مدى خطورة ماجالون فهو يسعى دوما لتوطيد علاقته مع القوى السياسية فى مصر أيا كانت ، ساعده على ذلك نفوذ زوجته لدى نساء المماليك ، فهو تارة يقف مع مراد وابراهيم بك وتارة أخرى مع اسماعيل بك حسب القوى الحاكمة فى البلاد وقد لعب دوره باتقان ونجح فى تجميع المعلومات عن القوى السياسية المختلفة فى مصر خادما بذلك مصالح بلاده .

وفى عام ١٧٩١ م توفى اسماعيل بك متأثرا بوباء الطاعون فعاد مراد وابراهيم الى القاهرة وكانت الدولة العثمانية فى ذلك الوقت فى حرب مع روسيا فآثرت أن تترك لمصر حاكميها الظالمين (١٩٣) .

وبعودة مراد وابراهيم فرضت الضرائب من جديد على المنتجات وعانت البلاد من الأزمات الاقتصادية وتزايدت شكاوى التجار الفرنسيين (١٩٤) « كما تفاقم الوضع سوءا بانتشار المجاعة فى البلاد ١٧٩٣ م فامتلأت مخازن مراد وابراهيم بالقمح والشعب يعانى من المجاعة والوباء حتى ان أوليفيه أحصى عدد النعوش التى خرجت من القاهرة فى يوم واحد فوجدها ثلاثمائة نعش » (١٩٥) .

---

(١٩٢) Ibid : Op. Cit., P. 229.

(١٩٣) Olivier : Op. Cit., P. 193.

(١٩٤) Clement : Op. Cit., P. 273.

(١٩٥) Olivier : Op. Cit., P. 195.

لا جدال ان سياسة مراد الطائشة تجاه الأجانب والمغارم التي كان يوقعها ضد التجار الفرنسيين والمصادرات التي فرضها على اموالهم كانت سببا اتخذه نابليون لمجيء الحملة على مصر فمراد استنزف ثروات مصر ثم التفت الى الأجانب والفرنسيين فأثقل عليهم بالضرائب والمغارم والمصادرات المجحفة فكثرت شكاوى التجار الى حكومة الجمهورية وقد اكد الجبرتى نفسه اكثر من مرة عدوان مراد بك على التجار الأجانب ونهب اموالهم لقد كان مراد من أعظم الأسباب فى خراب الأقاليم المصرية (١٩٦) .

ولعل إبلغ تأكيد على ذلك ما ذكره فولنى فى غرور وصلف « لا نرى فى مصر الا بلدا ملكيا بلغ أقصى درجة من التدهور السياسى والعسكرى والاجتماعى بلدا لن ينقذه سوى التدخل الأجنبى ويمكن أن تكون فرنسا هذا البلد فتدخل فرنسا سوف يؤدى الى شفاء مصر من امراضها الحالية » (١٩٧) .

ولاشك أن كتابات الرحالة قد القت الضوء على اضطراب الأوضاع السياسية فى مصر ، كذلك ساهمت فى ابراز مساوىء مراد بك القاسى كما وصفه ماجالون (١٩٨) والجاهل القوقازى على حد قول فولنى (١٩٩) . وان كان بعض الرحالة قد تظاهر بالتمسك بالمبادىء الانسانية مثل سافارى لتبرير احتلال فرنسا لمصر « لانقاذ المصريين من قسوة المماليك الذين يعانون منهم كما يعانون من الطاعون والفوضى » (٢٠٠) .

---

(١٩٦) محمود الشرقاوى : المرجع السابق ، ص ٩٠ .

(١٩٧) فولنى : المرجع السابق ، ص ١٧٨ .

(١٩٨) Auriant : Op. Cit., P. 306.

(١٩٩) فولنى : المرجع السابق ، ص ١٧٨ .

(٢٠٠) Savary : Op. Cit., + 2 P. 272.

وهكذا جرت سياسة مراد بك وابراهيم باك على مصر النكبات وتعددت كتابات وتقارير القناصل الفرنسيين عن الفوضى السياسية فى البلاد مما حفز الحكومة الفرنسية على ارسال الحملة الشهيرة على مصر عام ١٧٩٨ م .

واخيرا لقد ألقت كتابات القناصل الفرنسيين وكذلك الرحالة الفرنسيين الضوء على احوال مصر السياسية فى النصف الأول من القرن الثامن عشر من انتشار الحروب الأهلية وانحسار سلطة الباشوات وتورطهم فى مساندة أحد أطراف النزاع ، كذلك أوضحت لنا تلك الكتابات بروز قوة المماليك العسكرية فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر وانفراد عدة شخصيات منهم بالحكم ابتداء من على بك حتى مراد بك وابراهيم بك وبذلك نلمس أن رحالة القرن الثامن عشر تميزوا عمن سبقهم فى القرنين السابقين السادس عشر والسابع عشر ولكن ينبغى الا نغفل ان هذا التسجيل والتدوين من قبل رحالة القرن الثامن عشر يرجع الى أن بعضهم يمكن اضفاء صفة الجاسوسية عليه خاصة ممن قدموا منهم فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر مثل البارون دى توت الذى أتى جاسوسا لمراقبة أستحكامات مصر ، كذلك أوليفيه الذى ارسلته حكومة الادارة قبل أن تضع اللمسات الأخيرة لاحتلال مصر فكان من الطبيعى لهولاء وغيرهم ان يعنوا بتسجيل أحوال مصر السياسية فى ذلك الوقت لخدمة مصالح فرنسا .

الفصل الرابع

نشاط المصريين الاقتصادى

- الزراعة .
- الصناعة .
- التجارة .

نشـــاط المصريين الاقتصـــادى

قدم الرحالة الفرنسيون وصفا للحياة الاقتصادية فى مصر فى القرن الثامن عشر فسجلوا مشاهداتهم عن النشاط الزراعى والصناعى والتجارى على النحو التالى :

أولا الزراعـــة :

حرص معظم الرحالة على الحديث عن ثروة مصر الزراعيـــة معللين أسباب هذا الثراء فأكد سافارى « ان الزراعة فى مصر من أقدم المهن وبفضلها كونت مصر امبراطورية عظيمـــة منذ القدم ساعد على ذلك توفر المياه والبحيرات التى تعتبر بمثابة خزانات للمياه .» (١) ، أما أوليفيه فقد رأى أن منـــاخ مصر المعتدل هو السبب الرئيسي الذى ساعد على ازدهار الزراعة فقد « اتاح مناخ مصر الدافىء فى الشتاء واعتدال الحرارة فى الصيف الفرصة لنمو الحاصـــلات (٢) بينما عزى ميليه الى أرض مصر الخصـــبة

---

(١) Savary : Op. Cit., + 2 P. 274.

(٢) Olivier : Op. Cit., P. 284.

سبب ازدهار الزراعة فمصر مشهورة بخصوبة أرضها وذلك بسبب ما يحمله لها فيضان النيل من طمى يغذى تربتها فتنتج أجود أنواع الحاصلات » (٣) ، وأرجع فولنى زيادة الانتاج الزراعى فى مصر الى كل من الحرارة والرطوبة معا « ان يسبب نمو الزرع سريعا فى مصر وانما يرجع الى الحرارة والرطوبة معا خاصة فى المناطق الواقعة بين القاهرة ورشيد » (٤) .

وقد تعجب هؤلاء الرحالة من ازدهار الزراعة فى مصر فى ظل الظروف السياسية السيئة فكتب أوليفيه « رغم ما تعانيه مصر من طغيان المماليك وانتشار المجاعات والطاعون وهجمات البدو وفرض الغرامات على الفلاحين الا أن مصر رغم كل هذه المشاكل تتمتع بثروة ورخاء زراعى كبير » (٥) .

لم يكتف الرحالة بالاشادة بثروة مصر الزراعية وتعليل الأسباب وانما وجهوا النقد فى كتاباتهم الى المصريين لعدم استغلالهم هذه الثروة استغلالا سليما فسجل سونينى « ان درجة خصوبة أراضى الصعيد أكثر من أى مكان آخر ولكن المصريين لا يعرفون كيفية الحفاظ على هذه الميزة فهم يتركون الحبوب غنيمة للعصافير ، كذلك لا يحسنون تخزينها مما يؤدى الى انتشار الحشرات فنرى حول الصوامع أسراب الغربان والعصافير خاصة عصفور الجنة تلتهم ما بها من الحبوب » (٦) .

كذلك حذر سافارى من « تراجع مساحة الأراضى الزراعية فى مصر بسبب زحف الرمال عليها » فكان أول من نبه الى هذه

---

(٣) Maillet : Op. Cit., P. 18.

(٤) فولنى : المرجع السابق ص ٥٦ .

(٥) Olivier : Op. Cit., P. 286.

(٦) Sonnini : Op. Cit., + 3 P. 124.

الحقيقة ووجه اللوم الى العثمانيين والمماليك » الذين اهملوا اقامة الجسور والقناطر مما أدى الى اتلاف مساحات كبيرة من الأراضى » (٧) .

وأكد فولني انه رغم خصوبة أراضى مصر توفر المياه اللازمة للرى الا أن تجربة زراعة الحاصلات الأوروبية فيها قد منيت بالفشل « فقد أحضر بعض التجار الفرنسيين بذور بعض النباتات من مالطة وحاولوا زراعتها فى مصر ولكنها لم تحقق اية نتائج وعلل فولنى ذلك لأن نمو النبات فى أرض مصر عنيف الى حد أن تفوته تغذية الألياف الأسفنجية » (٨) .

قسم اوليفيه أراضى مصر الى ثلاثة أنواع :

النوع الأول :

اراض لا تصلها مياه النيل حتى فى زمن الفيضان فتبقى صحراء غير مزروعة مغطاة بالرمال لا تنتج اية محاصيل .

النوع الثانى :

أراض تصلها مياه النيل أثناء الفيضان فقط وفيها تزرع أهم المحاصيل .

النوع الثالث :

أراض تصلها مياه النيل بواسطة السواقى وهى الأراضى التى تزرع فيها المحاصيل الهامة مثل القطن وقصب السكر والأنديجو (النيلة) الأرز ــ الذرة (٩) .

---

(٧) Savary : Op. Cit., + 2 P. 270.

(٨) فولني : المرجع السابق ، ص ٥٦ .

(٩) Olivier : Op. Cit., P. 48.

وتبدو مهارة المصريين على حد قول اوليفيه فى طريقة زراعة أراضيهم « فهم يمهدون الأرض قبل الفيضان ثم يبذرون فيها الحبوب بعد انحساره » ، « ولا يهتم المزارعون فى مصر بأن تأخذ الأرض فترات من الراحة بدون زراعة معتمدين على خصوبتها ويبدو فن ومهارة المصريين فى طريقة زراعة أراضيهم حسب قوة أو ضعف الفيضان » فاذا كان ضعيفا فأنهم « يحرصون على مضاعفة عدد القنوات لكى تمدهم بالمياه طوال العام » أما اذا كان قويا فأنهم يقيمون الجسور المحاذية للنيل حتى لا تتعرض حاصلاتهم للغرق (١٠) .

وقد عدد القنصل الفرنسي ميليه أسماء بعض هذه الجسور مثل جسر النمر وجسر الأسد » وهى أسماء أطلقها الأهالى » (١١) .

أما عن الأدوات المستخدمة فى الزراعة فقد ذكر الرحالة أن المصريين استخدموا الأدوات القديمة المعروفة مثل الساقية والمحراث واوضح سافارى أهمية استخدام السواقى فى حمل المياه الى المناطق البعيدة واكد انه شاهد بنفسه بعض آثار سواقى قديمة فى صحراء ليبيا مما يؤكد وصول مياه النيل الى هذه الجهات (١٢) . والواقع أن ما ذكره الرحالة عن الأدوات المستخدمة فى الزراعة ذكرها أيضا علماء الحملة الفرنسية فكانت لهم نفس الملاحظات عن السواقى وغيرها من الأدوات البدائية (١٣) .

وقد اعتمد المصريون على الحيوانات فى الزراعة للقيام

---

(١٠) Ibid. P. 48.

(١١) Maillet : Op. Cit., P. 48.

(١٢) Savary : Op. Cit., + 2 P. 274.

(١٣) انظر وصف مصر : جـ ٥ ، ص ١٣ ، دراسة لانكريه عن « أدوات الزراعة المستخدمة فى مصر » .

بعملية حرث الأرض وحققوا من هذه الحيوانات فوائد مزدوجة فلم يقتصر استخدامها على الزراعة وانما آفادوا من روث هذه الحيوانات لتسميد الأرض الزراعيـة خاصة روث الحمير والمواشي والجمال (١٤) وقد أشار جرانجيه الى استخدامهم زبل الحمام في تسميد أشجار الفاكهة « وبدونه لا يمكن أن يكون للفاكهـة طعم جميل » (١٥) .

ويعرقل تطور الزراعة فى مصر العديد من المصاعب التى فندها سافارى أهمها من وجهة نظره « الضرائب الباهظة التى تفرض على الفلاحين ، واستخدام البكوات والكشاف القوة والعنف فى تحصيلها من الفلاحين الفقراء الذين لا يجدون مفرا سوى بيع ادواتهم الزراعية لدفع هذه الضرائب » وهذا الاستبداد من جانب البكوات « يجعل الفلاحين عاجزين عن زراعة اجمل وأغنى مزارع العالم » اضف الى ذلك المنازعات والحروب الأهليه بين المماليك وامتدادها الى الريف المصرى مما يعرض الحاصلات للدمار واكد سافارى انه شاهد بنفسه « قرى باكملها احرقت جميع حاصلاتها بسبب الحروب الأهلية والمنازعات » (١٦) .

ادرك اوليفيه اهمية ثروة مصر الزراعية فكتب الى حكومة الادارة يحثهـا على ضرورة الاستيلاء على مصر « ان ثروة مصر الزراعية تجعلنا لابد وأن نفكر فى امتلاكها لكى نجنى العديد من الفوائد ، فاننا نستطيع ان نستفيد من تربتها الخصبة ومن محاصيلها الفنية ونعمل على تطوير الصناعة والتجارة خاصة مع الأمم المتحضرة فى اوروبا وامريكا » وبالغ اوليفيه فى احلامه

---

(١٤) Olivier : Op. Cit., P. 287.

(١٥) Granger : Op. Cit., P. 7.

(١٦) Savary : Op. Cit., + 2 PP. 279 — 281.

فكتب « علينا أن نعمل على احلال شعب جديد فى مصر لكى نتمكن من فتح موانيها لتجارة المحيط الهندى » (١٧) .

لم يكتف الرحالة بالحديث عن ثروة مصر الزراعية وانما اهتموا بتسجيل أهم أنواع الحاصلات كما يلى :

القمح :

كتب أوليفيه « كانت مصر قديما مخزنا للحبوب أفاد منها الرومان والعالم القديم فصدرت انتاجها الى صيدا واليونان والجزيرة العربية أما الآن فهى مخزن الآستانة من الحبوب خاصة القمح الذى يزرع فى نواحى رشيد ودمياط » (١٨) .

ويتأخر موعد زراعته فى الوجة البحرى خمسة عشر يوما عن الوجة القبلى (١٩) فيزرع فى مصر العليا فى نوفمبر ويحصد فى ابريل بينما يتأخر حصاده فى مصر السفلى حتى شهر مايو (٢٠) ويفوق انتاج فدان القمح فى الصعيد مثيله فى الوجه البحرى ولكن على الرغم من هذه الميزة فان سكان الصعيد بؤساء لأنهم لا يعرفون كيفية الافادة من ثروتهم فيتعرض محصول القمح فى الصعيد للتلف من سوء التخزين (٢١) .

ويتم ارسال كميات من القمح والشعير الى الاستانة على ظهر عشرين سفينة والى مكة المكرمة باشراف الباشا فتخرج القوافل

---

(١٧) Olivier : Op. Cit., P. 291.

(١٨) Ibid. P. 291.

(١٩) كتب نفس الملاحظة بير سيمون جيرار فى وصف مصر ، ج ٤ ، ص ٤٤ ، دراسة عن القمح .

(٢٠) Granger : Op. Cit., P. 8.

(٢١) Sonnini : Op. Cit., + 3 P. 221.

من مصر العليا الى القصير ومنها الى البحر الأحمر (٢٢) وتعتبر صوامع مصر القديمة مخزنا للقمح وقد عهد الى أربعة أغوات جمع وتخزين القمح فى كل من المنيا وبنى سويف وجرجا ومنفلوط (٢٣) .

ويعتبر القمح غذاء رئيسيا للسكان فى مصر وهم يصنعون منه الخبز والفريك (٢٤) .

الذرة :

تزرع على ضفاف النيل فى الأماكن التى يمكن ريها بسهولة ويبلغ ارتفاعها خمسة أقدام ويصنع منها المصريون الخبز وقد سمى الاغريق الخبز المصنوع من الذرة باسم Caramboch ولم يعجب جرانجيه بمذاقه فذكر « ان طعمه غير مستساغ » (٢٥) كذلك تزرع فى مصر الذرة العويجة ويصنع منها الخبز أيضا وأحيانا يخلط الذرة مع الشعير ويصنع منه خبزا سيئا للغاية والبعض يضعه فى الماء المغلى ويأكله مع الزبد واللبن (٢٦) .

الأرز :

يزرع فى دمياط ورشيد وذلك بسبب توفر المناخ الملائم والتربة الخصبة وقد أطلق عليه سونينى اسم « الحب الغالى » وهو الغذاء الصحى للسكان والغذاء الرئيسى فى معظم مدن

---

(٢٢) Maillet : Op. Cit., P. 9.

(٢٣) Fourmont : Op. Cit., P. 124.

(٢٤) Sonnini : Op. Cit., + 3 P, 257.

(٢٥) Granger : Op. Cit., P. 8.

(٢٦) Olivier : Op. Cit., P. 294.

مصر (٢٧) وأكد أوليفيه ان انتاج رشيد من الأرز حوالى ١٥٠ ألف أردب يتم ارسال معظمه الى استانبول وسورية واليونان وأزمير (٢٨) .

الشعير :

غذاء للخيول وثمنه أقل بكثير من القمح وترسل كميات كبيرة منه الى الأستانة وأزمير وجزر الأرخبيل (٢٩) .

البقول :

ومن أشهرها العدس ويزرع فى مصر العليا ويتم تصدير كميات كبيرة منه الى الاستانة وأكد اوليفيه « ان العدس المزروع فى فرنسا يفوقه جودة » أما الفول فهو غذاء رئيسى للانسان والحيوان ويزرع بكميات كبيرة ويصدر الى الخارج ونفى أوليفيه كما ذكره هيرودوت عن ان المصريين لا يأكلون الفول ولا يزرعونه فى حقولهم لأن الكهنة يكرهون رؤيته » (٣٠) .

الترمس :

أكد معظم الرحالة ان منطقة امبابة من أشهر المناطق انتاجا للترمس وعدد سونينى فوائده وكيفية تحضيره « فيتم نقعه فى الماء ثم يغلى فى الماء وأحيانا يطحن ويستعمل كمسحوق لتنعيم الجلد وتحرق جذوره مع الفحم كوقود » (٣١) .

---

(٢٧) Savary : Op. Cit., + 1 P. 62.

(٢٨) Olivier : Op. Cit., P. 292.

(٢٩) Ibid. P. 292.

(٣٠) Ibid. P. 294.

(٣١) Sonnini : Op. Cit., + 3 P. 22.

إما الخضراوات فتكثر فى مصر ومنها البصل الذى يزرع بكثرة فى البحيرة (٣٢) وخص أوليفيه هذه المنطقة بانتاج افضل أنواع البصل (٣٣) ، وقد عدد الرحالة أنواع الخضروات المختلفة فى مصر مثل البامية والبسلة والخرشوف .. الخ ويبدو أن الكوسة والقلقاس كان لهما مذاق خاص طيب لدى الفرنسيين ولكن يبدو أحيانا انهم عجزوا عن تحديد بعض أسماء الخضراوات فذكر سافارى « هنالك نوع صغير من الخيار حلو المذاق والطعم يتم طهيه ويسميه السكان الكوسة » (٣٤) ، أما القلقاس فقد نال حظا طيبا من الوصف باسهاب كبير مثلما فعل رحالة القرنين السادس عشر والسابع عشر فقد أفاض رحالة القرن الثامن عشر فى وصف ثمرته وكيفية نموه وتوضيح حلاوة مذاقه والوصف هنا وصف تفصيلى وكأنهم يريدون أن يشاركهم القارىء الفرنسى فى الشعور بحلاوة ومذاق القلقاس فوصف لوكا ثمرته « جميلة كبيرة يتم طهيه مع اللحم من أجمل الخضراوات » (٣٥) وأكد سافارى « انه يزرع بكثرة فى حدائق رشيد وهو متوفر فى الأسواق طوال العام خصصت اله مزارع كبيرة فى دمياط ويبدو

---

(٣٢) ذكر نفس الملاحظة عن زراعة البصل فى البحيرة لانكريه فى دراسته من الريف المصرى فأكد أن البصل يزدع فى أرض الرحمانية وهى الوحيدة فى كل ولاية البحيرة التى يزرع فيها البصل بمساحات واسعة حتى أن باعة الخضر فى مكة يدعون ان البصل الذى يبيعونه من الرحمانية « انظر وصف مصر ج ٥ ، ص ١٢ ، دراسة لانكريه « دراسة عن الريف المصرى فى عصر المماليك والعثمانيين » .

(٣٣) Olivier : Op. Cit., P. 293.

(٣٤) Savary : Op. Cit., + 2 P. 16.

(٣٥) Lucas : Op. Cit., + 3 P, 211.

ان سافاری کان من القلائل الذین لم یفضلوا القلقاس فکتب « طعمه جمیل ولکنه أقل حلاوة من البطاطس » (٣٦) .

اما عن الفواکه فقد أفاض الرحالة فی الحدیث عنها خاصة أشجار النخیل وتزرع بکمیات کبیرة فی الصعید وفی الدلتا وخاصة رشید وقدم الرحالة للقاریء الفرنسی کیفیة اخصاب النخیل (٣٧) فذکر سونینی ان الفلاحین یصعدون أشجار النخیل حیث یضعون زهور الذکور فی منتصف مجموعة من زهور الاناث لزیادة المحاصیل « وعملیة تلقیح الأشجار من المناظر المألوفة فی مصر ویصعد الفلاحون الأشجار وقد ربطوا حبلا فی وسطهم ولدیهم مهارة کبیرة فی تسلق أشجار النخیل » (٣٨) والبلح غذاء هام لسکان مصر له طعم جمیل یستخرج منه شراب بعد تجفیفه ویقوم بهذه العملیة بعض المسیحیین فی مصر کذلك فی بغداد والبصرة (١٩) ولا تقتصر الاستفادة من أشجار النخیل للحصول علی البلح وانما یستخدم المصریون سعف النخیل لتغطیة أسطح منازلهم (٤٠) ، کما یستخدمون الجرید فی صناعة السلال وأکد اولیفیه أن انتاج رشید من النخیل یفوق ای منطقة اخری (٤١) .

اما البطیخ فیزرع فی الصعید علی ضفاف النیل ویزرع فی الرمال وعلل سونینی نجاح زراعته فی الصعید لأنه یحتاج

---

(٣٦) Savary : Op. Cit., + 1 P. 9.

(٣٧) نفس ملاحظات علماء الحملة ، انظر وصف مصر ، جـ ٥ ص ٩٩ ، جیرار « طریقة اخصاب النخیل » (ه)

(٣٨) Sonnini : Op. Cit., + 2 P. 269.

(٣٩) Olivier : Op. Cit., P. 308.

(٤٠) Sonnini : Op. Cit., + 2 P, 269.

(٤١) Olivier : Op. Cit., P. 92.

للحرارة وثمرته مفيدة لسكان هذه المناطق لأنها تسبب لهم الانتعاش وسط مناخ الصعيد الحار (٤٢) .

ومن أهم الفواكه التى افتت انظار الرحالة الموز ولكن ملاحظاتهم عنه لا تختلف عما ذكره رحالة القرنين السادس عشر والسابع عشر خاصة وصف العالم الطبيعى بيلون دى مان واجود مناطق زراعته فى دمياط والدلتا (٤٣) .

ويزرع التوت الأبيض فى رشيد ودمياط اما التوت الأسود فيزرع فى مصر السفلى بصفة عامة « وثماره أجمل من ثمار التوت فى أوروبا » وأبدى أوليفيه أسفه « لأن السكان فى مصر لا يحاولون الافادة من اشجار التوت لتربية دودة القز واستخراج الحرير » (٤٤) .

ويزرع النبق فى الحدائق « وهو متعدد الأنواع » على حد قول اوليفيه (٤٥) وقدم سونينى وصفا لشجرة النبق « شجرة كبيرة طويلة عريضة ضخمة تشبه التفاح ولكن ثمرتها أصغر » (٤٦) .

اما التين فيعرف بشجرة آدم وتين الفراعنة وطعمه جميل واشجاره ضخمة وثمارها جميلة (٤٧) .

---

(٤٢) Sonnini : Op. Cit., + 3 P. 192.

(٤٣) كتب بيلون ان العرب يعتبرون ان الموز هو الثمرة التى حرمها الله على آدم .

(٤٤) Olivier : Op. Cit., P. 309.

(٤٥) Ibid. P. 306.

(٤٦) Sonnini : Op. Cit., + 2 P. 222.

(٤٧) Ibid. P. 267.

واشجار الجميز فى مصر كبيرة الحجم وهى تفوق أشجار الجميز فى أوروبا من حيث الارتفاع والضخامة وثمرتها جميلة الطعم ولكن خشب الجميز غير مفيد ولذلك يقتصر استخدامه كوقود (٤٨) .

ويزرع قصب السكر فى مصر العليا وقد ارتفعت أسعاره فى أوروبا خاصة البندقية ليفورن — تريستا — وأجود أنواعه فى الفيوم وهو يحتاج الى عشرة أشهر للنمو على عكس الحال فى « مستعمرتنا الأمريكية حيث ينمو القصب خلال أربعة عشر شهرا » والمصريون يعشقون القصب ويمصونه طوال اليوم ويصنعون منه أنواعا من المربى والشربات ويستفيدون منه للحصول على السكر » و « رغم توافر قصب السكر فى الصيف الا انه يختفى من محلات القاهرة فى فصل الشتاء » وقد اقيمت مصانع لاستخراج السكر فى كل من جرجا وفرشوط واخميم (٤٩) .

اما أجود أنواع الخوخ فتأتى من سيناء حيث ينمو بريا وطعمه جميل ، وتحصل مصر على (كفايتها) منه من رودس ودمشق (٥٠) .

وتزرع القشطة فى دمياط ورشيد وضواحى القاهرة وأشجارها مرتفعة ثمرتها جميلة « آسفنا لأنها لا تزرع بكثرة فى مصر » هكذا كتب أوليفيه (٥١) .

أما الشمام فيزرع فى الوجه القبلى ويعرف بالنمس طعمه جميل يسميه السكان « عبد الحلاوة » تنتشر زراعته فى قوص

---

(٤٨) Olivier : Op. Cit., P. 305.

(٤٩) Ibid. P. 302.

(٥٠) Maillet : Op. Cit., P. 16.

(٥١) Olivier : Op. Cit., P. 310.

وكتب سونينى عن مزارع شاسعة للشمام تجول فيها تخص المعلم بقطر واكد أن مذاق الشمام والبطيخ فى وجه قبلى اكثر حلاوة من وجه بحرى (٥٢) .

وينمو العنب فى مصر بكثرة وتعجب ميليه من أن أوراقه يتم طهيها وقدم لنا وصفا لطريقة طهيه مع الأرز واللحم مؤكدا جمال طعمه (٥٣) .

ومن الحاصلات التى كتب عنها الرحالة الكتان فأكدوا توفره فى مصر وعلل أوليفيه ذلك « بسبب ملاءمة مناخ مصر لنموه وتمتد مناطق انتاجه الرئيسى من الدلتا حتى الفيوم ويصنع منه خيوط لغزل الملابس ويصدر الى فرنسا وايطاليا ولا تقتصر أهميته على الافادة من خيوطه وانما يستخرج منه الزيت وتصدر كميات قليلة منه الى الاستانة » (٥٤) .

اما القطن (٥٥) فهو لا يزرع بكثرة مثل الكتان وعلل أوليفيه ذلك « لأن المحصول ينمو فى الصيف حيث تكون الأراضى مغمورة بمياه الفيضان وتزرع كميات كبيرة منه فى دمنهور وينقل الى رشيد والاسكندرية ويصل القاهرة كميات بسيطة منه » (٥٦) .

وينمو الزعفران فى مصر على مياه الأمطار وزهرته رقيقة اعتاد التجار الفرنسيون شراء كميات كبيرة منه لتصديرها الى مارسيليا حيث تستخدم زهرته فى الصباغة (٥٧) .

---

(٥٢) Sonnini : Op. Cit., + 3 P. 245.

(٥٣) Maillet : Op. Cit., P. 17.

(٥٤) Olivier : Op. Cit., P. 297.

(٥٥) المقصود هنا بالقطن صنف ردىء وليس القطن الذى عرفته مصر فى عهد محمد على .

(٥٦) Olivier : Op. Cit., P. 298.

(٥٧) Ibid. P. 299.

وتستخدم النيلة (الأنديجو) فى الصباغة أيضا ويزرع بكميات كبيرة فى الصعيد ولما كانت النيلة احد مصادر ثروة المستعمرات الفرنسية فى أمريكا فقد اهتم أوليفيه بالحديث عنه مقارنا بين الصنفين « فأكد ان انديجو أمريكا افضل فهو فى مصر اقل جودة ولكنه أفضل لونا ولو احسن تصنيعه فى مصر لنافس انديجو أمريكا » (٥٨) .

ومن أهم النباتات التى جاء ذكرها فى كتابات الرحالة القرطم وهو يستخدم فى الصباغة ويزرع فى القاهرة وتستخرج من زهوره صبغة صفراء تصدر الي الخارج (٥٩) ، اما اللوتس فقد أطلق عليها سافاري نفس ملاحظة هيرودوت « انه سرير النيل » (٦٠) .

اما حبة البركة أو الحبة السوداء وتسمى نجيلة دمشق تزرع فى الصعيد بكميات كبيرة توضع مع الخبز تحرص النساء على شرائها لأنها تعطى مذاقا طيبا للطعام (٦١) .

وللحنة استخدامات متنوعة فهى تستخدم فى الصباغة وتخصيب (تلوين) الأظافر أوراقها بيضاء تنمو طبيعيا وقد قدم سونينى وصفا لكيفية تخصيب الأيدى والأرجل بالحنة حتى تصطبغ باللون الأحمر وهى تستخدم فى الاحتفالات وفى الحمامات (٦٢) .

---

(٥٨) Ibid. P. 300.

(٥٩) Ibid. P. 296.

(٦٠) Savary : Op. Cit., + 1 P. 8.

(٦١) Olivier : Op. Cit., P, 208.

(٦٢) Sonnini : Op. cit., + 1 P. 294.

كذلك كتب الرحالة عن الحشيش وزراعته فى مصر فذكر سونينى « ان المصريين يسمونه الكيف » (٦٣) ، واكد أوليفيه ان المصريين كانوا يزرعون الخشخاش « ولكنه أصبح نادرا اليوم » وكما يزرعون القنب ويستخدمون أوراقه وثمنه أقل من ثمن الخشخاش ويستخدم على شكل مسحوق ويخلط مع العسل (٦٤) .

وينمو الريحان فى الحدائق وله رائحة جميلة ويستخدم فى الزينة (٦٥) ، كذلك ينمو اللبلاب فى الحدائق وهو نبات متسلق يشاهد على جدران النوافذ ويساعد على انتعاش وتلطيف الجو (٦٦) .

كذلك قدم الرحالة وصفا تفصيليا لأشجار الطلح وهى التى افاض فى الحديث عنها من قبل رحالة القرنين السادس عشر والسابع عشر (٦٧) ، وذكر أوليفيه أن أرتفاع هذه الأشجار حوالى اثنى عشر قدما أخشابها صلبة زهورها تشبه تلك التى تزرع فى فرنسا وتستخدم فى صناعة العطور (٦٨) .

أما عن ثروة مصر الحيوانية فقد قدم الرحالة وصفا دقيقا تفصيليا عن الحيوانات والطيور فى مصر أسوة بالرحالة السابقين فاكدوا غنى مصر بالأبقار والماشية والجاموس والعجول والأغنام

---

(٦٣) Ibid, P. 294.

(٦٤) Olivier : Op. Cit., P. 297.

(٦٥) Ibid, P. 312.

(٦٦) Ibid, P. 312.

(٦٧) وصف بيلون والحسن بن الوزان (ليو الافريقى) من اشجار الطلح وصفا دقيقا « بأنها شجرة شوكية تنتج قان من الصمغ يشبه المستكة » .

(٦٨) Olivier : Op. Cit., P. 306.

والماعز وأكدوا نفس الملاحظات التى أوردها الرحالة السابقون خاصة فيما يتعلق بحجم الماشية فذكروا ان حجم الماشية فى مصر يفوق حجمها فى أى بلد آخر كذلك ذكروا أن حجمها فى الوجه البحرى يفوق حجمها فى الوجه القبلى وأضاف سونينى « ان الماشية والأغنام فى مصر العليا يغلب عليها الشراسة والتوحش » وعلل ذلك « لطبيعة اراضى الوجه القبلى فهى محصورة بين جبال البحر الأحمر والنيل ولذلك اكتسبت الحيوانات فى هذه المناطق شراسة واضحة » كذلك اورد سببا آخر الا وهو ارتفاع درجة الحرارة فى صعيد مصر (٦٩) ، وقد أكد علماء الحملة الفرنسية نفس هذه الملاحظات فذكر جيرار « ان قطعان الجاموس اقل فظاظة كلما هبطنا نحو الشمال » (٧٠).

وتأتى الماعز الى مصر من الحبشة وهى أصغر حجما فى الوجه القبلى عن الوجه البحرى (٧١) .

أما الجمال فقد خصصت للانتقال والسير فى الصحراء وأكد اوليفيه أن طبيعة تكوين الجمال وأقدامهم العريضة قد ساعدت على تحملهم مشاق الصحراء والسير على الصخور الجافة الصخرية ولذلك فالجمل حيوان مقيد على حد قول أوليفيه وهو معروف فى فارس وآسيا الصغرى ثم اعطى اوليفيه وصفا دقيقا للجمال عن كيفيه اختزان الجمل للمياه فى أمعائه للافادة منها فيما بعد (٧٢) .

أما الخنازير فقد ذكر الرحالة « ان المصريين يمتنعون عن

---

(٦٩) Sonnini : Op. Cit., + 3 P. 197.

(٧٠) انظر وصف مصر ، جـ ٥ ، ص ١٠٥ .

(٧١) Sonnini : Op. Cit., + 3 P. 290.

(٧٢) Olivier : Op. Cit., P. 176.

أكله لأن لحمــه محرم فى شريعتهم » وأكد سونينى « انه اذا مس الخنزير شخصا مسلما فانه يسرع بالقاء نفسه فى النيل ليتطهر منه باعتباره نجسا » ولا يقتصر الامتناع عن تناول لحم الخنزير على المسلمين فقط وانما لا يأكله اليهود ايضــا ورغم عدم تحريمه على الأقباط الا انهم لا يأكلون لحم هذا الحيوان الا نادرا (٧٣) .

ومن الحيوانات التى خصص الرحــالة السابقون فصـــولا بأكملها للحديث عنها فرس النهر وقد لقى نفس الاهتمـــام من رحالة القرن الثامن عشر ولكن سونينى أكد ان أعداده تناقصت بدرجــة كبيرة ملحوظة عن القرنين الســـابقين وعلل ذلك « لأن المماليك استخدموا الأســلحة النارية لصيده وانه شاهـــدهم ينصبون الخيام ويقيمون المعسكرات لعدة أيام خصيصا لصيده » وكتب سونينى آسفا على تناقص أعداد فرس النهر « والذى كان يشاهد كثيرا فى دمياط » (٧٤) وقد علل العــالم سونينى سبب تواجد فرس النهر فى نيل دمياط « ان ذلك يرجع الى طبيعته حيث يكثر ويتواجد عند مصبات الأنهار » (٧٥) .

واضف الى فرس النهر اهتمـــام الرحالة بالحـــديث عن وعل الأوريكس او المهـــا ، كذلك قط الزباد والأنواع المختلفة فى صحراء سيناء والصحراء الشرقية وقد سبقهم فى الكتابة عنها من سبقوهم من الرحالة (٧٦) .

---

(٧٣) Sonnini : Op. Cit., + 3 P. 293.

(٧٤) اكد نرمنال فى القرن ١٧ أن فرس النهر لا يتواجد الا فى نيل دمياط فقط .

(٧٥) Sonnini : Op. Cit., + 3 PP. 199 — 204.

(٧٦) وعل الأوريكس يشبه الثور وان كان اصغر حجما ، اما قط الزباد فيستخرج الزباد من ذيله وحالبيه .

أما الزواحف فقد أسهب الرحالة فى وصفها ولم تختلف ملاحظاتهم كثيرا عمن سبقوهم من الرحالة (٧٧) ولعل التمساح قد نال نصيبا كبيرا من الاهتمام فحرص الرحالة على وصف جسده وأبدى لوكا دهشته عندما شاهد مجموعة من العصافير تقوم بتنظيف أسنان التماسيح دون أن يمسوها بسوء (٧٨) .

وتحوى مصر اعدادا كبيرة من الطيور منها البجع الذى لقبه سافارى « بملك الطيور » لبياض وجمال لونه ، كذلك عدد الرحالة فوائد أبو قردان » فهو يقوم بالتهام الثعابين والضفادع (٧٩) . ومصر مشهورة بالحمام وقد أقيمت له الأبراج العالية وهناك أنواع منه استخدمت فى المراسلات (٨٠) وقد حدد ميليه أماكن الحمام الزاجل فكتب انه « أقيمت له الأبراج فى القلعة ولها اتصال بأبراج ديار بكر ودمشق والقدس وحلب » وتعجب القنصل ميليه من عدم وجود أبراج للحمام الزاجل الا فى القاهرة فلا توجد أبراج فى دمياط ولا فى الاسكندرية وابدى دهشته من قدرة الحمام الزاجل على قطع المسافة مباشرة من القاهرة الى دمشق وغيرها من المدن والمناطق واكد ان هذا الحمام استخدم لتبادل المراسلات الهامة ولكنه ايضا استخدام فى بعض الأحيان لتبادل بعض الرسائل الغرامية فقد عثر ميليه على رسالة من سيدة فى القاهرة وجهتها الى شخص فى حلب تضمنت الرسالة أبياتا من الشعر أبياتا كتبها ميليه كما هى باللغة

---

(٧٧) خصص بيلون فصلا بأكمله لوصف شكل التمساح كذلك أوضح فرمنال طرق صيده ، انظر الهام ذهنى المرجع السابق ، ص ١٣٠ .

(٧٨) Lucas : Op. Cit., + 3 P. 9.

(٧٩) Savary : Op. Cit., + 2 P. 45.

(٨٠) الحمام الزاجل .

العربيــة ولكن بحروف فرنســية حوت عبــارات عن لقــاء المحبوب (٨١) .

ويهــدد الطيور فى مصر حيوان النمس الذى أطلق عليــه الرحالة فأر الفراعنة وهو نفس اللفظ الذى أطلقه عليه من قبل الرحــالة السابقون وأكد أوليفيه ان النمس يربى فى الحــدائق للتخلص من القطط والفئران ولكنه يأكل الدجاج والطيور وهو يشكل خطرا كبيرا على الطيور (٨٢) .

ومن الحيوانات التى هددت الطيور فى مصر الفأر النطاط وقد ذكر سونينى « انه يأكل العصافير يساعده على ذلك أسنانه القوية وله آذان طويلة وشــعره يغطى جسده » وهو يشــبه الأرنب ويعيش فى افريقيا وأرجله الخلفية أطول من الأماميــة يقفز مثل العصافير وقد أشار الى هذا الفأر هيرودوت كذلك الرحالة البريطانى بروس وقدم سونينى بحثا عنه عام ١٧٨٩ م نشر فى فرنسا (٨٣) . .

ويبدو ان الطيور فى مصر لم تلفت أنظار الرحالة الفرنسيين وانما تحدث عنها الرحالة الروس أيضا خاصة الرحالة فيشنسكى فخصص فصلين للحديث عن طيور مصر معللا أســباب تكاثرها لمناخ مصر المعتدل الذى يمتــاز بالدفء طوال العام وقد كتب واصــفا النعــام « لديهــا نظرة حــادة تأكل كل شيء حتى الحديد » (٨٤) .

---

(٨١) Maillet : Op. Cit., PP. 140 — 142.
(٨٢) Olivier : Op. Cit., P. 101.
(٨٣) Sonnini : Op. Cit., + 1 PP. 156 — 165.
(٨٤) Volkoff : Op. Cit., P. 58.

واخيرا لقد قدم لنا الرحالة وصفا للحشرات ويبدو انهم عانوا من لدغها ، فكتب سونيني « أن سكان مصر اعتادوا على لدغ الحشرات فلم تعد تسبب لهم ألما خاصة فى الوجه القبلى » وعزى سونيني تدهور صحة سكان مصر بسبب انتشار الكميات الكبيرة من الناموس التى تملأ الجو ، ولكن هناك بعض الحشرات النافعة لعل أهمها النحل الذى يكثر فى الصعيد والوجه البحرى خاصة فى الصيف والمصريون لديهم مهارة كبيرة فى تربيته (٨٥) . وكتب سافارى بشاعريته ان من أجمل المناظر التى يراها المرء هى « عودة النحل » الى خلاياه بعد أن تجول بين ازهار البرتقال المعطرة فى الصعيد وأزهار الورود فى الفيوم وأشجار الياسمين فيعود لخلاياه ليعطى ثروة جديدة من العسل اللذيذ الطعم » (٨٦) .

---

(٨٥) Sonnini : Op. Cit., + 3 PP. 224 — 229.

(٨٦) Savary : Op. Cit., + 3 P. 283.

اما عن الصناعة فلم تعرف مصر الصناعات الكبرى كما أوضح الرحالة وانما عرفت الصناعات الصغرى وكان نظام الطوائف هو السائد فى مصر وقد وصف ميليه الصناعة فى مصر « بأنها بدائية متأخرة متدهورة » (٨٧) وعبر سونينى عن أسفه لتدهور الصناعة فى مصر وهى التى كانت صاحبة حضارة عريقة (٨٨) .

تحدث الرحالة الفرنسيون عن بعض الصناعات المنتشرة فى مصر خاصة استخراج ملح النشادر من وادى النطرون واستخدامه لاكساب الأقمشة اللون الأبيض وانتشار مصانعه فى رشيد وفى مصر . وهنا نوع منه يعرف بالنشادر السلطانى يتم تصدير كميات كبيرة منه الى فرنسا خاصة مارسيليا وروان ويستخدم فى الصباغة ويتم اكساب الأقمشة اللون الأبيض عن طريق سكب الماء البارد على القماش لمدة ثلاثة ايام ثم يغلى الماء ويوضع له النشادر (٨٩) .

وقد أشار العلماء الفرنسيون فى دراستهم فى وصف مصر الى هذه الصناعة مؤكدين اهتمام الرحالة والعلماء بها فى

---

(٨٧) Maillet : Op. Cit., P. 194.

(٨٨) Sonnini : Op. Cit., + 1 P. 257.

(٨٩) Ibid, P. 252.

القرن الثامن عشر فقد لفتت هذه الصناعة أنظار الرحالة منذ بداية القرن الثامن عشر فكتب عنها الأب سيكار عام ١٧١٦ م ثم قدم دراسته عنهـا الى الأكاديمية فى فرنسـا مؤكدا ان ملح النشادر يمكن الافادة منه عن طريق التصعيد وأكد فى رسالته التى نشرت فى يونيو ١٧١٦ م فى المجلد الثانى من دراسات مبشرى صحبة يسوع فى الشرق ردا على أسئلة الأكاديمية على طريقة صناعة ملح النوشادر فى مصر ، ثم أكد هذه الحقيقة القنصل الفرنسى لى مير عام ١٧١٩ م فى رسالة الى الأكاديمية عن أن ملح النوشادر يستخلص عن طريق التصعيد » (٩٠) .

وتعتبر صناعة الجلود من الصناعات الهامة فى مصر وعلل أوليفيه انتعاش هذه الصناعة بسبب توافر وتكاثر الماشية فى مصر ورد ذلك الى اعتدال المناخ وتوافر مياه النيل (٩١) .

ورغم ندرة الأخشاب فى مصر الا أن هنـاك العديد من الصناعات الخشبية لعل اهمها صناعة المراكب والتى تم شراء أخشابها المتينة من دنقلة فتم بناء المراكب القادرة على اجتياز مناطق الشلالات والجنادل ، وقد ذكر الرحالة بعض أنواع القوارب « وفى مصر مراكب تشبه مراكب الفلاندر فى هولندا تستخدم للمرور من مدينة الى أخرى وبها أماكن مخصصة للنساء وحجرة مخصصة للرجال وحجرة الخدم تستخدم للطهى، كذلك توجد مراكب ثلاثة أدوار تحمل عددا كبيرا من الناس تشبه القصور المفروشة بالسجاجيد ويفضل سكان القاهرة الانتقال

---

(٩٠) انظر دراسة الكيمائى كولليه ديكوتيل عن صناعة ملح النوشادر ، وصف مصر ، جـ ٦ ، ص ٢٩٢ .

(٩١) Olivier : Op. Cit., P. 314.

فى هذه المراكب على أصوات الموسيقى » (٩٢) ، وهنـاك نوع من السفن يسمى الجرمة « وهى مركب بحيرة ظهرها صلب منخفضة من الأمام صممت بهذا الشكل لتستطيع عبور النيل بسـهولة بها مجدافان وثلاثة قلوع » (٩٣) .

أما عن صناعة المنسوجات فقد وجد الرحالة ان فرنسـا تفوق مصر فى انتـاج المنسوجات « منســوجات مصر من القطن والحرير ليســت جميـلة وذلك لأن أدوات المصريين بدائيـة » ويستخدم القطن المغزول فى رشيد فى صناعة المنسوجات القطنية التى تصنع منها ملابس الفلاحين ويوجد فى رشيد ثمانيـة مغازل ويتم تعبئة القطن فى بالات بعد تنظيفه ويوجد فى رشيد ١٠٢ محلا تعمل فى القطن وتصـدر الى الخـارج ، وتنتشر صناعة الغزل والنسيج فى الوجه القبلى فى اسنا وقوص ــ قنا ــ بنى سويف ، كما تنتشر صناعـة الكتـان والمنسوجات المصنعة من الكتـان والصوف فى دمياط والمحلة الكبرى (٩٤) .

وتنتشر فى مصر صناعة الأوانى الفخارية والزجاج ويستخدم روث الأبقار كوقود لاشعال النيران (٩٥) .

ومن الصناعات الغذائية الهامة ضرب الأرز وتبييضه خاصة فى رشيد التى يوجد بها خمسون مصنعا لضرب الأرز ، ثلاثون منها تستخدم فيها الماشية لادارة العجلات أما باقى المصـانع فيستخدم فيها القوى البشرية (٩٦) .

---

(٩٢) Maillet : Op. Cit., P. 80.

(٩٣) Olivier : Op. Cit., PP. 83 — 97.

(٩٤) Ibid, P. 98.

(٩٥) Granger : Op. Cit., P. 258.

(٩٦) Olivier : Op. Cit., P. 99.

وفى صناعة الزيوت يستخرج الزيت من بذور الخس والقرطم والسمسم والكتان ويقتصر طعام الأثرياء على زيت الزيتون المجلوب من تونس والمغرب ولكن معظم السكان يعتمدون على السمسم فى الحصول على الزيت وتستخدم بقاياه علفا للحيوان (٩٧) .

وتنتشر صناعة شمع العسل فى مصر وعلل أوليفيه انتشار هذه الصناعة لأن مصر بها كميات كبيرة من الورود والزهور ويجيد الأقباط العمل فى هذه الصناعة خاصة فى الصعيد حيث يتوافر العسل وقد فرض المماليك الضرائب على هذه الصناعة (٩٨) .

أما صناعة تفريخ البيض (٩٩) ، والمقصود بهذه الصناعة هو استخراج الكتاكيت دون اللجوء الى طريقة الحضانة الطبيعية وذلك بابدال حرارة الدجاج بحرار مشابهة يتم الحصول عليها بشكل صناعى فى أنواع من الأفران عرفها الرومان والمصريون وتحدث عنها بلينى ويستخدم المعمل فى الحضانة الواحدة تفريخ من ثلاثة آلاف الى أربعة آلاف ، يتم صف البيض فى أفران متعددة الطوابق ويكون الطابق الأخير مثقوبا ويتم اشعال نار هادئة لمدة أسبوع فيبدأ بعد ذلك خروج الكتاكيت الصغيرة ، وقد قدم الرحالة وصفا لهذه الصناعة فوصفها جرانجيه وسيكار

---

(٩٧) Ibid, P. 99.

(٩٨) Ibid, P. 313.

(٩٩) ذكر هذه الصناعة الرحالة الفرنسيون فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، انظر الهام ذهنى ص ٨٣ ، تحدث عنها كذلك علماء الحملة الفرنسية ، انظر وصف مصر ، جـ ٦ ، ص ٢٦٧ ، دراسة المهندس روزيير واليدلى روبيه عن « صناعة تفريخ البيض » .

كذلك غيرهم من الرحـــالة الذين زاروا مصر مثـل نوردون ونيبور (١٠٠) .

وفى مدن مصر الساحلية انتشرت صناعة تمليح الأسماك خاصة فى دمياط ورشـــيد وعلل أوليفيه ذلك « بسبب انتشار الملاحات فى هذه المناطق ولذلك اختصت مدن شـــمال مصر بهذه الصناعة » (١٠١) .

التجــــارة :

رغم ما أصاب مصر من تدهور سياسى فى القرن الثامن عشر الا انها ظلت سوقا للمتاجر الواردة اليها من الشرق والبحر الأحمر وذلك لأنها تمتعت بموقـع جغرافى هــام بين البحر المتوســط وآسيا وافريقيا وأوروبا والهند فظلت مركز المواصلات والتجارة فى العالم (١٠٢) . فمصر تتصـــل بالهند بواسطة البحر الأحمر وتفد السفن الى ميـنـــاء السويس محملة ببضـــائع الهند وبلاد العرب حيث تنقلها القوافل الى القاهرة ومنها الى الاسكندرية(١٠٣) وفى الاسكندرية تصـــل السفن القادمة من أوروبا وآسيا الصغرى وســـورية وبلاد المغرب لتحصـــل على البضـــائع الشرقيـــة والافريقية (١٠٤) .

وتتصل مصر بافريقيا بواســـطة القوافل فتصـــلها القوافل القادمة من الحبشة والنوبة كذلك يفد اليها من غرب افريقيـــا

---

(١٠٠) Granger : Op. Cit., P. 157.

(١٠١) Oliver : Op. Cit., P. 96.

(١٠٢) Olivier : Op. Cit., P. 316.

(١٠٣) Fourmont : Op. Cit., P. 23.

(١٠٤) Lucas : Op. Cit., + 3 P. 185.

القوافل القادمة من دارفور وكردفان والتى تسير بمحاذاة نه
النيل حتى دنقلة ثم تعبر الشلالات والجنادل متبعة مجرى النيـ
حتى أسيوط التى مثلت فى القرن الثامن عشر مستودعا للسـ
الافريقية (١٠٥) ، كذلك تصل الى مصر القوافل القادمة من بلا
الشام ومكة وفارس حاملة بضائع هذه المناطق (١٠٦) .

وظلت موانى البحر المتوسط مثل الاسكندرية ورشـ
ودمياط تتعامل مع مدن فرنسا خاصة مارسيليا وليفورن و
جنوة والبندقية وكريت واليونان وازمير ومدن بلاد الشام (١٠٧)

واستمر عمل الوكالات فى مصر حيث يحفظ التجار بضائعـ
وضمت هذه الوكالات التجار من مختلف الجنسيات (١٠٨) .

اوضح الرحالة الفرنسيون أهم صادرات مصر الى فرنـ
كما يلى :

البـــن :

يمثل البن أهمية اقتصادية كبيرة وحققت تجارته اربا
كبيرة فى فرنسا خاصة وان شرب البن (القهوة) انتشر بشـ
ملحوظ منذ عهد لويس الرابع عشر وقد قدر القنصل الفرنـ
ميليه ما استورده الفرنسيون من البن فى عام ١٧٨٦ م بنـ
٢٫٧٢٩٫٠٠٠ جنيه (١٠٩) .

وقد ذكر أوليفيه ان هناك ثلاثين مركبا تحضر البن سنو

---

(١٠٥) ..allet : Op. Cit., PP. 215 — 220.
(١٠٦) ..id, P. 220.
(١٠٧) ..cas : Op. Cit., + 3 P. 185.
(١٠٨) ..urmont : Op. Cit., P. 66.
(١٠٩) ..ement : Op. Cit., P. 128.

من جدة الى السويس ويبلغ قيمة ما تحمله ١٥ مليون فرنك ؛ فالبن مطلوب فى سورية وازمير والآستانة وقد صدرت كميات كبيرة من الخليج العربى الى البصرة ثم بغداد والموصل وديار بكر ثم آسيا الصغرى ولكن تجار فرنسا خاصة تجار ايفورن ومارسيليا يحصلون عليه من الاسكندرية ويتراوح قيمة ما يشترونه منه مليون الى ثلاث ملايين فرنك سنويا ويرتفع ثمن البن فى مصر من مدينة الى اخرى فهو ينقل من القصير الى قنا ثم ابنوب وقوص حتى يصل الى الاسكندرية فيضاف اليه ثمن انتقاله من القاهرة ، واجود انواع البن بن مخا « وهو يماثل فى جودته بن البرازيل » (١١٠) .

الجلود :

كتب الوزير الفرنسي بونشرتران عام ١٦٩٢ م « ان أجود وافضل انواع الجلود التى ترد الينا هى جلود مصر » وقد اقبل التجار الفرنسيون على شراء الجلود المصرية اقبالا كبيرا حتى انه تكونت الشركات لشرائه من مصر منذ عام ١٦٩٢ م وعينت غرفة تجارة مارسيليا مراقبا منهـا فى عـام ١٧١٩ م واصبح مراقب الجلود فى الاسكندرية يشترى الجلود ليس فقط لصالح الفرنسيين وانما لصالح اليهود والبريطانيين كذلك وقد حرص القناصل الفرنسيون على تنظيم عملية شراء الجلود بين التجار الفرنسيين منعا للتنافس فيما بينهم (١١١) .

السنا :

نبات طبى ينمو فى مصر العليا والنوبة وفى سنار فى السودان يوجد فى الأراضى الرملية التى تصل اليها مياه النيل وهناك

---

(١١٠) Sonnini : Op. Cit., + 3 P. 219.

(١١١) Clement : Op. Cit., P. 126.

نوعان ، الأول منه أوراقه مدببة ، والثانى أوراقه عريضة ، وتجيء منه كميات كبيرة من مصر العليا الى بولاق والقاهرة حيث ينقل بعد ذلك الى أوروبا والاستانة وفارس وبلغ قيمة ما صدرته مصر الى أوروبا خمسة ملايين فرنك (١١٢) .

التمر هندى :

تأتى به القوافل من النوبة وأثيوبيا حيث ينمو فى الأراضى الخصبة كما يزرع فى حدائق القاهرة ورشيد ويستهلك جزء كبير منه محليا وهو مشروب ملطف للحرارة وتصدر منه مصر كميات كبيرة الى أوروبا وفرنسا (١١٣) .

الصمغ العربى :

ويعتبر من أهم الصادرات لمصر وهو ينمو فى مصر العليا ويصل الصمغ الى القاهرة بواسطة القوافل وقد بلغ قيمة ما يحصل عليه تجار مارسيليا من الصمغ من الاسكندرية نحو ٣٠٠ الف فرنك سنويا .

والصمغ أنواع فهناك نوع من الصمغ العربى يصل الى مصر من جدة وينقل من السويس الى القاهرة بواسطة القوافل ويستورد تجار مارسيليا ما قيمته ٤٠٠ الف فرنك سنويا . وهناك نوع آخر يسمى صمغ Turique ينمو فى داخل افريقيا من نفس الشجرة التى تخرج الصمغ ولكن الأول يمتاز بأن حجمه أكبر واقل شفافية .

---

(١١٢) Olivier : Op. Cit., P. 327.

(١١٣) Olivier : Op. Cit., P. 327.

صمغ السندر :

ويوجد فى فارس والجزيرة العربية يشتريه التجار الاوروبيون بكميات كبيرة من أسواق القاهرة .

صمغ الراتنجى :

ينمو فى جنوب مصر والجزيرة العربية والليبية وجنوب شرق فارس .

صمغ جلبينة :

ينمو فى جنوب مصر والجزيرة العربية وفارس ، يصل ميناء السويس ومنه الى القاهرة ويحصل تجار مارسيليا وايطاليا على كميات كبيرة منه .

صمغ الحتليت :

وهو كريه الرائحة ينمو فى فارس ـ قندهار ـ شمال هندوستان ـ مسقط ـ نجد ـ مخا وتحمله السفن الى السويس ومنه الى القاهرة والاسكندرية ويبلغ قيمة ما يحصل عليه تجار مارسيليا سنويا نحو اربعة آلاف فرنك (١١٤) .

البخور :

من اهم صادرات مصر يتم جلبه من الجزيرة العربية وساحل شرق افريقيا الى السويس ثم القاهرة ويصدر الى الاستانة واوروبا وليفورن والبندقية ويبلغ قيمة ما يحصل عليه الفرنسيون من البخور سنويا حوالي ٢٠٠ الف فرنك .

---

(١١٤) Ibid. PP. 329 — 331.

المــــر :

تحضره القوافل الى القاهرة ويصــدر منهـا الى الاستانة وتستورد ليفورن ومارسيليا كميات كبيرة منه فتستورد ما قيمته اربعة آلاف فرنك .

الالوة او الصبر :

يصل الى القاهرة بواسطة القوافل من داخل افريقيا والبعض منه يصـــل من بلاد العرب الى الســـويس ثم القاهرة ويصـــدر الى الاستانة وايطاليا ويبلغ قيمة ما تستورده مارسيليا سنويا من ثلاث آلاف الى أربعة آلاف فرنك .

بلسـم مـكة :

كان يباع قديما بوزنه ذهبـا وهو ينقل الى القاهرة ومنه الى أوروبا وهو افضل من بلسم أمريكا كما أن سعره اقل .

الكركـــم :

ينمو فى سيلان ــ ساحل الملبار ــ الهند ــ ويصل من البحر الأحمر الى السويس ومنها الى القاهرة ويصـــدر الى مارسيليا ما قيمته ألفان أو ثلاثة آلاف فرنك سنويا .

بوصـــير

ثمرة طبية يسميها الفرنسيون ديك الشرق تنمو فى جزر الهند الشرقيــة وتصـــدر منه مصر الى مارســيليا ما قيمتـــه ٢٠ ألف فرنك .

الأبنـــوس :

يتم جلبه من داخل افريقيا ويصدر الى أوروبا وأمريكا .

ومارسيليا والتى تحصـل على ما قيمته من عشرة آلاف الى عشرين ألف فرنك .

تراب الذهب :

يتم تجميعه من ضفاف أنهار افريقيـا الداخليـة وتصنع الحكومة المصرية العملة المصرية منه فى القارة ويستورد الفرنسيون منه كميات معقولة (١١٥) .

ريش النعـام :

يتم احضاره من افريقيا ويصدر الى مارسيليا ما قيمته ٤٠ الى ٥٠ ألف فرنك .

شـجرة اهليلج

شجر يأتى من الهند يستخدمه الأطباء فى العلاج ويصـدر الى ليفورن ـ مارسيليا .

جـذور Pyrêtre :

نوع من الحشيش الكافورى معالج للحمى ينمو فى الجزيرة العربية ويصدر الى مارسيليا .

الزنجبيـل :

يأتى من هندستان ويصـل الى السـويس ثم القـاهرة ويشترى الفرنسيون منه كميات كبيرة .

---

(١١٥) Olivier : Op. Cit., PP. 332 — 335.

العبيـــد :

تناقصت أعدادهم فى أسواق القاهرة لأن الأتراك يفضلون العبيد البيض ولم يهتم الأوروبيون بهذه التجارة فى مصر (١١٦) .

اما عن واردات مصر من فرنســا فقد شــملت المنسوجات والأوراق والنحاس والحديد والقصــدير والابر وبعض منتجات جزر أمريكا على ان الأقمشة خاصة اقمشة لانجدوك واقمشــة مارسيليا شكلت أهم صادرات فرنسا لمصر وكانت مطلبا لكبار الشخصــيات فى مصر خاصــة البكوات وفى عام ١٧٤٨ م كتب القنصل الفرنسى ليرنكور « ان اقمشة لانجدوك أساس تجــارة فرنسا فى مصر ، ان الأقمشة الفرنسية من الجوخ تمثل أحدث صيحات الموضة فى مصر » وقد بلغ مجموع ما استوردته مصر من هذه الأقمشة ســنويا حوالى من ٣٥٠ الى ٤٠٠ بالة بيعت فى القاهرة و ١٢ بالة لرشيد ومن ٦ ــ ٨ بالات فى الاسكندرية وقد بيعت معظم هذه المنتجات فى القاهرة ثم خرجت القوافل تحملها ضجة الى مكة وفارس والهند واثيوبيا وقد نافست المنسوجات البريطانيــة المنسوجات الفرنســية وتزايد الطلب عليهــا وكتب ليرنكور « الأقمشة الفرنسية أقل فى الثمن والوانها أفضل ولكن الأقمشة البريطانية تمتاز بالمتانة » (١١٧) .

وجدير بالذكر ان غرفة تجارة مارسيليا حرصت على متابعة وفحص الأقمشة التى تصــل الى مصر التأكد من نوعيتها وجودة صباغتها فكتب نائب القنصل ميليه عام ١٦٩٩ م من الاسكندرية « توجهت الى الجمرك وفحصت الأقمشة الواردة من فرنســا

---

(١١٦) Ibid, PP. 336 — 337.

(١١٧) Clement : Op. Cit., P. 204.

لمعرفة جودتها لأن الكمية التي وصلت مؤخرا كانت أقل في المستوى » كما ذكر لي التجار « كما اكد ميليه على غرفة تجارة مارسيليا عام ١٧١٢ م » بضرورة الاهتمام بالألوان والصباغة لأن الأقمشة البريطانية حققت سمعة طيبة « ونتيجة لشكاوى وكتابات ميليه أصدر الوزير بونشرتران عام ١٧١٣ م أمرا بعدم تصدير أو بيع الأقمشة الفرنسية الا بعد أن تعرض على مكتب تفتيش تابع لغرفة تجارة مارسيليا » (١١٨) .

وقد قدر فولني عندما زار مصر أرباح التجار الفرنسيين من بيع الأقمشة خاصة أقمشة لانجدوك بتسعمائة أو الف بالة وقدرت أرباحهم بـ ٣٥٪ ، ٤٠٪ (١١٩) .

وكان من الطبيعي ان تتأثر تجارة فرنسا بنشوب الحروب في أوروبا خاصة حرب السنوات السبع فقلت الواردات الى مصر بسبب تواجد السفن البريطانية في البحر المتوسط وفي خليج ازمير وسالونيك فشكا القنصل الفرنسي في مصر من قلة الواردات الفرنسية الى مصر . ولكن التجار الفرنسيين استطاعوا نقل بضائعهم من فرنسا الى مصر على ظهور المراكب التابعة لدول أخرى أوروبية فكتب القنصل الفرنسي عام ١٧٥٨ م « أن تجارتنا كلها تتم على ظهور المراكب الأجنبية خاصة السويدية والهولندية وبعد انتهاء حرب السنوات السبع انتعشت تجارة الفرنسيين الى مصر » وتوالت السفن من مارسيليا تحمل الأقمشة الفرنسية الى مصر (١٢٠) .

---

(١١٨) Ibid, P. 124.

(١١٩) فولني : المرجع السابق : ص ١٤٧ .

(١٢٠) Clement : Op. Cit., P. 232.

وقد اقيمت فى موانى مصر ومدنها جمارك لتحصيل الرسوم على الواردات خاصة فى القاهرة وبولاق ومصر القديمة والاسكندرية ودمياط ورشيد والسويس والقصير وقد اختص مراد بجمارك مصر كلها فيما عدا جمرك السويس الذى كان من نصيب ابراهيم بك وكان يتولى أمر الجمارك حتى مجىء على بك اليهود ثم تولى ادارتها بعد ذلك الشوام المسيحيون القادمون من سورية ويذكر فولنى ان « الشوام أظهروا بدورهم الرغبة فى الاستبداد بالتجارة شأنهم شأن اليهود » ويمكن القول ان ادارة الجمارك فى مصر شأنها شأن تركيا يقوم بها أفراد يجمعون بين مهمتى المراقب والملتزم العمومى ويوكل اليهم جميع رسوم الدخول والخروج وهم مكلفون بجبايتها والتزام الجمارك لمدة سنة (١٢١) .

ولما كانت التجارة فى مصر بصادراتها ووارداتها تمثل أهمية كبيرة بالنسبة لفرنسا لتدعيم مصالحها الاقتصادية والسياسية فقد اقترح الرحالة والقناصل احياء فكرة وصل البحرين الأحمر والمتوسط لما لهذا المشروع من فوائد كبيرة حقيقية . ان هذه الفكرةلم تكن وليدة القرن الثامن عشر (١٢٢) الا انها ظهرت بوضوح خلال هذا القرن . وقد أيد القناصل والرحالة الفرنسيون فكرة ربط البحرين وقدم القنصل الفرنسى ميليه مذكرة تفصيلية الى السفير الفرنسى فى الاستانة (استانبول) بانشاء قناة تربط السويس بالنيل أو انشاء قناة

---

(١٢١) فولنى : المرجع السابق ، ص ١٤٥ .

(١٢٢) عرض هذه الفكرة فى القرن السادس عشر لانكوم السفير الفرنسى فى استانبول وارسل مذكرة الى هنرى الثالث عام ١٥٧٨ م ثم عرضها على ريشيليو ولم تظهر هذه الفكرة بصورة واضحة الا فى عهد لويس الرابع عشر .

تربط السويس ويافا من أجل تنمية تجـارة فرنسـا مع مصر الا ان ميليه اكد فى مذكرته صعوبة تحقيق الفكرة « لأن الأتراك يخافون من الغزو المسيحى للأماكن المقدسة » ، كذلك أوضح فى مذكرته مصاعب الملاحة فى البحر الأحمر ولكنه اكد وجود قناة أمير المؤمنين والتى كانت تربط بين النيل والبحر الأحمر وطالب باعادة استخدامها ولكنـه يفضل حفر قناة أخرى جديدة تصل بين البحرين (١٢٣) . وفى عام ١٧١٢ م كتب ميليه مرة ثانيـة عن اهمية ربط البحرين واقامة منشأت تجارية فرنسية فى مخـا والسـويس والطور « ولو تمكن الفرنسـيون من تحقيق ذلك لأصبحوا سادة تجارة البن » (١٢٤) .

وقد نمت فكرة وصل البحرين فى عهد لويس الخامس عشر فلم تعد قاصرة على السـاسـة والرحالة وانمـا أيدها المفكرون والفلاسفة أمثال مونتسكيو وفولتير (١٢٥) .

وجاء عقد معاهدة باريس عام ١٧٦٣ م وانهيار نفوذ فرنسا فى الهند والعالم الجديد الى بروز فكرة احياء وصـل البحرين لا من اجل التجارة فقط وانما لمواجهـة خطر المنافسة البريطانية واخذ القنصـل الفرنسى مور يذكر حكومته بضرورة استخدام طريق البحر الأحمر ، وفى عام ١٧٧٦ م أرسـل الوزير سارتين الفرنسى الفارس دى مونتينى لدراسة طريق البحر الأحمر لبحث امكانية شق قناة بين البحرين . وفى عـام ١٧٧٧ م عندما زار دى توت مصر كتب عن أهمية حفر القنـاة القديمـة بين النيل والسويس (١٢٦) .

---

(١٢٣) Maillet : Op. Cit., P. 187.

(١٢٤) Clement : Op. Cit., P. 259.

(١٢٥) Ibid, P. 260

(١٢٦) Clement : Op. Cit., P. 260.

أما فولنى فقد رأى امكانيــة ربط البحرين ولكنــه عدد المصاعب التى تعترض المشروع منها :

١ ــ المسافة التى تفصل بين البحرين أراض خالية من الجبال قاحلة .

٢ ــ أخطأ فولنى وذكر الفكرة القديمة ان هنــاك فرقا فى مستوى البحرين وان البحر الأحمر أكثر ارتفاعا .

٣ ــ الشــاطىء فى مجمل القســمين المتقابلين من البحر الأحمر والبحر المتوسط عبــارة عن أرض رمليــة منخفضــة تتخللها البحيرات والمستنقعات فلا تستطيع السفن الاقتراب منها بل تبقى على مسافة بعيدة من الشــاطىء فيتعذر حفر قنــاة ثابتة فى الرمال المتحركة والميناء والأرض تفتقر الى ينابيع المياه .

ونظرا لهذه الصعوبات رأى فولنى انه من الأفضل وصل البحر الأحمر بمياه النيل وعدد فوائد ذلك وأكد ان استربون ذكر ان قناة سيزوستريس عرضها مائة ذراع تستطيع السفن السير فيها وقد رممها بطليموس وجددها عمرو بن العاص (١٢٧) وحفر قنــاة بين النيل والبحر الأحمر سوف يتيح أن تمر المنتجــات والحاصــلات الهامــة مثل القمح والشــعير من والى الجــزيرة العربيــة (١٢٨) .

---

(١٢٧) حفر عمرو بن العاص خليجا يربط بين النيل والبحر الاحمر وكان يعرف بقناة تراجان تخرج من النيل شمال بابليون وتمر بعين شمس ثم تسير فى وادى الطيلات من العباســية حتى الاسماعيلية ثم يتجه جنوبا فى مجرى قناة السويس الحالية من بحيرة التمســاح مخترقا البحيرات المرة حتى يصب فى خليج السويس عند السويس .

(١٢٨) فولنى : المرجع السابق ، ص ١٣٩ .

أما أوليفيه الذى زار مصر فى عهد حكومة الادارة فقد قال « علينا ربط البحرين لامكان تنمية التجارة والافادة من موقع مصر الجغرافى وتأسيس ميناء جديد عند بحيرة المنزلة والعمل على زيادة سكانها واثنى أوليفيه على سيزوستريس انه كان ملكا عظيما رغب فى غزو العالم ، لذلك فهو أول من فكر فى ربط البحرين » ووضع أوليفيه فى نفس خطأ فولنى فأبدى تخوفه من « اختلاف مستوى البحرين لأنه سيؤدى الى أن تغرق مياه البحر الأحمر مصر السفلى » ولكنه اكد ضرورة ايجاد اتصال بين البحر الأحمر والمنزلة وانشاء ميناء فى المنزلة لاستقبال السفن الكبيرة لكى تصل بضائع الهند الى أوروبا سريعا لأن طريق البحر الاحمر اقصر وأفضل من طريق راس الرجاء الصالح (١٢٩) .

واخيرا اذا كانت فكرة وصل البحرين أو وصل البحر الأحمر بالنيل قد عبرت عن رغبة الحكومة الفرنسية فى تنمية تجارتها مع مصر فان البعثات التى أرسلت الى مصر فى عهد مراد بك وأسفرت عن توقيع اتفاقات تجارية بين البلدين قد مثلت ذروة الاهتمام الفرنسى بتجارة مصر خاصة البحر الأحمر فلم ينتب الفرنسيون اليأس بعد فشل اتفاقهم مع محمد ابى الذهب وصدور أمر السلطان العثمانى بتحريم الملاحة فى البحر الأحمر . فقد أرسل السفير الفرنسى فى الآستانة الضابط الفرنسى تروجيه لعقد معاهدة تجارية مع المماليك فى مصر واعتمد تروجيه على التاجر الفرنسى ماجالون وزوجته لصلتهما القوية

---

(١٢٩) Olivier : Op. Cit., PP 320 — 324.

مع مراد بك ونجح تروجيه فى عقد عدة اتفاقات (١٢٠) مع المماليك بشأن السماح للفرنسيين باستخدام موانىء البحر الأحمر والموانى المصرية وعقد اتفاقا مع يوسف كساب ملتزم الجمارك المصرية واتفاقا ثالثا مع الشيخ ناصر شديد لحماية القوافل التى تحمل البضائع الفرنسية بأمان من السويس الى القاهرة (١٢١) .

ونلاحظ مما سبق اهتمام الرحالة الفرنسيين بنشاط مصر الاقتصادى من زراعة وصناعة وتجارة ولكن كما اتضح لنا أن اهتمامهم بهذا النشاط قاصر على خدمة مصالح بلادهم فنجدهم يذكرون الصناعات التى لها أهمية بالنسبة لفرنسا ، كذلك عند حديثهم عن التجارة اهتموا بايضاح صادرات وواردات مصر الى فرنسا فأنصب اهتمامهم بنشاط مصر الاقتصادى فى اطار اهتمامهم الأكبر بفرنسا .

---

(١٢٠) نص الاتفاق الأول على حق السفن الفرنسية والتجار القدوم الى الموانى المصرية وحصنت هذه السفن ضد التفتيش ومنح التجار الفرنسيون الحرية فى بيع بضائعهم وحق السفن الفرنسية فى زيارة الموانى المصرية دون دفع رسوم وحقوق التموين والامتياز ـ وحدد الرسوم الجمركية على البضائع بـ ٦٪ أما الاتفاق الثانى فكان مع يوسف كساب ، اتفق على حماية التجار الفرنسيين القادمين من الهند الى السويس وحقه فى تحصيل الرسوم ثم اتفاق ثالث مع ناصر شديد لنقل البضائع بأمان من السويس الى القاهرة .

(١٢١) Combes : Op. Cit., P. 102.

الفصل الخامس

وصف مدن مصر

- مدن الوجه البحرى .
- مدن الوجه القبلى .

قدم الرحالة الفرنسيون وصفا للمدن المصرية بقسميها الشمالي والجنوبي فتميزوا بذلك عمن سبقوهم في القرنين السادس عشر والسابع عشر الذين ركزوا كتاباتهم على منطقة مصر السفلي والمزارات المسيحية فقط . وقد حرص الرحالة الفرنسيون عند حديثهم عن المدن المصرية على تعريف القارىء الفرنسي أولا بموقع مصر الجغرافي ومناخها .

استهل القنصل الفرنسي ميليه حديثه عن موقع مصر بقوله « لا يوجد في العالم بلد له شهرة وتاريخ مصر تحدث عنها هيرودوت والمؤرخون القدامى ، وهي بلد انتعشت فيها العلوم والفنون ، وتتمتع مصر بموقع ممتاز فهي تطل على البحر المتوسط شمالا وتمتد جنوبا حتى النوبة فتصل أراضيها حتى دنقلة » (١).

وفي الواقع ان الرحالة اختلفوا في تحديد حدود مصر الجنوبية فبينما ذكر ميليه انها تمتد حتى دنقلة نجد سافاري يؤكد امتداد أراضي مصر جنوبا حتى الحبشة (٢) .

ويحد مصر من الغرب الصحراء الغربية وقد اطلق معظم الرحالة عليها « الصحراء الليبية » ومن الشرق البحر الأحمر

---

(١) Maillet : Op. Cit., PP. 9 — 12.

(٢) Savary : Op. Cit., + 1 P. 6.

« وهو مفتاحها الى الهند » على حد قول لوكا (٣) . وقد أفادت مصر من موقعها الممتازة كذلك أفاد الأوروبيون منه فقد اتاح فرصة الاتصال بين آسيا وافريقيا وأورابا (٤) .

وصف ميليه أراضي مصر « بانها تمتد على شكل حرف Y يمثل الجزء العلوي من هذا الحرف فرعي رشيد ودمياط » كذلك كتب تشبيها آخر طريفا « تمتد مصر على شكل عصى طويلة تبدأ في القاهرة حتى الشلال الأول » (٥) ووصف لوكا الدلتا بأنها « تشبه المثلث قاعدته البحر المتوسط (٦) .

والواقع ان هذا الوصف ذكره علماء الحملة الفرنسية فكتب العالمان دي بو وايميه « الدلتا على شكل مثلث ، وسميت بالدلتا لأنه الاسم الذي اطلقه الاغريق على هذه الأراضي لأنه اسم حرف من أبجديتهم كانوا يرسمونه على شكل مثلث قاعدته ترتكز عند البحر المتوسط وتنتهي قمته نحو منف » (٧) . وتقع الدلتا وسط فرعي النيل وبها العديد من القنوات تنتشر فيها الحدائق ويزرع فيها الأرز والخضراوات والفواكه وقد وصف سافاري الدلتا بأسلوب جميل وكأنه فنان يرسم بريشته ويصور « ان رؤية الدلتا وخصوبتها منظر يبعث على السرور ويشحذ الخيال » (٨) .

اما عن مساحة الدلتا فقد كتب لوكا « بأن أكثر المناطق

---

(٣) Lucas : Op. Cit., + 3 P. 164.
(٤) De Tott : Op. Cit., P. 28.
(٥) Maillet : Op. Cit., P. 14.
(٦) Lucas : Op. Cit., P. 127.
(٧) انظر وصف مصر جـ ٢ ، ص ٦٣ دراسة دي بواوايميه جولو .
(٨) Savary : Op. Cit., + 1 P. 15.

عرضا فيها هى المنطقة الواقعة ما بين الاسكندرية ودمياط » (٩) واستنكر تقدير هيرودوت لعمر الدلتا بعشرة آلاف سنة فقط وعلل ذلك « بأن عملية انحسار المياه عن البحر لابد وأن تستغرق فترة زمنية أكثر مما ذكره هيرودوت » (١٠) .

ويبدو أن اليهود كعهدهم أرادوا أن ينسبوا الفضل لأنفسهم فى تعليم المصريين الزراعة ولفت نظرهم لخصوبة الدلتا فذكر ميليه ان حاخام اليهود فى القاهرة أكد له بأن اليهود هم أول من أدرك خصوبة أراضى مصر وان الفضل يرجع الى النبى يوسف فى اعادة الخصوبة لأراضى الدلتا بعد جفافها (١١) .

اختلف تقسيم الرحالة لأراضى مصر فمنهم من قسمها الى ثلاثة أقسام : مصر السفلى ــ مصر العليا ــ مصر الوسطى ومنهم من قسمها الى قسمين فقط مصر السفلى ومصر العليا ، كما اختلفوا فى تحديد بدايات مصر العليا فنجد لوكان يكتب مؤكدا « بأن مصر العليا تبدأ من طيبة حتى النوبة وسنار » (١٢) .

قدم فولنى وصفا لهيكل القطر المصرى من أسوان الى البحر المتوسط فذكر ان هذه المنطقة عبارة عن طبقة من حجر الجص المشرب بالبياض عليل الصلابة ، « ومصر من ناحية بحر ضيق وصخور ومن ناحية أخرى سهول من الرمال العظيمة ، فى الوسط نهر يجرى على وادى طوله خمسمائة وخمس فراسخ بعرض ثلاثة فراسخ الى سبعة لا يصل الى مسافة ثلاثين فرسخا

---

(٩) Lucas : Op. Cit., + 3 P. 127.

(١٠) Olivier : Op. Cit., P. 273.

(١١) Maillet : Op. Cit., PP. 92 — 93.

(١٢) Lucas : Op.Cit, + 3 P. 150.

من البحر » وقد اثنى علماء الحملة الفرنسية على ملاحظات فولنى الدقيقة عن سطح مصر (١٣) ولكن لا ينبغى الا ننسى تعصب فولنى ضد مصر فهى فى نظره مغمورة بالمياه ثلاثة اشهر موحلة ثلاثة أشهر غبراء مشققة الأديم سائر أيام السنة (١٤) .

أما عن مناخ مصر فالحرارة معتدلة فى الشتاء ولا يسقط فيها الثلوج (١٥) ، أما فى فصل الصيف فهى شديدة الحرارة خاصة فى شهر بوليو حيث تصل الحرارة الى ٢٤ ، ٢٥ درجة وهى اكثر ارتفاعا فى الصعيد وعلل فولنى سبب ارتفاع الحرارة فى هذا الوقت « لأن الشمس تكون عمودية على خط الاستواء » واضاف « ان الأوروبى لا يستطيع أن يتحمل هذه الشمس الحارقة فى الصيف » وعبر عن ضيقه من حرارة الجو فذكر « من الأفضل للمصريين بدلا من القاء تحية السلام فيما بينهم : كيف حالك أن تكون تحيتهم كيف تعرق » (١٦) . وتشتد الحرارة فى مصر العليا خاصة فى الأقصر وأوضح سافارى ان « انسب الشهور لزيارة الصعيد هو شهر نوفمبر لانخفاض درجة الحرارة » (١٧) .

والأمطار نادرة فى مصر وهى تقل كلما اتجهنا الى الداخل نحو الصعيد وهى أكثر هطولا فى الاسكندرية عن القاهرة أما اذا سقطت الأمطار فى جرجا فان ذلك يعتبر اعجوبة على حد قول فولنى (١٨) . واكد سافارى أن الحرارة الشديدة فى مصر هى

---

(١٣) انظر وصف مصر ، ج ١ ، ص ١٦ .

(١٤) فولنى : المرجع السابق ص ١٦٦ .

(١٥) Fourmont : Op. Cit., P. 24.

(١٦) فولنى : المرجع السابق ، ص ٥٤ .

(١٧) Savary : Op. Cit., + 3 P. 3.

(١٨) فولنى : المرجع السابق ، ص ٤٦ .

سبب الامراض « ولكن سكان الصعيد اعتادوا شرب الماء بكثرة والاستحمام فى النيل للتخلص من حرارة الجو وهم أصحاء ذوو بنية متينة وقد ساعد وجود البحيرات فى مصر العليا وفى الأودية الضيقة على اضفاء نسمة ناعمة فى الجو ولكن فى المناطق حيث الأودية الضيقة والجبال المرتفعة لا يجدد الهواء فيفقد السكان صحتهم » (١٩) .

تهب على مصر رياح الخماسين وتدوم أربعة أيام يكون الجو خلالها جافا متربا يصعب التنفس وأوضح أوليفيه أن الرحالة الفرنسيين خلطوا بين رياح الخماسين ورياح السمايل فى الجزيرة العربية (٢٠) بينما ذكر فولنى « ان لهبوب الرياح فى مصر دورة منتظمة وقد أطلق الأوروبيون عليها رياح السموم فهى رياح صحراوية جافة ترتفع حرارتها فيبدو الجو رماديا وينتشر الغبار ويصعب التنفس « ويهب على مصر رياح جنوبية شرقية لا تحمل أمطارا لأنها قادمة من صحراء الجزيرة العربية وافريقيا كما تهب على مصر رياح شمالية غربية تطرد نحو مصر أبخرة البحر المتوسط » (٢١) .

قدم الرحالة وصفا لنهر النيل : « فالنيل بالنسبة لمصر كالشريان للجسم البشرى عليه تقوم الزراعة والصناعة والتجارة وهو سبب انتعاش المناخ فى مصر ومصدر الرخاء فيها » هكذا عبر أوليفيه عن عظمة وأهمية نيل مصر (٢٢) . وأكد سافارى « ان المصريين القدماء اعتبروا النيل رمزا للخصوبة والنماء

(١٩) Savary : Op. Cit., + 3 PP. 2 — 7.

(٢٠) Olivier : Op. Cit., P. 245.

(٢١) فولنى : المرجع السابق ، ص ٤٧ .

(٢٢) Olivier : Op. Cit., P. 258.

وقد اطلق المصريون اسـم Nei Alei على نهر النيـل وأطلق عليه الاغريق Neilon واللاتين Nilus ومعناه الذى ينمو تدريجيا وقد استعار سافارى الكثير من عبـارات هيرودوت عند حديثه عن النيل (٢٣) .

أما عن منابع النيل فقد ذكر ميليه فى بدايـة القرن الثامن عشر « ان المعلومات قليلة عن منابع النيل ولكن من المؤكد انه ينبع من اراضى القس جون وذكر أن البرتغاليين الجزويت أكدوا ان منابعه من الحبشة وانه ينبع من جبال مكسوة بالخضرة ويخرج من منبعين تجهل عمقهما ويسمى المنبعان عيون النيـل واثناء خروجه من العيون يحدث صـوتا هائلا ويتجه النيل من اثيوبيا الى سنار ويوجد على يساره عدد لا يحصى من البحيرات ثم يتجه الى دنقلة ويمر بمدن النوبة الرئيسية ويسير حتى يصل الى البحر المتوسط » وذكر ميليه ان على أغـا الذى زار مصر مندوبا عن ملك الحبشة أكد له « انه مستعد أن يقسم له أن فى أثيوبيا عددا لا يحصى من البحيرات لا تقل عن المـائة ، غزيرة الأمطار وكلها من منبع النيل ، ويلتقى النيل بالنيل الأبيض على مسيرة ثلاثة أيام من سنار بعد منطقة النوبة يسير النيل بحرية تامة فى مصر تحيط به الجبال » (٢٤) .

ولـمـا كانت منابع النيل لم تكشف بعد خلال هذه الفترة فقد كتب أوليفيه « ان البحث عن منابع النيل ارهق الباحثين » وقلل أوليفيه من شأن بعثة بروس الى منـابع النيل فأكد ان رجال الدين اليسوعيين قد وصفوها قبل بروس كمـا رسموا

---

(٢٣) Savary : Op. Cit., + 1 PP. 176 — 179.

(٢٤) Maillet : Op. Cit., P. 41.

الخرائط التى توضح مجرى النيل » (٢٥) . وأكد الرحالة انحدار النيل نحو مصر فى لين ولطف وبسرعة معقولة فأكد فولنى « لا تتجاوز سرعة مياهه الميل الواحد فى الساعة » كما انه يصل الى مصر نقيا دون رمال أو حصى او أحجار (٢٦) والملاحة متيسرة فى النيل لا تعترضها الجنادل او الشلالات سوى فى دنقلة وأسوان حيث تصعب الملاحة فى هذه المناطق فقط (٢٧) .

وقارن أوليفيه بين النيل وبين غيره من الأنهار فهو « أكبر من الرون والراين ونهر بو » (٢٨) وشبهه فولنى « بنهر السين وشبه الحقول من حوله بالحقول المحيطة بنهر اللور » (٢٩) . .

أما فيضان النيل فقد تحدث عنه سونينى معجبا « تحول لون النيل الى اللون الأحمر » ووصفه انه من أجمل المعجزات التى رآها وهو يحدث بسبب هطول الأمطار فى اثيوبيا وترتفع المياه عندما تبدأ رياح الشمال فى الصفير فى أواخر مايو ويبدأ الفيضان فى يونيو وتقل مياه النيل فى سبتمبر وعندما تنخفض المياه تغرز المراكب فى الطين خاصة فى دمياط ورشيد والقاهرة ويكون منسوب المياه فى مصر العليا اقل من مصر السفلى (٣٠) .

« ومياه النيل نقية مثل جو مصر » هكذا عبر ميليه عن اعجابه ، والنيل هو مصدر مياه الشرب فى مصر وقد اتقن المصريون تنقية مياهم « فهم يضعونه فى أوان بها كمية من اللوز

---

(٢٥) Olivier : Op. Cit., PP. 261 — 262.

(٢٦) فولنى : المرجع السابق ، ص ١٧ .

(٢٧) Maillet : Op. Cit., P. 42.

(٢٨) Olivier : Op. Cit., PP. 263 — 267.

(٢٩) فولنى : المرجع السابق ، ص ١٧ .

(٣٠) Granger : Op. Cit., P. 7.

لمدة ربع ساعة حتى يصبح طعمه لطيفا ومن يشرب من مياه النيل لابد وأن يعود مرة ثانية الى مصر ولذلك فان الحجاج عندما يخرجون للحج يتمنون العودة الى مصر للشرب من مياهه » (٣١) .

وكان لفولنى كعادته رأى آخر « فالمصريون لم يحسنوا استغلال مياه النيل » ونفى تماما أن تكون مياهه تمتاز بالحلاوة فهى فى نظره « مياه عكرة طوال ستة أشهر شديدة الاعتبار فى الشهور الثلاثة التى تسبق الفيضان يقل عمقها فتأسن وتمتلىء بالديدان » (٣٢) .

وتأثر ميليه بآراء اليهود وكتاباتهم فقد زعموا له « أن المصريين لم يعرفوا كيفية الاستفادة بمياه النيل الا بعد مجىء النبى يوسف الى مصر فهو الذى علمهم طرق الافادة من مياهه » (٣٣) . ويلاحظ دوما فى كتابات ميليه تأثره بمزاعم وادعاءات اليهود عن مصر فهم ينسبون لأنفسهم تارة فضل تعليم المصريين القدماء الزراعة وتارة أخرى فضل تعليم المصريين استغلال مياه النيل .

تحدث الرحالة عن أثر فيضان النيل على حياة المصريين « فاذا ارتفعت مياهه اضطر السكان الى الفرار الى المناطق المرتفعة واذا انخفضت فان السكان يتعرضون للقحط والمجاعات وضرب فولنى مثالا بما حدث فى عام ١٧٨٤ م عندما عم القحط البلاد مما أدى الى وفاة عدد كبير من السكان وقارن فولنى بين

---

(٣١) Maillet : Op. Cit., P. 15.

(٣٢) فولنى : المرجع السابق ، ص ٢٤ .

(٣٣) Maillet : Op. Cit., P. 9.

المجاعات التى تحدث فى مصر والهند مؤكـدا « ان سكان مصر يتعرضون للموت بسبب المجاعات كمـا يحدث تماما فى البنغال والهند » (٣٤) .

وبلغ حقد وكراهيــة بعض الرحـالة الفرنسيين أن تمنى بعضهم عدم افادة مصر من مياه النيل فكتب أوليفيه « لو تحولت مياه النيل الى البحر الأحمر لتحولت مصر الى صحراء » (٣٥) بينما نجد فولنى يثنى على هذه الفكرة « لو تمكن البوكيرك من تنفيذ مشروعه وتحويل مياه النيل من أثيوبيا الى البحر الأحمر لمـا كانت هذه البقعة الخصيبة الا صحراء جرداء (٣٦) .

استطاع جرانجيــه وصف مصبات النيل وفروعه فجـاء ما ذكره مطابقا لمـا ذكره علماء الحملة الفرنسية (٣٧) وقد أثنوا على دقة جرانجيــه فى وصفه لهـذه الفروع السبعة وهى كمـا أوضحها :

الفرع الأول : ويعرف بالفرع البيلوزى (أبو باســطة) الطينــة .

الفرع الثانى : التانيسى .

الفرع الثالث : المنديسى وقد أطلق عليه العرب الديبة .

---

(٣٤) فولنى : المرجع السابق ، ص ١٢٨ .

(٣٥) Olivier : Op.Cit., P. 188.

(٣٦) فولنى : المرجع السابق ، ص ٢٢ .

(٣٧) انظر وصف مصر ، ج ٣ ، ص ٩ ، دراسـة عن المدن والاقـاليم المصرية ، دراسة للمسيو مالو .

الفرع الرابع : البلنتينى وهو فرع دمياط .

الفرع الخامس : السبنيتى وهو فرع البرلس .

الفرع السادس : البولبينى وهو فرع رشيد .

الفرع السابع كانوب او فرع ابى قير .

كما عدد جرانجيه عدد الجزر فى النيل وعدد القنوات التى تم تشييدها فكانت دراسته عن هذه الفروع دراسة دقيقة الى حد كبير (٢٨) .

---

(٢٨) Granger : Op.Cit., PP. 247 — 248.

وصف مدن الوجه البحرى

جاء وصف رحالة القرن الثامن عشر لمدن مصر السفلى مطابقا الى حد كبير لما ذكره الرحالة السابقون وقد بدأ معظم الرحالة حديثهم عن مدينة القاهرة باعتبارها عاصمة البلاد « فهى مدينة شهيرة يسميها العرب مصر » على حد قول فولنى (٣٩) ، « وهى ثانى مدن الامبراطورية العثمانية من حيث الأهمية تمتاز بفخامة وثراء مبانيها وبعدد سكانها الضخم » هكذا عرفها أوليفيه (٤٠) .

وتقع القاهرة عند رأس الدلتا ولذلك فهى أكثر المدن ازدحاما (٤١) ؛ وقد اختلفت آراء الرحالة حول موقع القاهرة فذكر فولنى « ان موقعها سيىء » وعلل ذلك لأنها « تبعد عن النيل فحرمت من ميزة الحصول على مياهه مباشرة ، كذلك

---

(٣٩) فولنى : المرجع السابق ، ص ١٠٥ .

(٤٠) Olivier : Op. Cit., P. 177.

(٤١) Ibid, P. 112.

شيدت فى مكان منخفض اسفل جبل المقطم (٤٢) يعرضها لهبوب الأتربة والرياح عليها » (٤٣) ، بينما راى أوليفيه ان موقع القاهرة افضل من الفسطاط (٤٤) .

اما عن حجم المدينة (٤٥) فقد سجل سونينى بانها من أكبر المدن وتشبه المدن الأوروبية (٤٦) ورأى فرمون انها اغنى وأكبر مدن العالم ومن أكثرها ازدحاما بالسكان (٤٧) ، وقد تطابق وصف الرحالة الروس عن القاهرة مع ما ذكره الرحالة الفرنسيون فأكد بارسكى بان « القاهرة من أكبر المدن وهى تفوق القسطنطينية حجما » (٤٨) .

وقد ذكر كل من الأب سيكار (٤٩) وبول لوكان بأن القاهرة « أطول من باريس ولكنها أقل عرضا » (٥٠) .

ثم قدم فورمون للقارىء الفرنسى شرحا عن معنى اسم القاهرة وذكر نبذة عن تأسيسها وأن معناها المنتصرة شيدها

---

(٤٢) نفس الملاحظة عن موقع القاهرة كتبها من قبل العمري فذكر « ان القاهرة مبنية وطئة نائية عند ذروة الجبل ارضها سباخ ولاجل هذا يعجل الى مبانيها الفساد » العمرى ص ١٤٥ .

(٤٣) فولنى : المرجع السابق ، ص ١٠٥ .

(٤٤) Olivier : Op. Cit., P. 112.

(٤٥) نفس الملاحظة كتبها رحالة القرنين ١٦ ، ١٧ فذكر جريفان « انها اكبر من باريس ثلاث مرات » بينما وصفها تينو « بأنها أكبر من باريس بخمس مرات » وأكد بالرن « انها من أكبر مدن افريقيا » ، انظر الهام ذهنى ، المرجع السابق ، ص ١٠٠ .

(٤٦) Sonnini : Op. Cit., +2 P. 300.

(٤٧) Fourmont : Op. Cit., P. 4.

(٤٨) Volkoff : Op. Cit., P. 51.

(٤٩) Sicard : Op. Cit., P. 15.

(٥٠) Lucas : Op. Cit., + 3 P. 124

جوهر الصقلى ويقال انه استشار الفلكيين قبل البدء فى تشييدها فأكدوا له ان كوكب المريخ فى أحسن أحواله مما يبشر ان المدينة الجديدة سيكتب لها الازدهار والقوة (٥١) .

وقدم القنصل الفرنسى ميليه وصفا لأبواب القاهرة « فالمدينة محاطة بالأسوار بها العديد من الأبواب ويعتبر باب الفتوح من أجمل الأبواب واقدمها وأعظمها ويوجد عليه برجان ولكنه لا توجد على جدرانه كتابات أو رسوم مثل غيره من الأبواب وأبواب القاهرة أجمل من ابواب مدن أوروبا بالمقارنة بين باب النصر فى القاهرة وباب سان مارتان فى باريس » (٥٢) .

أما فولنى فقد تغلبت عليه كراهيته لمصر عند وصفه القاهرة فكتب ساخرا من غيره من الرحالة الذين وصفوا القاهرة واعجبوا بمبانيها « لا توجد فى القاهرة أبنية ضخمة أو فخمة سواء عامة او خاصة » (٥٣) .

أما شوارع القاهرة فهى مستقيمة ولكنها غير مرصوفة (٥٤) وعلى جانبيها أحواض وضعت لسقاية العابرين وقد حرص اصحابها على وضع كوب لشرب المياه مع ربطه بسلسلة صغيرة خوفا من الضياع (٥٥) . والشوارع التى توجد بها منازل الأثرياء واسعة مزينة (٥٦) وعلل دانتريج وجود بعض الشوارع المظلمة

---

(٥١) Fourmont : Op. Cit., P. 22.

(٥٢) Maillet : Op. Cit., P. 210.

(٥٣) فولنى : المرجع السابق ، ص ١٥٠ .

(٥٤) Sonnini : Op. Cit., + 2 P. 300.

(٥٥) Fourmont : Op. Cit., P. 30.

(٥٦) Granger : Op. Cit., P. 143.

« لأن المنـــازل على الجانبين متعددة الطبقـــات تعمل على حجب أشعة الشمس (٥٧) .

أما وصف فولنى « ضواحى القاهرة تلال غبراء من الانقاض المتراكمة والأزقة داخل المدينة متعرجة غير مبلطة » (٥٨) .

وتمتاز القاهرة بكثرة محلاتها وقد اهتم أصحابها بتزيينها وقد جاء ما ذكره الرحالة الأوروبيون خاصـــة الروس مطابقـــا لمـــا ذكره الفرنسـيون من تعدد محـــلات القاهرة (٥٩) .

وتمتازل منازل المدينة بالجمال خاصة من الداخل فهى متعددة الطوابق ولكنهـــا سيئة المظهر من الخـــارج كما ذكر جرانجيـــه واجمل منازل هى منازل البكوات ولكن حتى هذه المنازل سيئة المظهر من الخـــارج غير مزينة لا تسر العين فمعظمها من الطوب الأحمر ولم يعن السكان بتزيين واجهاتها الخارجيـــة وعلل سيكار تعدد الطوابق فى مصر لأن النســاء خصص لهن الطابق العلوى (٦٠) أما الرحالة البريطـــانى بوكوك فقد علل تعدد الطوابق تعليـــلا غريبا « لاقامة النساء فى الطـــابق الأعلى بسبب طغيـــان وتجبر الأزواج الشرقيين » (٦١) .

أما عن أحياء القاهرة فقد كتب فورمون « يتم إغلاقهـــا بالمفتاح ليلا وقد خصص صوباشي لحفظ هـــذا المفتاح وخاصـــة فى المناطق التى يسكنها الانكشارية » (٦٢) ، وذكر الرحالة نيبور

---

(٥٧) Auriant : Op. Cit., P. 280.

(٥٨) فولنى : المرجع السابق ، ص ١٥٠ .

(٥٩) Volkoff : Op. Cit., P. 79.

(٦٠) Granger : Op. Cit., P. 143.

(٦١) Auriant : Op. Cit., P. 280.

(٦٢) Fourmont : Op. Cit., P. 32.

« ان هناك أحياء تستخدم كمقر للصناع وغيرهم من السكان الذين يعملون ليس داخل بيوتهم ولكن فى حوانيت صغيرة فى السوق » (٦٣) .

رأى معظم الرحالة الفرنسيون ان عاصمة مصر تنقسم الى ثلاث مناطق ، القاهرة التي بناها المعز لدين الله والقلعة التى بناها صلاح الدين والفسطاط أو مصر القديمة ولذلك فقد حرصوا على تقديم وصف لكل منها على حده والحقيقة ان هذه الملاحظة سبقهم اليها المؤرخون المسلمون من قبل ولما كان هؤلاء الرحالة قد اطلعوا على كتاباتهم فانهم عند وصفهم لمصر حرصوا على أن يوردوا ويضعوا نفس تقسيم المسلمين خاصة العمرى (٦٤) ،وسنكتفي بذكر ما كتبه الرحالة عن هذه الأقسام بايجاز .

القلعة :

جاء وصف الرحالة لقلعة الجبل مطابقا الى حد كبير لما ذكره من قبل رحالة القرنين السابقين فعرف بسيكار القلعة بأنها « قصر الملوك القدامي » بها صالات واسعة أسقفها ملونة مذهبة توجد بها فتحات لدخول الهواء الى الصالات التى يغطى

---

(٦٣) مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية مجلد ٢٠ ، ١٩٧٣ م ، ص ٢١٩ ، مقالة لـ « أندريه ريمون » ، القاهرة العثمانية بوصفها مدينة شئون البلديات ومشكلات المرافق .

(٦٤) ذكر العمرى « حاضرة مصر تشتمل على ثلاث مدن عظام الفسطاط وهو بناء عمرو بن العاص وهي المسماه عند عامة أهل مصر بمصر العتيقة والقاهرة المعزية بناها القائد جوهر الصقلى لمولاه الخليفة المعز بن القائم بن المهدى وقلعة الجبل بناها قراقوش للملك الناصر صلاح الدين » ، العمرى : المرجع السابق ، ص ٨٦ .

المرمر أرضيتها وهى مفروشة بسجاجيد فارسية عليها روسومات جميلة » (٦٥) .

وديوان القلعة ابنية جميلة ضخمة تساعد على الاقامة المريحة والديوان ٣٤ عمودا من الرخام ، ويسمح فقط للعزب بالبقاء فى القلعة لحراستها كما ذكر فورمون (٦٦) .

مصر القديمة :

لا نجد رحالة تحدث عن مصر القديمة الا وذكر عمرو بن العاص ، والطريف أن القنصل الفرنسى ميليه أطلق على القائد العربى عمرو بن العاص جنرالا بينما أطلق عليه جرانجيه الملازم عمرو بن العاص وذلك تأثرا بالرتب العسكرية فى فرنسا والبلاد الأوروبية (٦٧) ، وقد أفاض الرحالة فى الحديث عن تاريخ بناء الفسطاط بعد قدوم العرب الى مصر واتصالاتهم بالمقوقس ثم قدموا شرحا للقارىء الفرنسى عن معنى الفسطاط وأوضح فورمون « انها تعنى الخيام » (٦٨) ، كذلك اعطوا للقارىء وصفا وتعريفا بحصن بابليون ثم تتبعوا تاريخ بناء الفسطاط ثم القطائع فى عهد أحمد بن طولون ثم بناء القاهرة فى عهد المعز لدين الله .

ومما لاشك فيه ان اطلاع الرحالة الفرنسيين على كتابات المؤرخين العرب والمسلمين فى القرن الثامن عشر قد أفادهم فى نقل كتابات هؤلاء الى القارىء الفرنسى فقدم الرحالة خلال هذا

---

(٦٥) Sicard : Op. Cit., P. 17.

(٦٦) Fourmont : Op. Cit., P. 166.

(٦٧) Granger : Op. Cit., P. 138.

(٦٨) Fourmont : Op. Cit., P. 16.

القرن معلومات تاريخية ودقيقة الى حد ما عن مدن مصر بأكملها وليس القاهرة فحسب .

وتشتهر مصر القديمة بوجود صوامع لتخزين الغلال فيها ، كذلك تشتهر بالمزارات المسيحية ولذلك اهتم الرحالة بوصف كنيسة أبي سرجة وكنيسة العذراء ودير الفتيات اليونانيات (٦٩).

وقد أضاف الرحالة الروسى (٧٠) بارسكى كنيسة الفرنسيسكان الى الكنائس الموجودة بمصر القديمة ، كذلك قدم سافارى وصفا لكهف مريم اكد أن السيدة مريم لجأت للاقامة فيه بعد فرارها من الرومان (٧١) .

ثم قدم الرحالة وصفا لخليج امير المؤمنين أو قناة تراجان ، وذكر جرانجيه انها خصصت لنقل الحجاج الى الأراضى المقدسة (٧٢) ، وأبدى سافارى اسفه لأن هذه القناة الهامة فقدت أهميتها ولم تعد صالحة للاستخدام (٧٣) .

واذا كان الرحالة قد اهتموا بتقديم وصف للمزارات المسيحية فى مصر القديمة فانهم اهتموا أيضا بتقديم وصف لمنطقة هامة فى مواجهة جزيرة الدهب وهى منطقة « أثر النبى » وشرح سافارى معنى الاسم « أنها تعنى أثر أقدام الرسول وقد حرصت على دخول المسجد بصحبة احد التجار لرؤية الأثر فكشف لى بعد احراق البخور وقراءة القرآن وقد رايت بالفعل

---

(٦٩) Savary : Op. Cit., P. 16.
(٧٠) Volkoff : Op. Cit., P. 79.
(٧١) Savary : Op. Cit., + 1 P. 91.
(٧٢) Granger : Op. Cit., P. 143.
(٧٣) Savary : Op. Cit., + 1 P. 91.

آثار أقدام على الحجر ثم سمعت سيدتين تؤكدان لى أنها أقدام الرسول » وصحح سافارى خطأ وقع فيه الرحالة نوزدن عندما ذكر أن اثر النبى فى الجيزة ثم قدم وصفا جميلا مشوقا للمنطقة تهم المسلمين الا أن الأقباط لهم فيها ايضا دير اطلق عليه دير التين وذلك لكثر اشجار التين فيه (٧٤) .

بـولاق :

« ميناء القاهرة النهرى ومدخل القاهرة » هكذا وصفها لوكا (٧٥) ، بينما اطلق سونينى عليها « ميناء الدلتا » (٧٦) تقع حيث نستقبل سلع مصر السفلى ومنها الى الصعيد وهى ماهولة بالتجار الأوروبيين الذين يفدون عليها من آسيا واوروبا وتعمل أعداد كبيرة من التجارة اليهود فى بولاق حيث تكثر الوكالات التجارية ويفد على بولاق المراكب المختلفة الأحجام ويقصد أثرياء القاهرة بولاق للسكنى والاستجمام والاستمتاع بالهواء النظيف المنعش كما ذكر سافارى (٧٧) ، واكد الكونت دانتريج انه تمتع بجمال بولاق حيث تنزه فيها وسط الحدائق الجميلة الشاسعة (٧٨) .

وفى مواجهة بولاق وعلى الضفة المقابلة لها على النهر تقع امبابة وصفها سافارى « أنها أرض البؤساء » (٧٩) بها مسجد

---

(٧٤) Ibid : + 2 PP. 5 — 6.
(٧٥) Lucas : Op. Cit., + 1 P. 52.
(٧٦) Sonnini : Op. Cit., + 3 P. 22.
(٧٧) Savary : Op. Cit., + 1 P. 107.
(٧٨) Auriant : Op. Cit., P. 279.
(٧٩) Savary : Op. Cit., + 1 P.109.

صغير وبها أجود أنواع الزبد والشمام ، وقد أكد هذه الملاحظة كل من سونيني وسافارى ودانتريج فكتب سونينى « ففى امبابة أفضل أنواع الزبد الطازج وفيها تنتشر مزارع الترمس ويكثر بيعه فيها » (٨٠) .

أما الروضة فتقع فى مواجهة مصر القديمة وشرح فورمون معنى الكلمة « بأنها تعنى بالعربية الحديقة » وذكر فورمون أنه قابل بعض اليهود فى مصر زعموا له « بأنه توجد فى الروضة منطقة يطلق عليها سلالم موسى » وهى المنطقة التى تم فيها انتشال سيدنا موسى من النهر كما يدعون (٨١) .

وفى الروضة مسجد شيده السلطان سليم نجح لوكا فى دخوله فشاهد « العديد من التماسيح المحنطة قد علقت على جدران الحوائط » وذلك لتحمى المنطقة وتمنع دخولها كما شرح له الأهالى (٨٢) .

وعندما زار أوليفيه منطقة الروضة فى أواخر القرن الثامن عشر ابدى أسفه « لأن مراد بك الجاهل اقتلع العديد من الأشجار الجميلة الثمينة من اجل صنع مركب للتنزه فى نيل مصر » (٨٣) . أما فيما يتعلق بمقياس النيل فلم يختلف ما ذكره الرحالة فى القرن الثامن عشر عمن سبقوهم عن اهمية المقياس وكيفية

---

(٨٠) Sonnini : Op. Cit., + 3 P. 22.

(٨١) Fourmont : Op.Cit., P. 125.

(٨٢) Lucas : Op. Cit., + 1 P. 185.

(٨٣) Olivier : Op. Cit., P. 120.

تحديد ارتفاع مياه النيل والاحتفالات التى تقام عند فتح الخليج (٨٤) .

وإذا ابتعدنا عن القاهرة شرقا فسنجد أن الرحالة اهتموا بوصف منطقتين أثريتين الا وهما منطقة عين شمس والمطرية وقد أوضح سافارى للقارىء الفرنسى نبذة عن منطقة عين شمس ففيها « وجدت أقدم جامعة فى العالم اشتهرت بعلومها وفنونها وفيها تعلم هيرودوت (٨٥) وقد درست فى الجامعة علوم الفلك والفلسفة وقد قصدها العلماء من كل مكان » (٨٦) .

ومثلت المطرية أهمية كبيرة للفرنسيين بسبب وجود بعض المزارات المسيحية فيها خاصة بستان مريم وكنيسة العذراء وكان من الطبيعى أن يقدم الرحالة وصفا لهذا البستان وان كان هذا الوصف لا يختلف كثيرا عما ذكره الرحالة السابقون « فيه بئر تفجرت مياهه تحت أقدام العذراء يسمى بئر مريم يقال أن المسيح استحم فى مياه هذا البئر ولذلك فهى تشفى من الأمراض » (٨٧) وأكد ميليه « ان بستان مريم يقصده المسلمون والمسيحيون على السواء وبه شجرة تنتج بلسما أوراقها دائمة الخضرة » وشرح

---

(٨٤) ذكر بيلون عن المقياس « به عمود مدرج يوضح مدى ارتفاع النيل ويوجد موظفون مهمتهم مراقبة ارتفاع النيل » ، أما ليو الافريقى فكتب « على حافة النهر بناء صغير منعزل ومغلق فى وسطه حفرة مربعة تنفتح قناة باطنية تتصل بمجرى النيل وفى وسط الحفرة عمود مقسم الى عدد متساو من الأذرع بعمق الحفرة وعندما يأخذ النيل فى الزيادة يدخل الماء فى القناة ويصل الى الحفرة ويصعد يوميا بمقدار نصف ذراع » ، انظر الهام ذهنى ، المرجع السابق ، ص ١٠٧ .

(٨٥) Savary : Op. Cit., + 1 P. 120.

(٨٦) Maillet : Op. Cit., P. 107.

(٨٧) Savary : Op. Cit., + 1 P. 127.

ميليه معنى المطرية « انها الماء الجديد ، بها مسجد وكنيسة ومسلة عليها رسوم هيروغليفية يقال أنها استخدمت لقياس مياه النيل » (٨٨) .

لم يكتف الرحالة بتقديم وصف عن مدينة القاهرة وضواحيها فحسب وانما نالت مدن مصر والوجه البحرى الكثير من الاهتمام نخص منها الآتى :

دمياط :

تعتبر من أكبر مدن مصر بعد القاهرة وتقع مكان بيلوز القديمة وموقع دمياط أفضل من موقع رشيد كما أن « درجة الحرارة فيها أكثر انخفاضا » مما يشجع على السكنى فيها كما كتب ميليه (٨٩) .

اما سافارى فقد قدم وصفا شاعريا لدمياط « بها أجمل مزارع مصر وقراها مكسوة بالخضرة وتكثر فيها أشجار البرتقال التى تعبق الجو كما تنتشر فيها الحدائق الجميلة » (٩٠) . وأهالى دمياط مسالمون طيبون وقد مدحهم القنصل الفرنسى فنتور « لا يوجد فى الامبراطورية العثمانية شعب ودود ورقيق مثل شعب دمياط » (٩١) .

ودمياط مدينة تجارية يسكنها التجار اليونانيون ، عدد جرانجيه عدد العائلات الأجنبية واليونانية فيها فذكر انها حوالى

---

(٨٨) Maillet : Op. Cit., P. 112.

(٨٩) Ibid, P. 101.

(٩٠) Savary : Op. Cit., + 1 P. 323.

(٩١) Clement : Op. Cit., P. 225.

أربعمائة عائلة ، واكد ميليه وجود عدد من تجار فرنسا وكورسيكا في المدينة (٩٢) .

والتجارة مزدهرة في دمياط فالمدينة لها تجارتها مع سورية وقبرص (٩٣) وتجارتها اكثر رواجا من رشيد (٩٤) ونظرا لازدهار التجارة فيها فان بها العديد من الوكالات وتشتهر المدينة بانتاج الأرز (٩٥) ، ففي دمياط « أهرامات من الأرز » ، كذلك تشتهر بصناعة المنسوجات (٩٦) ، وقد انتقد فولني سافاري لأنه من وجهة نظره « أسرف في الثناء على دمياط وبالغ في تقدير جمالها » (٩٧) . .

ويوجد في دمياط بوغاز بمثابة حاجز عن البحر له سلاسل ضخمة ثابتة وذكر ميليه ان الأتراك يعتقدون أن من لا يخشى البوغاز لا يخشى الله » تعبيرا عن صعوبة التواجد فيه خاصة في فصل الشتاء ولذلك تم اغلاقه لمدة ثلاثة أشهر (٩٨) .

رشيد :

تقع عند مصب النيل من أهم واجمل مدن مصر حلت محل فوه في الأهمية لأن موقعها اقرب الى البحر فانتزعت المنافسة من

---

(٩٢) Granger : Op. Cit., P. 211.

(٩٣) Lucas : Op. Cit., + 2 P. 208.

(٩٤) Maillet : Op. Cit., P. 103.

(٩٥) نفس ملاحظات رحالة القرنين ١٦ ، ١٧ ، انظر الهام ذهني ، ص ٣٠ .

(٩٦) Savary : Op. Cit., + 1 P. 318.

(٩٧) فولني : المرجع السابق ، ص ١٠٦ .

(٩٨) Maillet : Op. Cit., P. 91.

فوه بها نائب للقنصل ، أقام فيها العديد من التجار الفرنسيين واليونانيين (٩٩) .

والمدينة تشتهر بهدوئها وتوفر الأمن فيها ، فكتب سافارى « أن الفرنسيين لم يشعروا فيها بالاضطرابات ولا بالفوضى المعهودة فى غيرها من مدن مصر فالأجنبى فى رشيد يشعر بالراحة والاطمئنان ويستطيع التجول بحرية بين سكانها الذين يتصفون بالود وكثيرا ما تناولت القهوة مع المزارعين فى أكواخهم (١٠٠) ، وأكد سونينى صفة الهدوء والوداعة على سكان رشيد فوصفهم « انهم أقل بربرية من سكان باقى المدن المصرية » فهى مدينة هادئة لا تعرف الثورات ولا الفوضى يتجول فيها الأوروبى بحرية كبيرة وذكر سونينى للقارئ الفرنسى مقتطفات مما كتبه الأدريسى عن رشيد، كذلك اقتبس بعض كتابات بطليموس وسترابون عنها (١٠١) .

وتشتهر المدينة بتجارتها خاصة تجارة المنسوجات والقطن المغزول والأرز وهى حلقة الاتصال بين القاهرة والاسكندرية (١٠٢) . وهى مدينة مأهولة بالسكان ، تصلها مياه النيل بواسطة قناة قديمة ، أفاد منها التجار فى نقل متاجرهم الى الاسكندرية ولكن الأتراك اهملوها منذ فترة طويلة (١٠٣) .

وتنتشر الحدائق والخضرة فى رشيد فتكثر بها حدائق الليمون والبرتقال وجوها معبق معطر ضحى وهى مدينة جديرة

---

(٩٩) Ibid : P. 100.
(١٠٠) Savary : Op. Cit., + 1 P. 272.
(١٠١) Sonnini : Op. Cit., + 1 P. 243.
(١٠٢) Ibid, PP. 244 — 246.
(١٠٣) Maillet : Op. Cit., P. 99.

بأن يطلق عليها « حديقة مصر » على حد قول سونيني (١٠٤) . وقد قدم سافاري وصفا لرشيد يمتاز بالحس المرهف « هواؤها منعش متجدد نرى أشعة الشمس الجميلة تنسدل على المساجد والمنازل التى تطل على النيل والدلتا ، ان اراضى رشيد الخصبة لا تكف ولا تكل عن العطاء والدلتا حديقة جميلة تنتج كل عام الخضراوات والفواكه والورود خصوبتها تمس القلوب » (١٠٥) .

وقد انتقد فولني كعادته وصف سافارى لمدينة رشيد واعتبره مبالغا فيه ولكنه لم يستطع أن ينكر « ان رشيد بها غابات من النخيل والليمون والموز والبرتقال والبرقوق » (١٠٦) .

ونظرا لأهمية مدينة رشيد فقد وضع الأتراك بها فصيلة من الأوجاق ورغم ذلك ظلت المدينة ضعيفة التحصين وتحصيناتها « لا تساوى شيئا » على حد قول جرانجيه (١٠٧) .

واخيرا عند ختام الحديث عن رشيد نلاحظ ان ما ذكره رحالة القرن الثامن عشر من وصف رائع للدلتا وخصوبة أراضى رشيد ذكره علماء الحملة الفرنسية ، فلنقرأ ما كتبه جولو عنها « الدلتا فى رشيد تغطيها الخضرة وتنتج أجمل المحاصيل ، أما عن يميننا فقد كان ثمة غابات من النخيل ذات خضرة اخاذه » كانت العيون تستقر بارتياح واعجاب فوق حقول يغطيها الأرز فتشكل واحدا من أبهج المشاهد (١٠٨) .

---

(١٠٤) Sonnini : Op. Cit., + 1 P. 245.

(١٠٥) Savary : Op. Cit., + 1 P. 59.

(١٠٦) فولنى : المرجع السابق ، ص ١٠٧ .

(١٠٧) Granger : Op. Cit., P. 212.

(١٠٨) انظر وصف مصر ، جـ ٣ ، ص ٢١١ ، دراسة جولو « دراسة موجزة عن مدينة رشيد » .

وفى المنطقة الواقعة بين رشيد والاسكندرية وجد الرحالة مجموعات من البدو تقوم بجمع الأعشاب وحرقها للحصول على الرماد وبيعه الى التجار الفرنسيين فى الاسكندرية حيث يتم تصديره الى فرنسا لصناعة الصابون (١٠٩) .

الاسكندرية :

ارتبط اسمها باسم رجل عبقرى هو الاسكندر « وكانت عاصمة للبطالمة والرومان بها العديد من الآثار الاغريقية والرومانية القديمة » وتقع الاسكندرية خارج الدلتا وأراضيها متصلة بصحراء افريقيا وريفها رملي مسطح لا شجر فيه ولا مساكن فهى مدينة موقعها أقرب الى افريقيا ولأنها خارج الدلتا فهى لا ترتبط بمصر سوى بقناة تصلها مياه النيل وقت الفيضان (١١٠) .

وقد وصف الرحالة سكان الاسكندرية وصفا يختلف تماما عما وصف به سكان رشيد ودمياط فهم « لصوص بالفطرة » على قول جرانجيه (١١١) . أماأوليفيه فقد وصفهم « تغلب عليهم الوحشية اعتادوا على الثورة ضد الفرنسيين والأوروبيين (١١٢) ، كذلك وصفهم فولنى بالاهمال « لأنهم لا يشعرون بجمال الآثار القديمة وقد تركوها نهبة للبوم فأصبحت أطلالا موحشة » (١١٣) .

وتشتهر المدينة بتجارتها وبها أعداد كبيرة من التجار من كريت وردس واليونان والمغرب (١١٤) ، ولكن رغم أهمية المدينة

---

(١٠٩) Savary : Op. Cit., + 1 P. 41.

(١١٠) فولنى : المرجع السابق ، ص ١٧ .

(١١١) Granger : Op. Cit., P. 217.

(١١٢) Olivier : Op. Cit., P. 7.

(١١٣) فولنى : المرجع السابق ، ص ١٥٠ .

(١١٤) Olivier : Op. Cit., P. 12.

التجارية الا أنها اليوم لم يعد لها مكانتها التجارية السابقة عندما كانت « حديقة افريقيا » فقد ذكر هيرودوت أنها من أشهر مدن العالم بعد روما ويمضى ميليه متجسرا « لم يبق من عظمتها سوى اسمها » وأكد انه جرت عدة محاولات للكشف عن مقبرة الاسكندر ولكنــه لم يتم العثور عليهـا وعلل ذلك « أنه ليس مؤكدا بأنه دفن فيها » (١١٥) .

قدم الرحالة وصفا لآثار الاسكندرية القديمة خاصة ما عرف بعمود بومبى فكتب لوكا انه من اجمل الآثار عليه كتابات هيروغليفية قيمة (١١٦) وقد تقدم القنصل الفرنسي ميليه بطلب الى الحكومة الفرنسية لنقل هـذا العامود الى فرنسا وقدم طلبا الى السفير الفرنسي فى استانبول مؤكدا « ان هذا العمود اثر جميل ولاشك انه سوف يلقى العناية والاهتمام فى فرنسا بدلا من اهمال الأتراك له » (١١٧) ، وقدم سونينى وصفا العمود فهو يتكون من ثلاث قطع القاعدة ثم العامود بنفسه ثم القمة (١١٨) ، واختلف الرحـالة فى تحديد طوله فقدره سافارى ١١٤ قدما أما لوكا فذكر انه ٩٤ قدما فقط . وقد طالب سونينى الحكومة الفرنسية بنقل العامود الى فرنسا لوضــع تمثال الحرية عليه رمز الثورة الفرنسـية (١١٩) ، وأكد سافارى ان العامود لم يشيد ذكرى لانتصــار قيصر كمـا كما هو شائع وانما شـيده الامبراطور سيفير قيام السكان ببنائه تقديرا له وأكد سافارى ان أبا الفدا أكد هذه الحقيقة (١٢٠) .

---

(١١٥) Maillet : Op. Cit., PP. 121 — 124.

(١١٦) Lucas : Op. Cit., + 1 P. 45.

(١١٧) Maillet : Op. Cit., P. 130.

(١١٨) Sonnini : Op. Cit., PP. 136 — 140.

(١١٩) Ibid : P. 140.

(١٢٠) Savary : Op. Cit., + 1 P. 38.

. . وقد القى سافارى تهمة اهمال الآثار وتدميرها على العرب كذلك ألقى تهمة احراق مكتبة الاسكندرية علي عمرو بن العاص وأدعى أن العرب « قضـوا على الأعمال العظيمة والفنون الراقية » وسرعان ما ناقض نفسه بعد ذلك فأكد أن الرومان هم الذين احرقوا مكتبة الاسكندر أثناء حربهم ضد كليوباترة » (١٢١) .

ولم يكتف الرحالة الفرنسيون بتقديم وصف للآثار القديمة فحسب وانما اهتموا بالحديث عن الكنائس المسيحية خاصة كنيسة سانت كاترين فبالغ لوكا في وصفه مؤكدا (١٢٢) « انه شاهد تجويفا فى حائط الكنيسة قيل له ان راس سانت كاترين قطعت فيه ورأى آثار الدماء عليه أما فولني فقد تحسر على آثار الاسكندرية التى أصبحت مأوى للحيوانات الضارية والزواحف الدنسة » (١٢٣) ، فذكر سونينى ان المسناء القديم مدخله صعب به قناة ضيقة ولكن له مزايا أخرى فمياهه عميقة ولذلك فهو ملجأ للسفن إثناء إشتداد العواصف (١٢٤) ، وقد حرم على الأوربيين دخول الميناء القديم ولابد من الحصول على فرمان للمرور فيه وأكد اوليفيه ان التجار الفرنسيين حاولوا اقامة وكالات لهم فى الميناء القديم ولكنهم قوبلوا بالمعارضة الشديدة من قبل السكان عند دخولهم الميناء (١٢٥) ، أما الميناء الجديد فيقع فى الشرق مياهه أقل عمقا يوجد به العديد من الصخور يتعرض للرياح الشمالية وقد خصص للسفن المسيحية ونظرا لشدة الرياح فان السفن تظل خارج الميناء حوالى الشهر محاولة الرسو فيه

---

(١٢١) Ibid : P. 38.

(١٢٢) Lucas : Op. Cit., + 2 P. 45.

(١٢٣) فولني : المرجع السابق ، ص ١٥٠ .

(١٢٤) Sonnini : Op. Cit., + 1 P. 107.

(١٢٥) Olivier : Op. Cit., P. 9.

مما يؤدي الى تعرضها للغرق (١٢٦) ، ولاحظ أوليفيه نفس عيوب الميناء الجديد وانه مفتوح أمام رياح الشمال قليل العمق لا يستقبل السفن الضخمة وتظل سفن التجار عاجزة عن الرسو فيه مما يضطرها الى اللجوء الى جزيرة فاروس (١٢٧) ، وأكد فولنى خطورة الرسو فى المرسى الجديد خاصة « وانه قد امتلأ بالرمال مما يؤدى الى ارتطام السفن بها كذلك تنقطع حبال المراس بسبب قوة الرياح مما يعرض السفن للغرق » وأضاف فولنى « انه منذ ثمانى عشرة سنة تحطمت اثنتان واربعون سفينة على رصيف المرفأ الجديد بسبب عاصفة هبت من الشمال الغربى » وانتقد فولنى الأتراك « لعدم تجديدهم للمرفأ الجديد واهمالهم له انهم يتلفون ولا يرممون وهم يهدمون أعمال الماضى وآمال المستقبل » (١٢٨) .

وعلل أوليفيه السبب فى منع السفن الأوروبية من دخول الميناء القديم الى اعتقاد شائع رواه بعض الأهالى « أن هناك اعتقادا بأنه لو دخلت سفن الكفرة الأوروبيين الميناء القديم فسوف تقع المدينة فى أيديهم » (١٢٩) ، وقد كتب علماء الحملة الفرنسية نفس ملاحظات رحالة القرن الثامن عشر عن الميناء الجديد وعن مدى خطورة رسو السفن فيه بسبب قوة رياح الشمال (١٣٠) .

---

(١٢٦) Sonnini : Op. Cit., + 1 P. 106.

(١٢٧) Olivier : Op. Cit., P. 8.

(١٢٨) فولنى : المرجع السابق ، ص ١٦ .

(١٢٩) Olivier : Op. Cit., P. 10.

(١٣٠) انظر وصف مصر ، جـ ٣ ، ص ٢٨٦ ، دراسة جراتيان لوبير « دراسة عن مدينة الاسكندرية » وهى دراسة عن موانى الاسكندرية القديمة والجديدة .

وتتصل بمدينة الاسكندرية جزيرة فاروس حيث تنعدم فيها الزراعة وهي غير مأهولة بالسكان وأكد أوليفيه أنه شاهد مقابر أثرية قديمة (١٣١) فيها ، أما سافاري فقد اقتبس مقتطفات كثيرة من كتابات أبي الفدا وذكر أن المنارة في فاروس كان بها مرآة من الفضة تشتعل فيها النيران واستخدمت لارشاد السفن وهي من عجائب الدنيا السبع (١٣٢) .

أما ما ذكره الرحالة عن شوارع الاسكندرية ومنازلها ومساجدها فلا يختلف عما ذكره رحالة القرنين السادس عشر والسابع عشر ، كذلك عن طريقة امداد المدينة بالمياه بواسطة صهاريج (١٣٣) تمتلىء بمياه الفيضان ، واثناء الفيضان يتم حفر قناة صناعية تصل النيل وحتى الاسكندرية ويدخل الماء تحت سور المدينة ليصب في الصهاريج (١٣٤) وهي مكسوة بالرخام ويمكن الدخول والخروج منها بسهولة (١٣٥) .

ولما كان اهتمام أوليفيه بدراسة تحصينات المدن المصرية تمهيدا لارسال الحملة على مصر فقد تفقد تلك التحصينات وأكد ضعفها الشديد كما أكد هذه الحقيقة فولني من قبل « فمن الناحية الحربية الاسكندرية لا تساوي شيئا ، لا يوجد بها حصون

---

(١٣١) Olivier : Op. Cit., P. 11.

(١٣٢) Savary : Op. Cit., + 1 P. 37.

(١٣٣) انظر وصف مصر ، ج ٣ ، ص ٢٥٧ - ص ٢٦٢ ، عن صهاريج مدينة الاسكندرية ، دراسة لانكريه شابرول « دراسة موجزة عن ترعة الاسكندرية » ، عن صهاريج الاسكندرية .

(١٣٤) ذكر العمري انه يمكن للنازل الى صهاريجها الصعود من اى جهة .

(١٣٥) Maillet : Op. Cit., P. 143.

ولا مدافع صالحة للاستعمال ولا مدفعيون يقومون على ادارتها ، أما الانكشارية الخمسمائة الذين يجب ان تتألف منهم الحامية فقد تم انقاص عددهم الى النصف وهم جهلة لا يحسنون عملا الا تدخين الغليون » ثم أكد « باستطاعة اى سفن حربية أن تنطلق من مالطة أو روسيا ان تحول المدينة الى رماد » (١٣٦) .

واخير ان الاسكندرية مدينة تجارية ولذلك ففيها مختلف الجنسيات واللغة العربية هى اللغة المستخدمة بين التجار كذلك يتحدثون الفرنسية والايطالية (١٣٧) ولم ير فولنى فى الاسكندرية سوى « ازياء عجيبة الهندام ووجوه تتسم بالغرابة تنتشر فيها الروائح الكريهة دائما بها عدد كبير من الحمير والكلاب الضالة . والسكان يبدو عليهم الهزال يسيرون لا رداء على اجسامهم سوى قميص أزرق شد وسطه نطاق جلدى أو منديل أحمر مما يدل على شقاء البشر والعبودية التى يعيشون فيها » (١٣٨) .

أبو قير :

تبعد أربعة فراسخ عن الاسكندرية أراضيها مغطاة بالرمال ، لم يهتم المماليك باصلاح مصب كانوب لمنع اغارة مياه البحر عليها . والمدينة بها آثار قديمة وأعمدة من المرمر دمرها العرب واستخدموها لبناء مساكنهم ، وابو قير ليست مدينة عظيمة الامتداد بها العديد من العرب يغلب عليهم البؤس والشقاء وصورتها تختلف عن الصورة التى رسمها لنا القدماء عن سكان كانوب وانهم كانوا يعيشون فى رخاء ورفاهية . ويمكن اصلاح

---

(١٣٦) فولنى : المرجع السابق ، ص ١٦ .

(١٣٧) Sonnini : Op. Cit., + 1 P. 125.

(١٣٨) فولنى : المرجع السابق ، ص ١٤ .

الميناء واستخدامه كملجأ للسفن التى لا تستطيع دخول الاسكندرية (١٣٩) .

وفى أبى قير بحيرة عرفت ببحيرة المعدية تكونت حديثا وسميت بهذا الاسم لأن المياه الموجودة فى البوغاز عبرت أى عدت بين الاسكندرية ورشيد ويوجد فى أبى قير لسان رملى يفصل البحيرة عن البحر وقد تحدث بول لوكا عن وجود جسر من الأحجار والأخشاب يسير بحذاء الساحل قادما من الغرب الى الشرق قطع عام ١٧١٥ م بفضل اندفاع مياه البحر وان المياه غزت المعدية منذ ذلك التاريخ (١٤٠) .

دمنهـــور :

عاصمة البحيرة من أجمل المناطق ، بها بك ويحكمها كاشف والمدينة مركز لتجارة القطن يسكنها المسلمون والأقباط ، وذكر سافارى أن أبا الفدا حدد موقعها فذكر انها جنوب شرق الاسكندرية ، قريبة من قناة تحمل المياه ، بها مزارع غنية بالقمح والقطن وتصنع فيها المراكب وقد أعجب سافارى بالفتيات فى دمنهور وهن يغتسلان فى النهر بأجسامهن المشوقة المحروقة بأشعة الشمس (١٤١) ، أما سونينى فقد ذكر ملاحظة غريبة وزعم ان فى دمنهور عددا من النساء الساقطات يكشفن وجوههن ويتواجدن قرب المقاهى وقد فرشن الخيام لاجتذاب الناس(١٤٢) .

---

(١٣٩) Olivier : Op. Cit., PP. 80 — 82.

(١٤٠) انظر وصف مصر ، جـ ٣ ، ص ١١٣ ، ص ٤١٤ جرانيان لوبير « مستخلص من دراسة عن بحيرات وصحراوات مصر السفلى » .

(١٤١) Savary : Op. Cit., + 1 P. 68.

(١٤٢) Sonnini : Op. Cit., + 2 P. 142.

فـــــوه

أكد سافاري ان حجم مدينة فوه قد تضـــاءل وانها كانت أكبر حجما من ذلك عندما زارها الرحالة بيلون فى القرن السادس عشر ولكنهـــا الآن لم يعد بها قناة صالحة للملاحة ولذلك انتزعت رشيد منها المنافسة التجارية وكتب سافاري بطريقته الرقيقة « بدت لي مدينة فوه حزينة لفقدانها أهميتها ورونقها » (١٤٣) ؛ وأكد أوليفيه ان فوه فقدت مكانتها التجارية وكانت تشتهر بمصانع المنسوجات وبمزارع النخيل والليمون والبرتقال (١٤٤) ، ولم تعد السفن الأوروبية تفد على فوه بسبب اهمـــال القناة ، ولكن على رغم من أن المدينـــة فقدت أهميتها التجارية (١٤٥) الا أنها مأهولة بالسكان شوارعها مستقيمة وزعم ميليه « ان النســاء فى فوه يتمتعن بحريـــة كبيرة فيخرجن كمـــا يحـلو لهن دون اســتئذان أزواجهن » (١٤٦) .

المنصــــورة :

قريبة من فوه ، سكانها أكثر سكان مصر أدبا وقدم جرانجيه شرحا للقارىء الفرنسي عن معنى اسم المدينة « المنتصر » وذكر أن بها سجن الملك لويس التاسع ، ويسهل التعامل مع سكان المدينة وتشتهر المدينـــة بتجارة الأقمشة والجلود والأرز والملح وبهـــا

---

(١٤٣) Savary : Op. Cit., ‑+ 1 P. 66.

(١٤٤) Olivier : Op. Cit., ‑+ 3 P. 104.

(١٤٥) عن انتزاع رشيد مكانة فوه التجاريـــة ، انظر وصف مصر ، ج ٣ ، ص ١٠٤ ، دراســـة دي بوا ـ ايميه مالو « ان فوه فقدت مكانتهـا التجارية بسبب اهمال الترع فانتقل نقل البضـــائع فيها من النيل الى رشيد الى الاسكندرية » .

(١٤٦) Maillet : Op. Cit., P. 106.

كنيسة مسيحية ومعبد قديم للآلهة أبولون دمر بالكامل ومعبد ايزيس فى شرق المدينة ويوجد فى المدينة اعداد من الانكشارية والعزب (١٤٧) .

اما سيكار فذكر ان المنصورة ليست مدينة كبيرة وانما هى مدينة صغيرة بها كنيسة القديسة دميانة وبها أسواق لبيع الأسماك خاصة في مولد القديسة دميانة حيث يفد على المدينة معظم القساوسة ، وأكد سافارى أن أبا الفدا تحدث عن المدينة واكد وجود تجار مسيحيين من سورية يتاجرون فى الأرز (١٤٨) .

زار الرحالة الفرنسيون عددا من المدن والقرى واكتفوا بذكر اسمائها ، فقد زار سافارى زفتى ووجد انها « مدينة صغيرة لا تستحق الزيارة ، منازلها على الأرض يبدو البؤس واضحا على سكانها » (١٤٦) .

مدن البحر الأحمر :

قدم الرحالة الفرنسيون وصفا لأهم مدن وموانىء البحر الأحمر خاصة كل من السويس والقصير ، وقد عرف جرانجيه البحر الأحمر « ببحر موسى » ويبدو انه تأثر بهذه التسمية من اليهود . ثم قدم وصفا عنه فكتب « انه اقل عرضا من البحر المتوسط ومياهه اقل ملوحة ولكن أسماكه سيئة الطعم » (١٥٠) .

وكان من الطبيعي ان تلفت السويس نظر الرحالة باعتبارها من اقدم الموانىء فهى « مستودع جدة » تفد عليها السفن بحرا من

---

(١٤٧) Granger : Op. Cit., P. 205.

(١٤٨) Savary : Op. Cit., + 1 P. 299.

(١٤٦) Ibid P. 286.

(١٥٠) Granger : Op. Cit., P. 199.

الجزيرة العربيـــة فتصل اليها واردات الهند ، وقد ذكر فولنى انه فى عام ١٧٨٢ م تم ارسال بضـــائع من السويس الى جدة ومكة حملت على ظهور ثلاثة آلاف جمل شملت الأخشـــاب والأشرعة والحبال وبالات الجوخ والقمح والحديد . وتخرج قوافل الحج أيضـــا من الســـويس تحمـل المؤن من الأرز واللحم والمـــاء والخشب (١٥١) . ويشترك البدو مع الجنود الانكشارية والعرب فى حماية هذه القوافل (١٥٢) .

ورغم الأهمية التجارية لميناء السويس ونشاط حركة التجارة فيه الا أنه لم يلق العناية الكافيـــة من السلطات وانتقد فولنى ذلك الاهمال « ان المدينـــة تحيط بها الرمال وهى اشد البلاد قحطـــا فلا يوجـد بهـــا مـــاء صـــالح للشرب ومياههـــا غير مستساغة الطعم » (١٥٣) . وقد تكررت هذه الملاحظـــة من قبل الرحـــالة خاصة عن عدم توفر المياه الصالحة للشرب فى الســـويس فكتب بوكوك معربا عن ضيقه من عدم توفر المياه فى المدينة (١٥٤) ، ولكن جرانجيه أكد أن هنـــاك بعض المحاولات البسيطة التى بذلت لتوفير المياه الشرب عن طريق تخزينها فى براميل (١٥٥) .

اما عن حالة الميناء فهو « فى حالة رديئة سيئة يصعب اقتراب الســـفن منه الا عند المد » وافـــاض فولنى فى وصف ســـهولة الاستيلاء على الســـفن الراســـية فى ميناء الســـويس وذلك لأن تحصينات المدينة ضعيفة كما ان المدافع الموجودة يعلوها الصـــدأ

---

(١٥١) فولنى : المرجع السابق ، ص ١٤١ .

(١٥٢) Granger : Op. Cit., P. 83.

(١٥٣) فولنى : المرجع السابق ، ص ١٤١ .

(١٥٤) Aurlant : Op. Cit., P. 315.

(١٥٥) Granger : Op. Cit., P. 195.

ومعمل السويس لا يصلح للترميم ، وانتقد فولنى السلطات فى مصر لأنها تركت الرمال عند مدخل المدينــة وكتب « لو كان فى مصر حكومة صالحة لشيدت مدينة جميلة على الخليج ولاهتمت بترميم قناة النيل وحفرها ثانية » (١٥٦) . اما سكان المدينـة فمعظمهم مسلمون ولكن بها عدد من العـائلات اليونانية تعمل فى تجارة الحبوب (١٥٧) .

القصـــير :

تقع جنوب السويس ذكر ميليه ان الرومان أطلقوا عليها ميناء الفئران وهى مستودع تجــارة مصر العليا مع الجزيرة العربيـة فمنها أيضا يخرج الحجاج الى مكة وللمدينة أيضا اتصالاتها مع الحبشـــة (١٥٨) .

وتبعد المدينة عن قوص ثلاثة أيام وتخرج القوافل من قوص متجهة الى الصعيد (١٥٩) ، كما تفد عليها القوافل من قنا وأبنوب على أن أهم ما يميز المدينة كما ذكر سونينى هو « تجمع قوافل البن فيها » (١٦٠) .

---

(١٥٦) فولنى : المرجع السابق ، ص ١٤٣ .

(١٥٧) Granger : Op. Cit., P. 190.

(١٥٨) Maillet : Op. Cit., P. 322.

(١٥٩) نفس الملاحظـــة وردت فى وصـــف مصر ، جـ ٣ ، ص ٢٤٧ ، ص ٢٤٩ ، مقـالة عن مدينـة القصير وضـــواحيها دى بوا ـ ايميه « أراضى المدينة رملية لا يكاد المرء يرى أى نوع من الخضرة ، الميناء مفتوح أمام رياح الشر ، القصير مستودع تجارة مصر العليـا مع الجزيرة العربيــة حيث تصدر اليها الدقيق ـ الحبوب ـ الزيوت ـ مواد غذائيـة وترســل الجزيرة العربية البن ومنتجات الهند » .

(١٦٠) Sonnini : Op. Cit., + 3 P. 219.

وأكد الرحالة البريطاني بروس ان « القصير يرد اليها جميع منتجات الهند ومنها تنقل بواسطة القوافل الى القاهرة » (١٦١) .

وقد عرف الاغريق قيمة ميناء القصير فشيدوا فيه حصنا ولكن بمقارنة حال الميناء الآن نجده يفتقر الى التحصين لا يوجد به سوى حارس واحد مهمته اغلاق بوابة حديدية قديمة وشعر سافاري بالأسف لأن السلطات المصرية لم تعرف قيمة هذا الميناء الذي عرف قيمته اليونانيون والرومان (١٦٢) .

وسكان القصير خليط من العرب والأتراك ويحكم المدينة كاشف يتبع حاكم قنا . وقد عدد سافاري مصاعب التجارة مع ميناء القصير فذكر أن الضرائب المفروضة على البضائع تصل الى ١٠٪ ولذلك فهى لا تشجع التجار الأوروبيين على الحضور الى الميناء ، كذلك استبداد البكوات وخوف التجار من هجمات البدو وضرب سافاري مثالا لذلك ما حدث للقائد العام للمنشآت الفرنسية في البنغال اذ حضر الى القصير لتفقد أحوالها التجارية وبحث امكانية التجارة بينها وبين الهند ولكنه تعرض لمضايقات من قبل الأتراك ، كذلك تعرض لاغارات البدو على قافلته وهو يعبر الصحراء متجها الى السويس فعانى الكثير حتى وصل الى القاهرة (١٦٣) .

وصف لبعض بحيرات وصحراوات مصر

بحيرة المنزلة :

تمتد من دمياط من قصر الطينة حتى الشمال من بيلوز تبعد احد عشر فرسخا عن المنصورة تصلها مياه الفيضان وبها أعداد

---

(١٦١) Bruce : Op. Cit., P. 92.

(١٦٢) Savary : Op. Cit., + 2 P. 109.

(١٦٣) Ibid. P. 109.

كبيرة من الصيادين ذكر سافارى انه يعمل فيها بالصيد حوالى ١٢٠٠ مركب يدفع أصحابها الضرائب السنوية للباشا مقابل السماح لهم بالصيد فى البحيرة وانواع الأسماك فيها جيدة تمتاز بلحمها الأبيض الناعم الذى يباع طازجا فى دمياط والمدن المجاورة واجود انواع البورى فى المنزلة ومن اناثه يتم صنع البطارخ وعلى سطح البحيرة يسبح الأوز والبط والبجع حتى أن سافارى كتب « اننى أعجز عن وصف جمال وروعة البحيرة » (١٦٤) .

وذكر جرانجيه ان السكان المقيمين حول البحيرة لا يزرعون سوى الأرز والبحيرة بها خمسة فروع ، أربعة منها تقصد مياهها البحر أما الخامس فينتهى بالقرب من بيلوز (١٦٥) .

بحيرة المعدية :

تكونت حديثا فى أبى قير سميت بهذا الاسم لأن المياه الموجودة فى البوغاز تعبر بين الاسكندرية ورشيد ويوجد لسان رملى يفصل البحيرة عن البحر (١٦٦) .

بحيرة مريوط :

تقع جنوب الاسكندرية ، تحدث عنها الرحالة الفرنسيون فى القرنين السادس والسابع عشر خاصة بيلو دى مان وفيلامون وتيفنو وأكدوا امتلاءها بمياه الفيضان (١٦٧) .

---

(١٦٤) Ibid P. 338.

(١٦٥) Granger : Op. Cit., P. 206.

(١٦٦) Lucas : Op. Cit., P. 45.

(١٦٧) Granger : Op. Cit., P. 221.

بحيرة موريس (قارون) :

ذكر أوليفيه أنهـا حفرت بأيد بشريـة والبعض أكد انه قد خرج منها فرع من النيل الى ليبيا حتى سرت ولكن أوليفيه انكر هـذا الرأى مؤكدا ان النيل لم يمر فى صحراء ليبيا وقد سميت ببحيرة موريس نسبة الى الملك موريس الذى أمر بحفر البحيرة فقام بعمل عظيم لا يقل فى روعته عن بناء الأهرامات (١٦٨) ، والواقع أن ما ذكره أوليفيه فى أواخر القرن الثامن عشر كان قد ذكره جرانجيه من قبل من أن الملك موريس هو الذى أمر بحفر هـذه البحيرة التى تمتاز بجودة اسماكها وصلاحية مياهها للشرب .

بحيرتا وادى النطرون فى الصحراء الغربية :

قدم فولنى وصفا عنهما فقال تقع بحيرتا النطرون غربى الدلتا قاعهما عبارة عن حفرة يتراوح طولها من ثلاثة الى أربعة فراسخ أرضها صلبة حجرية جافة طوال تسعة أشهر وفى الشتاء ينبع من الأرض ماء لونه أحمر بنفسجى يملأ البحيرة بارتفاع عشرة اقدام وبعد الفيضان تتبخر المياه فتترسب طبقة سميكة من الملح الصلب ويستخرج منها حوالى ٣٦ الف قنطار سنويا (١٦٩) .

أكد سونينى ما ذكره هيرودوت وبلينى من أن مياه النيل وصلت الى هذه المنطقة حاملة معها الفيضان (١٧٠) ؛ كذلك أكد سيكار أن هناك علاقة بين النيل وهذه البحيرات ولما كان سيكار يجهل النواحى العلمية فقد تراجع عما ذكره وأكد استحالة

---

(١٦٨) Olivier : Op. Cit., P. 276.

(١٦٩) فولنى : المرجع السابق ، ص ٢٠٠ .

(١٧٠) Sonnini : Op. Cit., + 1 P. 100.

وجود علاقة بين النيل وبحيرة النطرون ففى وقت الفيضان تتقلص مياه البحيرة وعندما يتراجع النيل تمتلىء البحيرة بالمياه (١٧١) ، وقد فسر سونينى العالم الطبيعى ذلك بأنه في وقت الفيضان وقت صيف ولذلك تكون الحرارة شديدة ويكون موسم الفيضان من أكثر الفصول حرارة فى العام ولذلك تجف المياه فى البحيرة بينما تكون مياه النيل مرتفعة بفضل الفيضان وعندما تتراجع مياه البحيرة وتجف فانها تترك ارضا كلها أملاح جامدة جداً بفعل حرارة الشمس ، يستخرج منها النطرون (١٧٢) .

واكد جرانجيه ان الملح فى هذه البحيرات فى فصل الصيف يكون جافا جدا بفعل حرارة الشمس فيسمح بسير الجمال عليه (١٧٣) . ويؤكد سونينى ان هذه المنطقة فى حاجة الى دراسة طبيعية وفيزيائية وهذا ما فعله علماء الحملة (١٧٤) .

ويستخرج النطرون بكميات كبيرة وبواسطة الآلات الحديدية ، ثم يحمل على ظهور الجمال الى طرانة ومنها الى النيل ثم القاهرة ورشيد (١٧٥) .

بحر بلا ماء :

منطقة قريبة من بحيرات النطرون أطلق عليها مكان الصحراء الغربية « البحر الفارغ » تحدث الرحالة السابقون عن

---

(١٧١) Sicard : Op. Cit., P. 14.

(١٧٢) Sonnini : Op. Cit., + 2 PP. 163 — 165.

(١٧٣) Granger : Op. Cit., P. 174.

(١٧٤) Sonnini : Op. Cit., P. 165.

(١٧٥) اختلف رأى الجنرال اندريوسى من رأى سونينى فأكد أثر مياه النيل على البحيرة وان لها تأثير عليها ، انظر وصف مصر ، ج ٣ ، ص ١٢٤ ، دراسة عن المدن والاقاليم المصرية .

هذه المنطقة وزعموا أن سبب تسمية المنطقة بهذا الاسم كما ذكر الرهبان يرجع الى أن بعض القراصنة ارادوا مهاجمة الأديرة فأخذ الرهبان يصلون ويدعون الله لانقاذهم وكانت مياه البحر تصل من قبل الى الدير ولكن الله استجاب لدعوات الرهبان وانحسر الماء نهائيا من المنطقة وفشل القراصنة فى النزول بسفنهم ولذلك سمت المنطقة « بحر بلا ماء » لأن المياه كانت تصل اليها قديما تلك رواية كوبان التى ذكرها فى القرن السابع عشر (١٧٦) وقد أكدها أيضا كثير من رحالة القرن الثامن عشر خاصة جرانجيه (١٧٧) .

وقد اختلف الرحالة فى مسألة وصول مياه النيل الى هذه المنطقة ، فأكد اوليفيه (١٧٨) أن مياه النيل لم تصل الى منطقة بحر بلا ماء ولكن ربما وصلت مياه البحر المتوسط وهذا ما يفسر وجود عظام الأسماك والأصداف » واكد خطأ فكرة سافارى والأب سيكار بشأن وصول مياه النيل الى المنطقة وذلك « لأن تربة المنطقة لا تشبه تربة مصر فلا يوجد بها سوى الرمال والصخور » (١٧٩) .

الصحراء الغربية :

اطلق عليها الرحالة صحراء ليبيا وهى تقع غرب الاسكندرية ولم يهتم الرحالة بوصف الصحراء الغربية قدر اهتمامهم بوصف

---

(١٧٦) الهام ذهنى : المرجع السابق ، ص ١٢٦ .

(١٧٧) Granger : Op. Cit., P. 174.

(١٧٨) لمزيد من المعلومات عن منطقة بحر بلا ماء ، انظر ما كتبه الجنرال اندريوسى من علماء الحملة الفرنسية عن المنطقة فقد قدم دراسة منها بعنوان « طبوغرافية البحر الفارغ » وصف مصر ، جـ ٢ ، ص ٤١ .

(١٧٩) Olivier : Op. Cit., PP. 277 — 280.

الأديرة المسيحية فيها فقدموا وصفا لدير السريان ودير ابى مقار ودير الباراموس ودير الانبا بيشوى واشتركوا فى ذلك مع من سبقوهم من الرحـالة الذين أنصبت كتاباتهم على هذه الأديرة فأهميـة الصحراء الغربية للرحـالة انما ترجع لوجود الأديرة المسيحية فيها .

وقد بنيت الأديرة الأربعة على نمط واحد : مربع مغلق اضلاعه متساوية بداخله كنيسـة ومكتبة كبيرة بها العديد من المخطوطات ويوجد بئر فى داخل كل دير لامداد سكانه بالميـاه وقد حرص الرهبان على بناء الأسوار العالية حول الأديرة كذلك اخفاء مداخلها خوفا من هجمات البدو (١٨٠) .

ويعتبر دير الأنبا مقار من أهم الأديرة ويوجد بداخـله جثمان ابى مقار ويستخدم الرهبان فيه الحبال للصعود والنزول منه وقد وصف سونينى الرهبـان فى هذا الدين بالجهل الشديد لأنهم لم يسمحوا له بالاطلاع على مكتبة الدير (١٨١) ، وذكر سيكار ان هذه المكتبـة عامرة بالمخطوطات والكتب ولكن كلها تدور حول شهداء الأقبـاط فى عهد الرومان وبها قصص خرافيـة نسخها الرهبان حول القديسين وبالمكتبة أيضا عدد كبير من المخطوطات العربية (١٨٢) . وقد تعجب جرانجيه من سلوك الرهبان الذين يفضلون أن تبلى هذه المخطوطات وتتآكل بفعل الأتربة عن أن يقوم أحد بنشرها (١٨٣) .

---

(١٨٠) Sonnini : Op. Cit., + 2 P. 163.

(١٨١) Ibid, P. 186.

(١٨٢) Sicard : Op. Cit., P. 13.

(١٨٣) Granger : Op. Cit., P. 180.

دير البراموس :

فقد أكد سيكار أنه وجد قسا أصله من الحبشة كان لصا ثم تاب وانخرط فى سلك الرهبنة (١٨٤) وأكد سونينى أنه وجد فى الدير عدة توابيت أكد له الرهبان انها تحوى رفات القديسين بينما أكد له البدو انهم شاهدوا الرهبان يجمعون عظام الجمال والحمير النافقة ويضعونها فى التوابيت لاقناع الناس بأنها رفات القديسين (١٨٥) ، ودير البراموس أسواره مرتفعة عالية به مدخل عبارة عن باب صغير جدا يتم الصعود اليه بواسطة الحبال . وفى مكتبة الدير العديد من الكتب والمخطوطات باللغة اليونانية والقبطية وهم يهملون الكتب ويضعونها على الأرض حيث تتجول فيها الحشرات ، وكنيسة الدير سيئة حتى اللوحات الفنية المعروضة فيها سيئة للغاية لا تقارن بعظمة الفن والرسم المصرى القديم (١٨٦) .

وغذاء الرهبان الخبز والخس والأرز وأحيانا العسل وملابسهم بسيطة يفضلون الملابس السوداء والألوان القاتمة وهم قصار القامة ، وقد وصف سونينى الرهبان فى هذا الدير « لم أر أقذر ولا أجهل منهم » (١٨٧) . وفى وسط الدير قام الرهبان بزراعة النباتات خاصة الفلفل البلدى ويأكلون جذوره مع اللحم ولا يوجد لديهم فواكه ولا زهور ، ولكن الرهبان خصص لهم جزء من ملح وادى النطرون أطلق عليه « ملح مختوم » أى أنه خاص برهبات الدير (١٨٨) .

---

(١٨٤) Sicard : Op. Cit., P. 16.

(١٨٥) Sonnini : Op. Cit., + 2. PP. 191 — 192.

(١٨٦) Ibid : PP. 187 — 191.

(١٨٧) Ibid, P. 196.

(١٨٨) Ibid, P. 200.

دير السريان :

هو أفضل الأديرة به بئر لرى النباتات وبه حديقة وقد شاهد سيكار شجرة تمر هندى زعم له الرهبان بأنها كانت عصا لأحد القديسين ثم تحولت الى شجرة (١٨٩) .

دير الأنبا بيشوى :

أكد الرهبان لسيكار انهم يحتفظون برفات احد القديسين فيه وانها لم تبل حتى الآن (١٩٠) .

وبعد أن زار سونيني الأديرة الأربعة فى الصحراء الغربية كتب « اقسمت بعد ما رأيته فى أدير منطقة الصحراء الغربية بألا أضع قدمى فى دير مرة أخرى » (١٩١) .

والحقيقة أن علماء الحملة الفرنسية كتبوا عن رهبان الأديرة الأربعة وصفا شبيها الى حد كبير بما كتبه الرحالة الفرنسيون من قبل « رجال الدين عور عميان لهم ملمح وحشى يتغذون على الفول والعدس المطبوخ بالزيت وينقضى اليوم فى الخلوات والصلاة ، لديهم مخطوطات مكتوبة باللغة القبطية والعربية » (١٩٢) .

وكما مثلت الصحراء الغربية أهمية للرحالة الفرنسيين باعتبارها تضم بعض الأديرة الهامة والتى حرصوا على زياراتها

---

(١٨٩) Sicard : Op. Cit., P. 46.

(١٩٠) Ibid, P. 35.

(١٩١) Sonnini : Op. Cit., + 2 P. 214.

(١٩٢) انظر وصف مصر ، ج ٢ ، ص ٦١ ، ٦٦ ، دراسة موجزة عن بحيرات النطرون وعن النهر بلا ماء للجنرال أندريوسى .

والكتابة عنها فقد مثلت لهم الصحراء الشرقيـة نفس الأهمية فاهتموا عند زيارتها بوصف ما بها من اديرة .

لفت دير سانت انطوان نظر الرحالة فذكر جرانجيه أنه صعد اليه بواسطة حبل وقدم وصفا للكنيسة بداخله ، ولرجال الدين فيه لا تختلف عما سبق أن ذكر « القساوسـة يرتدون قميصا أبيض سترته سوداء يصـومون طوال العـام لا يأكلون اللحم ـ جهلة ـ يضيعون أوقاتهم فى كتابة أوراق لعلاج المرضى ويحصلون على غذائهم من القرى المجاورة » (١٩٣) .

ويعانى سكان دير سانت انطوان من هجمات البدو ولذلك فان أسوار الدير عالية مغلقة ويخلو الدير من النوافذ ولا يمكن الصعود اليه الا بواسطة الحبال ويقوم الرهبان بزراعة الفواكه والخضروات لامدادهم بالغذاء .

ويكثرون من اكل الأسـماك المملحـة والزيت والسمسم والرهبـان فيه يعيشـون فى بؤس وجهـل على حـد قول سافارى (١٩٤) .

ولا يختلف دير سانت بول عن الأديرة السابقة وان كانت أسواره فى حالة أفضل من دير سانت انطوان ، وقد زعم الرهبان لجرانجيه بأن الدير يطلق عليه دير النمور وذلك لأن النمور قامت بحفره وسط الصخور (١٩٥) .

---

(١٩٣) Granger : Op. Cit., PP. 106 — 117.

(١٩٤) Savary : Op. Cit., + 2 PP. 57 — 59.

(١٩٥) Granger : Op. Cit., P. 117.

صحراء سيناء :

لفتت سيناء أنظار الرحالة ففيها دير سانت كاترين مزار الحجاج الذين يفدون على بلاد الشام ، والرهبان فى الدير ينتمون للكنيسة اليونانية يعماون فى فلاحة الأرض لا يأكلون اللحوم أو الزبد والجبن ، غذاؤهم الرئيسى من الزيتون والسمك والبصل ، ولا يختلف ما ذكره رحالة القرن الثامن عشر عن دير سانت كاترين عما ذكره الرحالة فى القرنين السابقين (١٩٦) .

ومن المناطق الهامة التى حرص الرحالة على زيارتها منطقة عيون موسى حيث لا تنقطع المياه ولكن طعمها سيىء حار وقذر (١٩٧) .

أما مدينة الطور فهى ميناء الهند بها عدد من المسيحيين والأرمن ، مأوى القوافل التى تتوقف لتنال قسطا من الراحة قبل استكمال الطريق الى مكة والجزيرة العربية (١٩٨) .

---

(١٩٦) انظر الهام ذهنى : المرجع السابق ، ص ١٢٢ .
(١٩٧) المرجع السابق ، ص ١٢٣ .
(١٩٨) المرجع السابق ، ص ١٢٣ .

وصف لمدن الوجه القبلي

الجـــيزة :

عاصمة مصر القديمة تقع على الجانب الآخر من النيـــل المواجه للقاهرة : بنيت في ســـهل رملي هو سهل المومیات هكذا عرفها ميليه الجيزة (١٩٩) ، بينما أكد فورمون أن منف هي الجيزة حسب ما ذكره وكتبه كل من هيرودوت وسترابون وبليني وحرص على أيضـــاح خلط العديد من الرحـــالة عن موقع الجيزة وعجزهم عن تحـديد موقـــع منف « فـــلم يدركـوا بأنهـــا في الجـــيزة الحاليـــة » (٢٠٠) .

وحكم منطقة الجيزة كاشف والمنطقة تحيط بها المزارع خاصة مزارع الخضروات وبها صناعة استخلاص صبغة الزعفران التي تستخدم في صباغة الملابس ، ويصـــدر الزعفران الى مارسيليا ولانجدوك ، ويبدو أن مصـــانع الزعفران استمرت في عملها منذ

(١٩٩) Maillet : Op. Cit., P. 261.

(٢٠٠) Fourmont : Op. Cit., P. 217.

القرنين الماضيين فقد أكد رحالة القرنين السادس عشر والسابع عشر علي وجود هذه المصانع فى الجيزة (٢٠١) .

وهواء الجيزة أنقى من هواء القاهرة ولكن توجد بعض المناطق ذات رائحة كريهة خاصة المناطق القريبة من مصنع النوشادر (٢٠٢) .

ولا جدال ان الجيزة مثلت أهمية كبيرة للرحالة الفرنسيين ليس فقط بسبب ما بها من مصانع النوشادر والزعفران وغير ذلك . ولكن لأنها ضمت اهم الآثار التى حرص الرحالة على زيارتها والكتابة عنها أسوة بمن سبقوهم الا وهى الأهرام ، والحقيقة ان كتابات رحالة القرن الثامن عشر لا تختلف كثيرا عما ذكر من قبل عن الأهرام فقد عبروا عن أعجابهم وانبهارهم بالمنطقة ورددوا الخرافات والمعتقدات حول أبى الهول وما تناقله سكان المنطقة وعبر سافاري عن اعجابه وانبهاره بالأهرام « فهى جبال من الأحجار من صنع الانسان ترتفع فى الفضاء لا يعرف أسرارها الا من بناها » (٢٠٣) .

دخل معظم الرحالة الهرم الأكبر مدفوعين بالفضول الشديد والرغبة فى الوصف والتعبير عن عظمة هذا البناء فكتب أوليفيه « لم أستطع المكوث فى الهرم أكثر من أربع ساعات لعدم تجدد الهواء وصعوبة التنفس » (٢٠٤) .

اما سافارى فلم يجد فى داخل الهرم ما يجذبه فقد عانى من هجمات الخفاش ولم يشاهد سوى صالة كبيرة مربعة

---

(٢٠١) Savary : Op. Cit., + 1 P. 253.

(٢٠٢) Ibid, P. 253.

(٢٠٣) Ibid, P. 238.

(٢٠٤) Olivier : Op. Cit., P. 137.

وغرفة اقل اتساعا (٢٠٥) . وحرص معظم الرحالة على تأكيد مسألة تسلقهم الأهرامات خاصة الهرم الأكبر ، فكتب لوكا « من قمته تمكنت من رؤية مصر كلها والنيل والحدائق » (٢٠٦) وكان من الطبيعي أن يجذب هرم خوفو بضخامته انتباه الرحالة فكتب أوليفيه « ان الهرم الثالث يجذب المسافرين مثل الهرم الأكبر والأوسط ، ان المرء يحتاج أكثر من ستة أشهر لدراسة واكتشافات الأهرامات وان كانت تدل على عظمة المصريين فانها أيضا ترمز الى الطغيان لأن الملوك أجبروا الشعب على بنائها ؛ وأكد أوليفيه أن ارسطو ذكر فى كتاباته عن وجود قناة قرب هرم خوفو كانت تحمل العمال اللازمين للبناء من مصر العليا الى الجيزة » (٢٠٧) . أما سافاري فقد عقد المقارنات بين ما ذكره المؤرخون القدامى عن ارتفاعات الأهرام وما ذكره الرحالة فى العصر الحديث فوجد تفاوتا كبيرا فى تقديرات كل منهما (٢٠٨) .

---

(٢٠٥) Savary : Op. Cit., + 1 P. 186.

(٢٠٦) Lucas : Op. Cit., P. 67.

(٢٠٧) Olivier : Op. Cit., PP. 126 — 143.

(٢٠٨) المؤرخون القدامى

	الارتفاع	العرض
هيرودوت	٨٠٠ قدم	٨٠٠ قدم
سترابون	٦٢٥ قدم	٦٠٠ قدم
ديودور الصقلى	٦٠٠ قدم	٧٠٠ قدم
بلينى	——	٧٠٨ قدم

الرحالة :

لى بروين	٦١٦ قدما	٧٠٤ اقدام
البروفيسور البان	٦٢٥ قدما	٦٥٠ قدما
ليفنو	٥٢٠ قدما	٦٨٢ قدما
تيسود	٤٤٠ قدما	٧١٠ اقدام
جريفز	٤٤٤ قدما	٦٤٨ قدما

أما فولنى فقد كتب عن الهرم « عند وصف الأهرام لست بحاجـة الى تكرار ما ذكره بول لوكان وميليــه وسيكار وبوكوك ونوردون ونيبور وسافارى فأهرام الجيزة لم يتفق الجميــع فى حقيقة مقاييسها ونقول بخطـأ جميع القياسات التى تجعل الهرم الأكبر مساويا لقاعدته لأن مثلثهـا بين الانبطـاح ويبدو لى أن معرفة هذه القاعدة من الأهمية بمكان وكثيرا ما يشكو الناس انهم لا يفهمون باطن الهرم واحجـار الأهرام كلسية ضاربة الى البياض ومن الحماقة أن نظن ان هذه الحجارة نقلت من جهـات بعيدة نظرا لتكبد النفقــات الباهظـة » واختلفت الآراء حول الأهرام فهناك رأى بأنها كانت قبورا وهناك رأى أنها استخدمت مراصد فلكية وذلك نظرا لارتفاعها ولكن هذا الرأى غير صحيح لأن جبل المقطم اكثر ارتفاعا فضــلا عن انه يحجبها » « ان هذه الجبال المصطنعة تبدو للناظر على مسافة عشرة فراسخ ويلوح لك انها تبعد عنك كلما اقتربت منها » (٢٠٩) .

اختلفت الكتابات والتفسيرات عن أبى الهول فذكر فورمون « أن له وجه عــذراء وجسد أســد (٢١٠) وقد نحت فى الصخور والأخيرة هى نفس نوعية صخور الأهرام جلبت من صحراء ليبيا والراس فى حالة جيدة ولكن يبدو انها كانت مغطاه بطبقة صفراء ، والتمثال ارتفاعه ٢٥ قدما وقد نحت فى اتجـاه الغرب ، وتوجد فتحة خلفية أعتقد القدماء انها تؤدى الى الهرم الأكبر وهنـاك اعتقاد ان جســد رمسيس وضــع داخـل أبى الهول ويعتقد المصريون ان التمثال قادر على تحقيق المعجزات وانه يعمل على ايقاف زحف رمال ليبيا على الأراضى الزراعية » (٢١١) .

---

(٢٠٩) فولنى : المرجع السابق ، ص ١٧٣ ، ص ١٧٧ .

(٢١٠) Fourmont : Op. Cit., P. 256.

(٢١١) Olivier : Op. Cit., PP. 147 — 148.

وكان من الطبيعى خلال هذه الفترة من القرن الثامن عشر أن تختلف كتابات الرحالة حول الآثار المصرية وأن ينقل الرحالة آراء المؤرخين القدامى ، كذلك الخرافات التى نسجت حول هذه الآثار لأن الكشف العلمى الدقيق للآثار المصرية لم يكتمل الا بعد مجيء الحملة الفرنسية ولذلك نجد أن لوكا يكرر بعض الخرافات والمعتقدات التى سمعها من المصريين حول أبى الهول . « من يمتطى ظهر التمثال لابد وأن تحدث له كارثة » (٢١٢) .

منطقة سقارة :

لم تختلف كتابات رحالة القرن الثامن عشر عمن سبقوهم فعرفوا سهل سقارة « سهل الموميات » وأكدوا فى كتاباتهم حرصهم على شراء الموميات من البدو كما عبر معظمهم عن رغبته فى النزول فى الآبار التى دفنت فيها الموميات لمشاهدتها فذكر أوليفيه « سرت فى ممرات من الرمال تؤدى الى عدد من الحجرات حيث وجدت أعدادا هائلة من الموميات ملفوفة ومحنطة كما شاهدت أيضا مجموعات محنطة من العصافير والبجع والطيور والحيوانات » (٢١٣) وهى نفس الملاحظات التى سجلها من قبل الرحالة السابقون عن المنطقة (٢١٤) .

قدم الرحالة الفرنسيون وصفا لمدن الوجه القبلى فتميزوا بذلك عمن سبقوهم والذين اقتصرت رحلاتهم على مدن الوجه البحرى .

---

(٢١٢) Lucas : Op. Cit., P. 172.

(٢١٣) Olivier : Op. Cit., PP. 159 — 167.

(٢١٤) فى القرن ١٧ كتب ليفنو عن سقارة « انها مدينة الموميات » حرص الفرنسيون فيها على شراء الموميات والنزول فى الآبار الممتلئة بالموميات المحنطة . انظر الهام ذهنى ، المرجع السابق ، ص ١١٢ .

الفيـــوم :

وصف جرانجيه الفيوم « بأنها حديقة مصر » وذلك بسبب كثرة الأشجار والفواكه فيها (٢١٥) . وأكد القنصـــل الفرنسي ميليه على ثراء الفيوم « فهى من أغنى وأجمل وأخصب أراضى مصر تشتهر بانتاج الحبوب والتين والعنب الفيومى » ولكن ميليه اعتراه الحزن عندما زار المنطقة بسبب زحف الصحراء عليهـا « فتسببت فى تدمير كثير من الأراضى الزراعية الخصبة » (٢١٦) ، وأكد معظم الرحـالة على أن الفيوم تنتج أجود أنواع الفواكه خاصة « الليمون والبرتقـال والخوخ والمشمش » كمـا كتب لوكا (٢١٧) ، أما سافارى فقد افاض فى وصف سحر المدينـة وحيث تنمو الخضروات تلقائيا دون زراعة مثل الشمام والخيار والتين واينما سرنا فى الفيوم نشم الهواء المعطر برائحة أزهـار البرتقال « فهواء الفيوم معطر مثل هواء فرنســا فى الربيع وقد صدق سترابون عندما ذكر انها من أغنى أقاليم مصر » (٢١٨) .

وعاصـــمة الأقليم هى الفيوم وهى مدينـة كبيرة مأهولة بالسكان بنيت على اطلال ارسينوى القديمة (٢١٩) ويحكم المدينة كاشف وأغـا الكشارية ويمتلك الكاشف فيها العديد من الأراضى كما ذكر جرانجيه (٢٢٠) وكان من الطبيعى ان تلفت الكنـائس نظر الرحالة الفرنسيين فأكد ميليه وجود دير للأقباط وكنيسة واحدة كما أن آباء الأراضى المقدسة استأجروا فيها منزلا لنشر

---

(٢١٥) Granger : Op. Cit., P. 160.

(٢١٦) Maillet : Op. Cit., P. 294.

(٢١٧) Lucas : Op. Cit., + 3 PP. 144 — 145.

(٢١٨) Savary : Op. Cit., + 2 PP. 41 — 44.

(٢١٩)

(٢٢٠) Granger : Op. Cit., P. 165.

مذهبهم بين السكان خاصة بين الأقباط الأرثوذكس (٢٢١) . ويسكن الأقباط المنطقة الواقعة غرب المدينة ويعملون فى زراعة العنب وينتجون أنواعه الجيدة ويصنعون منه النبيذ الأبيض (٢٢٢)، وتنتشر الصناعات فى الفيوم خاصة صناعة الأسماك حيث يباع فى المدن المجاورة وثمنه أرخص من أسماك دمياط (٢٢٣) .

قدم الرحالة وصفا لآثار الفيوم القديمة وأكدوا انها مدينة ارسينوى القديمة والتي عبدت فيها التماسيح من قبل وقد ذكر سافارى ان الكهنة فى مصر القديمة خصصوا بحيرة فى الفيوم لتربية التماسيح وكانوا يطعمونها بالخبز واللحم والنبيذ وان المصريين قدسوا التماسيح وصوروها على جدران المعابد اعتقادا منهم ان ذلك سيحميهم منها ويخفف من حدة شراستها (٢٢٤) .

وقد شاهد الرحالة عددا من القصور المهدمة فزعموا بانها قصور التيه (اللابرنس) وقام لوكا بحفر اسمه على احد الأعمدة الرخامية القديمة فيها ، كذلك أكد جرانجيه رؤيته لهذه القصور زاعما بأنها اللابرانس كما قدم وصفا للعديد من المسلات القديمة (٢٢٥) .

بنى سويف :

ميناء على الضفة الغربية للنيل يحكمها كاشف يعاونه بيكلر بك توجد بها ٤٢ قرية لا تزرع سوى القمح والخضروات

---

(٢٢١) Maillet : Op. Cit., P. 294.

(٢٢٢) Granger : Op. Cit., P. 165.

(٢٢٣) Savary : Op. Cit., + 2 P. 48.

(٢٢٤) Ibid, P. 49.

(٢٢٥) Granger : Op. Cit., PP. 154 — 165.

وتفتقر المدينة الى الأرز والسكر وعلل لوكا ذلك لأن المنطقة مناخها جاف لا يساعد على زراعة هـذه النوعية من الحاصلات (٢٢٦) .

ويسكن بنى سويف الأقباط الذين وصفهم الرحالة نوردن « بأنهم عصابة » (٢٢٧) وبها أيضا اعداد كبيرة من المسلمين الذين بنوا العديد من المساجد (٢٢٨) .

وقد أعجب الرحالة بمباني بنى سويف ومساجدها « فهي مبنية بطريقة جيدة » (٢٢٩) ، كذلك أعجبوا بالمدن والقرى حول بنى سويف فوصف سونينى ببا بأنها مدينـة كبيرة بها كاشف وبها أعداد من المسلمين والأقباط (٢٣٠) ، ووصفها سيكار بأنها ميناء كما أطلق على الفشن أيضا بأنها ميناء كبير (٢٣١) .

البهنسـا :

اهتم الرحالة بزيارتها لأن بها كنيسة وبئرا زعم لها الرهبان ان المسيح شرب منه ولذلك فقد ساد الاعتقاد ان من يشرب من مياه هـذا البئر فانه تكتب له النجاة فى سفره ، كذلك زعم رجال الدين أن مياه البئر يستدل منها على ما سيكون عليه ارتفاع فيضان النيل وأن حاكم البهنسا كان يصر على اقامة حفل سنوى عند البئر حيث يتم انزال حبل من القطن عليه علامات باللون الأزرق تستخدم لقياس ارتفاع المياه فيه (٢٣٢) .

---

(٢٢٦) Lucas : Op. Cit., + 3 P. 150.
(٢٢٧) Norden : Op. Cit., P. 33.
(٢٢٨) Savary : Op. Cit., + 3 P. 52.
(٢٢٩) Pococke : Op. Cit., P. 71.
(٢٣٠) Sonnini : Op. Cit., + 3 P. 38.
(٢٣١) Sicard : Op. Cit., P. 127.
(٢٣٢) Maillet : Op. Cit., PP. 63 — 65.

المنيـــا :

مدينة تستحق المشاهدة فهي مدينة جميلة بالنسبة لباقي مدن الصعيد ، شـوارعها مستقيمة مبنيـة من الأحجـار وهي مأهولة بالسكان تصنع فيها اجود أنواع الأواني الفخارية (٢٣٣) ووصف سافاري المنيـا بأنها ميـناء كبير بهـا تجـارة مزدهرة يحكمها كاشف ونظرا لأهمية المدينة التجارية ، فقد وضع فيهـا جمرك لتحصيل الرسـوم من المراكب المـارة في النيل وتشتهر المنيا بانتاج القمح والفول والذرة (٢٣٤) .

وقد اقيمت المنيا على طلال مدينة هرموبوليس القديمـة وصحح سونيني خطـا وقع فيه الرحالة البريطاني بروس عندما ذكر بان المنيا هي مدينة فيلة (٢٣٥) ، وتعتبر ملوى من أجمـل مدن المنيـــا ، أسعارها رخيصة (٢٣٦) ، ومنها تخرج القوافل متجهة الى الحج ويزرع فيها القمح وتصـدر كميات كبيرة منه الى الجزيرة العربية (٢٣٧) .

أما **الأشمونين** فقد وصف الرحالة آثارها القديمة مؤكدين انها بنيت على اطلال مدينة لاتوبوليس وبها العديد من الآثـار والأعمدة الرخاميـة وقد وصف دانتريج سكانها بأنهم بؤسـاء « النساء والرجال يتجمعون حول مساكنهم مثل القرود » وبهـا شيخ له السيطرة على البدو يعرف بالشيخ اسماعيل وكان تابعا

(٢٣٣) Sonnini : Op. Cit., PP. 63 — 65.

(٢٣٤) Savary : Op. Cit., + 2 P. 66.

(٢٣٥) Sonnini : Op. Cit. + 3 P. 43.

(٢٣٦) Savary : Op. Cit., + 2 P. 67.

(٢٣٧) Sonnini : Op. Cit., + 3 P. 53.

للشيخ همام وقت سيطرته على الصعيد وقبل أن يقضي عليه علي بك الكبير (٢٣٨) .

وقد اتفق الرحالة البريطانيون فى رأيهم حول جمال المنيا وجمال آثارها وقراها مع الرحالة الفرنسيين فأكد بوكوك بأن مباني المدينة فى حالة جيدة وهى من اجمل مناطق مصر (٢٣٩) .

منفلوط :

تعتبر من أكبر أسواق مصر انتاجا للأقمشة ومعظم سكانها يعملون بالنسيج (٢٤٠) وهي مدينة صغيرة ولكنها جميلة مغلقة الأسوار وقد اضطر لوكا عند زيارتها أن يدعى أنه طبيب وذلك لأن السكان اعتقدوا أنه ساحر حضر لسرقة كنوزهم وآثارهم فعمل على اقناعهم بأنه لا يبغي سوى التجول فى البلاد لمشاهدتها وأكد أن السكان لم يعتادوا على رؤية الأوروبيين فيها (٢٤١) .

وتحيط الجبال بمنفلوط وقد اقيمت فى كهوفها الأديرة المسيحية ، فالمدينة بها عدد كبير من الأقباط . وذكر جرانجيه أنه على مقربة من منفلوط جبل به خمسة كهوف تحتوى على العديد من الآثار القبطية القديمة (٢٤٢) .

أ[illegible]ط :

ميناء كبير تبعد عن أخميم مسافة بسيطة والجبال تحيط بالمدينة وتمثل حاجزا أمامها ويوجد بها العديد من الكهوف التى

---

(٢٣٨) Auriant : Op. Cit., P. 312.

(٢٣٩) Pococke : Op. Cit., P. 73.

(٢٤٠) Granger : Op. Cit., P. 123.

(٢٤١) Lucas : Op. Cit., + 2 P. 88.

(٢٤٢) Granger : Op. Cit., P. 124.

حرصت على دخولها ومقابلة القساوسة فيها لوصفها وأكد لوكا أن البعض منها على عمق ثلاثمائة قدم وهى مزينة بالرسومات وأسقفها ملونة مغطاة بالأحجار وتشتهر أسيوط أيضا بأنها تحوى العديد من الآثار والمقابر الفرعونية عليها كتابات هيروغليفيه (٢٤٣) . والمدينة مأهولة بالسكان تكثر فيها حدائق الفاكهة والخضروات وتعتبر أسيوط محطة للقوافل القادمة من سنار حيث تتجمع فيه البضائع الافريقية (٢٤٤) .

طهطـــا :

بها كاشف وبها أعداد كبيرة من الأقباط والكنائس وهى مدينة غير مسورة تنتشر فيها الأشجار والحدائق فتكثر فيها أشجار النخيل والدوم ، كما تكثر فيها أبراج الحمام وقد بالغ لوكا فى تخيلاته وادعى أنه عندما زار طهطا وجد عددا كبيرا من الفتيات يجلسن عند مدخل المدن والقرى والمنازل عرايا يقوم على خدمتهن بعض الخدم من النوبيين (٢٤٥) ، وقد انتقد كاريه لوكا وأكد استحالة وجود فتيات هوى فى طهطا فى قلب الصعيد (٢٤٦) ، وتمتاز طهطا بوجود الآثار الفرعونية القديمة والآثار القبطية والكهوف المنحوتة فى الصخر (٢٤٧) .

اخميـــم :

أهم ما لفت نظر الرحـالة الفرنسـيين هو وجود بعثة الفرنسيسكان التنصيرية الكاثوليكية وقد حاولت هذه البعثة

---

(٢٤٣) Lucas : Op. Cit., + 3 PP. 62 — 64.

(٢٤٤) Savary : Op. Cit., + 2 P. 79.

(٢٤٥) Lucas : Op. Cit., + 2 P. 99.

(٢٤٦) Carré : Op. Cit., P. 45.

(٢٤٧) Sonnini : Op. Cit., + 3 P. 130.

اقناع الأقباط فى المنطقة بالتحول عن الأرثوذكسية فرفضوا وان كانت هناك اعداد بسيطة قد استجابت لنداءات هذه البعثة .

وتمتاز أخميم بمبانيها المزينة جيدة البناء حتى أن جرانجيه تحمس وكتب مؤكدا « ان أخميم هى المدينة الوحيدة المنظمة بعد القاهرة فالمدينة متسعة وشوارعها تمتاز بالهدوء والأمن » (٢٤٨) .

وتشتهر المدينة بانتاج السكر والقطن ومختلف الحاصلات الزراعية وبها أجود أنواع الفواكه خاصة الشمام كما تمتاز أيضا بوجود ثروة سمكية كبيرة وأكد سافارى وجود تجارة نشطة فى أخميم ومصانع للقطن يعمل فيها معظم السكان تنتج أجود أنواع المنسوجات وكانت اخميم تتبع الشيخ همام وقت سيطرته على الصعيد (٢٤٩) .

وقد افاض لوكا فى الحديث عن الخرافات التى سمعها فى المدن التى زارها من بينها أخميم فكتب مرددا مزاعم الأقباط فيها « ان أرض أخميم لونها أحمر وذلك لأنه دفن فيها ألف شهيد من شهداء المسيحية » (٢٥٠) .

سوهاج :

يحكمها كاشف ، سكانها بؤساء تنتشر فيها أشجار النخيل وتعتبر طما اهم مدنها وهى تقع فى مواجهة جزيرة جميلة على النيل (٢٥١) .

---

(٢٤٨) Granger : Op. Cit. P. 80.

(٢٤٩) Savary : Op. Cit., + 2 P. 82.

(٢٥٠) Lucas : Op. Cit., + 2 P. 118.

(٢٥١) Savary : Op. Cit., + 2 P. 81.

جرجـــا :

عاصمة الصعيد من أهم مدن مصر بها كاشف يقوم بمراقبة السفن التي تسير فى النيل ليعرف وجهتها ولديه سفن مسلحة لتعقب السفن الهاربة (٢٥٢) . وتشتهر جرجا بخصـوبة أراضيها التي تنتج القمح والحبوب والفول والسكر وأشجار الفواكه التى يستخرج منهـا السـكان الزيوت كمـا تنتشر بهـا أشـجار النخيل (٢٥٣) .

وللعرب نفوذ كبيرة فى جرجا ومصر العليا فهم يستطيعون مهاجمة القوافل ولا يجرؤ الباشـا على مطـاردتهم ولذلك فان حاكم جرجا لابد وأن يوطد صلاته مع زعماء العرب ويتقرب اليهم لكى يستتب الأمن ولكى يحصـل منهم على الخيول (٢٥٤) .

وتنتشر الأديرة فى الكهوف ، ويوجد فى جرجا ستة عشر كهفـا محفورة فى الصخور والكهوف متصلة بعضها ببعض بواسطة سلسلة من الممرات (٢٥٥) .

كذلك توجد فى المدينة أعداد من المسلمين وقد بنوا حوالى سبعة مساجد وقد قدر لوكا عدد سكان جرجا بخمسة وعشرين الفا منهم خمسة عشر الفا من الأقباط وعشرة آلاف من المسلمين وتوجد أعداد من اليهود فى المدينة (٢٥٦) .

---

(٢٥٢) Granger : Op. Cit., P. 32.

(٢٥٣) Lucas : Op. Cit., + 3 P. 150.

(٢٥٤) Granger : Op. Cit., P. 82.

(٢٥٥) Ibid, P. 34.

(٢٥٦) Lucas : Op. Cit., + 2 PP. 123 — 124.

قنـــا :

تفد عليها القوافل من القصير محمـلة بالبضـائع الهندية وتخرج منها القوافل متجهة الى البحر الأحمر ثم مكة والمدينـة وهى محملة بالحبوب والقمح ، وقنـا جميـلة منازلها بيضـاء مزينة باللون الأحمر كل منزل شيد وكأنه قصر أو حصن (٢٥٧) .

ابيـدوس :

لفتت نظر الرحالة بآثارها الفرعونيـة القديمة ومعابدها المذهبة باللون الأزرق (٢٥٨) ، كذلك مدينة دندرة التى بنيت على أطلال مدينة Tentyris وبها آثار معبدين لايزيس وبها معبد ضخم عليه كتابات هيروغليفيه وبه صالات واسعة مرتفعة ، واجمل الآثار الفرعونية يمكن مشـاهدتها فى دندرة (٢٥٩) فهى مدينـة عظيمة ، تحوى العديد من الآثار القديمة كذلك تحوى العديد من آثار المعابد الاغريقية التى تمتاز بالفخامة والعظمة (٢٦٠) .

وتشتهر دندرة بانتاج مزارع الفواكه من بلح وعنب وليمون وبرتقال وبها غابة من النخيل وتمر بها قناة تمد المدينة بالمياه ، انها من أجمل مدن مصر العليا على حد قول جرانجيه (٢٦١) . وصحح الرحالة الفرنسي موقع دندرة وأوضح خطأ كل من بروس ونوردون فى تحديد موقعها (٢٦٢) .

---

(٢٥٧) Ibid, P. 174.
(٢٥٨) Granger : Op. Cit., P. 129.
(٢٥٩) Ibid, P. 151.
(٢٦٠) Lucas : Op. Cit., + 2 P. 175.
(٢٦١) Granger : Op. Cit., P. 151.
(٢٦٢) Sonnini : Op. Cit., + 3 PP. 188 — 191.

قفــــط :

كان لها أهميــة كبيرة ولكن قنا حلت محلها فى الأهميـة وهى الآن قرية بنيت على أطلال مدينة كوبتوس وما زالت تجــارة البحر الأحمر تفد عليهــا ، ولكنهــا الآن ليست ســوى مينــاء صغير (٢٦٣) بعد أن كان لها شهرتها فى العصــور الوسطى حيث وفدت عليها منتجات الجزيرة العربية والهند وأثيوبيا واستشهد سافارى بما كتبه أبو الفدا عن شهرة قفط فى العصــور الوسطى بفضل تجارتها (٢٦٤) .

قــــوص :

بنيت على أطلال مدينة بولونيس بهــا العديد من المعــابد والآثار خاصة معابد الشمس وقد ذكر سافارى أن قوص قــد انتعشت بعد انهيــار قفط فوفد عليهــا التجــار من القــاهرة وأصبحت مخزنا للتجارة القادمة من البحر الأحمر ، ومنها أيضــا تخرج القوافل الى مكة (٢٦٥) .

الأقصــــر :

فيها أجمل المعابد وأجمل آثار مصر العليا بها العديد من المسلات الجرانتية عليها كتابات هيروغليفية بها مقابر ملوك طيبة محفورة فى الجبال مزينة بالرسـوم ، والأقصر ساحرة بمبانيها ، عند رؤية المعابد فى الأقصر التى تبهر الأبصار يشعر المرء بصعوبة

---

(٢٦٣) Ibid, P. 303.

(٢٦٤) Savary : Op. Cit., + 2 P. 105.

(٢٦٥) Ibid., P. 106.

تصديق ان هـذا الشعب الجاهل انتج مثل هـذه الأعمـال المبهرة » (٢٦٦) .

تحدث عنها المؤرخون القدامى هيرودوت وديدودور ووصفوا التماثيل الضخمة فيهـا ومعابدها الجميلة ، لقد كانت طيبة عاصمة مصر كلها (٢٦٧) .

وتعتبر **القرنة** : جزء من طيبة القديمـة وبها العديد من الآثار والتماثيل المنحوتة من المرمر والجرانيت (٢٦٨) .

اما **الشيخ عبادة** فهى مجموعة من القرى البائسـة تمثل المنطقة حاجزا ضد هجمات العرب وبها دير صغير للأقباط يسمى دير القديس جان الصغير ، كذلك تكثر فيها الكهوف وعددهـا ١٥ كهفا مزينة بالصور والرسومات (٢٦٩) .

أرمنـت :

بها معبد أبولون والعديد من الآثـار القديمـة بنيت على أطلال مدينة هرمونتيس عدد سكانها قليلون ، كذلك وجد بهـا بعض الآثار الاغريقية ومعبد للآلهة جوبيتر (٢٧٠) .

اسـنا :

يحكمها كاشف بها العديد من المساجد والكنائس ، اشتهرت بتجارتها مع اسـوان وقوص واراضيها خصبة غنيـة بالحبوب

---

(٢٦٦) Savary : Op. Cit., + 2 P. 143.
(٢٦٧) Ibid, P. 128.
(٢٦٨) Sonnini : Op. Cit., + 3 P. 273.
(٢٦٩) Grainger : Op. Cit., P. 128.
(٢٧٠) Lucas : Op. Cit., + 3 P. 10.

والفواكه بها العديد من الآثار القبطية والمعابد الفرعونيـــة القديمة ولكن وجد جرانجيه أعدادا كبيرة من الأعمدة ملقاة على الأرض ، كذلك وجد ان الأتراك استخدموا أحد المعابد القديمة اسطبلا للخيل فكتب جرانجيه « هؤلاء البرابرة لا يخجلون من استخدام أجمل الآثار اسطبلا للخيل » (٢٧١) . وعدد من الأديرة القبطية ولكنها سيئة المظهر كذلك وصف لوكـا كنائس أسنا بأنها فقيرة . كما أن سكانها من الأقباط الفقراء (٢٧٢) .

نقـــــادة :

فهى مدينة صغيرة بها عدد كبير من الأقباط وعدد قليل من المسلمين ، معظم سكانها يعملون فى صناعة المنسوجات الزرقـاء بهـا مناجم الزمرد والعرب فقط يعرفون مكان هـذه المنـاجم ويرفضون الارشاد عنها (٢٧٣) . وفى نقادة بعثة كاثوليكية للتنصير افتتحت مستشفى ويوجد دير للرهبان الكاثوليك القادمين من المـانيا وايطاليا ، كذلك يوجد بها دير للفرنسيسكان وتعتبر نقادة محطة فى الطريق الى أثيوبيا (٢٧٤) . وقد أكد الرحـالة البريطانى بروس وجود هذه البعثات التنصيرية ولكنها عجزت عن تحويل الأقباط الى المذهب الكاثوليكى (٢٧٥) .

أســــوان :

سكانها يتحدثون لغة مختلفة عن العربية وعلل لوكا ذلك لأن سكان أسوان خليط من النوبيين والأحباش فالمدينـة لها

---

(٢٧١) Ibid, P. 720.

(٢٧٢) Lucas : Op. Cit., + 3 P. 150.

(٢٧٣) Ibid, + 2 PP. 3 — 5.

(٢٧٤) Sonnini : Op. Cit., + 3 P. 197.

(٢٧٥) Bruce : Op. Cit., P. 71.

صلاتها بالسودان وافريقيا (٢٧٦) وفى أسوان جزيرة الفنتين وتمتاز أسوان بوجود العديد من المعابد وقد صحح سافارى خطأ وقع فيه فانزليب فى القرن السابع عشر عندما خلط بين أسنا وأسوان وحدد سافارى موقع أسوان تحديدا دقيقا (٢٧٧) .

ركز الرحالة حديثهم عند وصف مدن الوجه القبلى على التعريف بأهم الأديرة والكهوف القبطية ، كذلك اهتموا بوصف العديد من المعابد الفرعونية والاغريقية ولكنهم عجزوا فى أغلب الأحيان عن تحديد اسماء هذه المعابد فاكتفوا بتقديم وصف عنها خاصة وأنهم كانوا يجهلون اللغة الهيروغليفية والتى لم يكشف عن أسرارها الا بعد مجيء الحملة الفرنسية على مصر ، فنجدهم عند وصفهم لأحد المعابد الفرعونية يكتفون بذكر « عليه رسومات متعددة » أو « عليه كتابات باللغة الهيروغليفية . وقد دعا سافارى الى ضرورة الكشف عن هذه اللغة ومعرفة أبجديتها « فهى لغة حروفها غريبة ترسم على شكل خطوط ما زالت مجهولة بالنسبة للمصريين » ، وكشف الغموض عن هذه اللغة سيؤدي الى معرفة عادات المصريين القدماء وتقاليدهم لانهم سجلوا كل ما يتعلق بحياتهم اليومية على جدران المعابد ، وألقى سافارى اللوم على الكهنة لأنهم حصرا علومهم داخل المعابد ولم يحاولوا ابرازها للنور مما أدى الى ضياع تلك العلوم القيمة .

ورغم جهل سافارى كغيره من الرحالة باللغة الهيروغليفية الا أنه حرص على القاء الضوء على معتقدات المصريين الدينية . فانفرد بذلك عن غيره من الرحالة وان كانت ملاحظاته قد استقاها من كتابات هيرودوت وبلو تارك وبليني وغيرهم من

---

(٢٧٦) Lucas : Op. Cit., + 3 P. 163.

(٢٧٧) Savary : Op. Cit., + 2 PP. 149 — 159.

المؤرخين القدامى فأعطى القارىء الفرنسى فكرة عن المعبودات المصرية القديمة خاصة ايزيس وأوزوريس ، واكد اعتقاد المصريين فى الحياة الآخرة وتقديسهم لمظاهر الطبيعة المختلفة فالشمس رمز القوة والقمر امير السماء له تأثير على الجو والرياح والنيل يحمل الرخاء لمصر (٢٧٨) .

سجل سافارى أسفه على عدم اهتمام المصريين بالآثار القديمة وهى ملاحظة سجل أيضا غيره من الرحالة والقناصل خاصة ميليه الذى كتب غاضبا بانه « شاهد بعض الأعمدة الأثرية فى منزل أحد الجنود كذلك فى منزل قاضى العسكر » (٢٧٩) .

ولم يكتف الرحالة عند تجولهم فى مدن الصعيد بالكتابة عن الآثار القديمة ووصف بعض المدن وانما حرصوا على تسجيل ما سمعوه وما تناقله الرهبان ورجال الدين حول قدسية بعض الأماكن مثل بئر بنى سويف أو مزاعم الرهبان حول القصص المتناقلة عبر العصور عن أهمية بعض الأديرة والكهوف ، على أن أهم حدث حرص الرحالة على تدوينه عند زيارتهم مدن الصعيد وقلما خلت كتابتهم عنه هو ما سمعوه وما أدعى البعض منهم رؤيته بنفسه عن أسطورة أو قصة ثعبان الشيخ هريدى .

وقد اختلف الرحالة فى تحديد مكان هذا الثعبان فذكر سافارى انه شاهده فى أخميم بينما أكد لوكا انه فى طهطا وذكر جرانجيه ان مكانه فى قنا وأكد البعض انه فى أسيوط والواقع انه توجد حتى يومنا هذا مغارة فى أسيوط تعرف بمغارة الشيخ هريدى .

---

(٢٧٨) Savary : Op. Cit., + 3 PP. 270 — 278.

(٢٧٩) Maillet : Op. Cit., PP. 192 — 193.

أما قصة الثعبان هذا فقد أدعى جرانجيه أن الملاك رافائيل وضع الثعبان فى أعالى النيل ليمنعه من أذى الناس ولكنه زحف حتى جاء الى صعيد مصر (٢٨٠) ، بينما زعم لوكا أن الثعبان هو نفسه الملاك روفائيل (٢٨١) ، أما نوردرن فقد ذكر أن الثعبان انما هو فى الحقيقة شيخ صالح توفى فتحول بعد وفاته الى ثعبان لا يموت قادر على الاتيان بالمعجزات ونجدة الناس (٢٨٢) .

وزعم جرانجيه حسب الروايات التى يتناقلها الناس ان الثعبان لا يؤذى الرجال فاذا زحف على ذراع شخص فانه لا يعضه . ولكنه يكره النساء خاصة المتزوجات ويؤذي فى الحال من تقترب منه أو من مغارته (٢٨٣) .

وافاض لوكا فى وصف العديد من الخرافات مؤكدا انها من معجزات الثعبان وأورد كثيرا من المبالغات أدعى أنه شاهدها بنفسه فعلى سبيل المثال أكد انه تم تقطيع جسد الثعبان الى ثلاثين قطعة وبعد مضى ساعة اختفى الجسد وعندما عاد مرة ثانية الى المغارة وجد الثعبان حيا لم يصبه شيء (٢٨٤) .

كذلك قص جرانجيه رواية مماثلة بأنه تم تقطيع الثعبان الى نصفين ولكنه وجد فى اليوم التالى فى المغارة مكتمل الجسد (٢٨٥) .

---

(٢٨٠) Granger : Op. Cit., P. 88.

(٢٨١) Lucas : Op. Cit., + 2 P. 111.

(٢٨٢) Norden : Op. Cit., P. 65.

(٢٨٣) Granger : Op. Cit., P. 89.

(٢٨٤) Lucas : Op. Cit., + 2 P. 117.

(٢٨٥) Granger : Op Cit., P. 89.

وجدير بالذكر اننا لمسنا من خلال كتابات الرحالة عن هذا الثعبان اعتقاد المسيحيين والمسلمين فى قدرة الثعبان على الأتيان بالمعجزات والخوارق وقد شارك نوردن الرحالة الفرنسيين فى الحديث عن هذا الثعبان ولكنه عمل على تحليل وتبرير ما يتناقله الناس خاصة فيما يتعلق بكراهية الثعبان للنساء المتزوجات فقط أما الفتيات فهو لا يقدم على ايذائهم وكتب نوردن أنه شاهد الثعبان يلتف حول رقبة احدى الفتيات ولكنه لم يصبها بسوء وعلل ذلك علميا « بأنه من المؤكد أن الفتاة تضع بعض الأعشاب ذات الرائحة النفاذة الجاذبة للثعبان ولذلك فهو يتجه نحوها فيلتف حول رقبتها باحثا عن هذه الرائحة » أما عدم الحاقة الضرر بالفتاة فذلك لأنه مدرب على عدم العض أو انه يتم انتزاع السم منه وضرب نوردن مثالا بما يحدث فى شوارع القاهرة من قدرة الحواة المدربين على الامساك بالثعابين دون أن يصابوا بأذى (٢٨٦) .

واخيرا يمكننا القول ان الرحالة قد وصفوا مدن مصر بقسميها البحر والقبلى وان كان الوصف لا يقترب الى الكمال كما انه حوى العديد من المبالغات وترديد الخرافات والشائعات الا أن الذى يهمنا ان مدن مصر وصفت بالفعل قبل مجىء الحملة الفرنسية ومما لاشك فيه ان هذا الوصف مثل ركيزة هامة لعلماء الحملة قبل أن يمضوا فى عملهم متوغلين ومنقبين عن تراث مصر .

---

(٢٨٦) Norden : Op. Cit., PP. 65 — 68.

الفصل السادس

الحياة الاجتماعية

- أولا ـ طبقات المجتمع .
- ثانيا ـ الاحتفالات والأعياد .
- ثالثا ـ المنشآت الاجتماعية .
- رابعا ـ الأمراض والأوبئة .

قدم الرحالة الفرنسيون وصفا للمجتمع المصرى ودونوا ما شاهدوه من احتفالات واعياد ومنشآت اجتماعية .

أولا ـ طبقات المجتمع المصرى :

تعاقبت الأجناس المختلفة على مصر ولكنها امتزجت وانصهرت بسكان البلاد الأصليين مما أدى الى فقدان الأجناس الواحدة لخواصها المميزة ؛ فأصبحت مصر شعبا متجانسا وقد عدد فولنى الاجناس التى تعاقبت على مصر من فرس واغريق ورومان ثم عرب وأتراك ، ورجح ان يكون قدماء المصريين من الزنوج والأفارقة ثم « امتزجت دماؤم على مر العصور بدماء الشعوب الواحدة مثل الاغريق والرومان ففقدوا ملكتهم الأولى » (١) .

ويعتبر الشعب المصرى من أقدم الشعوب « فالمصريون يشبهون الصينيون فى العراقة والقدم » على حد قول القنصل الفرنسى ميليه ، وقد لاحظنا ان معظم الرحالة الذين تحدثوا عن مصر وشعبها حرصوا على التأكيد على « ان مصر كانت من أعظم البلاد والأمم وانها امتازت بحضارتها العظيمة والعريقة »

---

(١) فولنى : المرجع السابق ، ص ٥٧ ـ ص ٦٢ .

ثم قارنوا بين مجدها قديما ووضعها السياسى المضطرب فى القرن الثامن عشر فكتب ميليه متحسرا « ان مصر اليوم غارقة فى الهمجية والجهل » (٢) .

وجدير بالذكر ان هذه الملاحظات عن مصر وتقدمها العلمى والحضارى قديما ثم فقدانها لمكانتها فى القرن الثامن عشر رددها أيضا علماء الحملة الفرنسية فنجد فى وصف مصر عبارات تشبه ما كتبه ميليه من قبل « ان هذه البلاد التى نقلت معارفها الى كثير من الأمم هى اليوم غارقة فى الهمجية » (٣) .

اما عن تعداد سكان مصر فقد اكد معظم الرحالة « ان مصر بلاد مأهولة بالسكان وأن ثروتها الحقيقية تكمن فى عدد سكانها » (٤) .

واختلفت تقديرات الرحالة حول التعداد الحقيقى للسكان فقدرهم فورمون من ثلاثة الى أربعة ملايين نسمة ، ولكنه أكد فى نفس الوقت ان هذا العدد يتعرض دائما للنقصان بسبب انتشار الأوبئة خاصة الطاعون وضرب مثالا بوفاة ٦٤٠٫٠٠٠ نسمة فى واخر القرن السابع عشر من جراء الطاعون » (٥) .

وسكان مصر مسلمون ، وقد استخدم لوكا لفظ « المحمديون » تعبيرا عنهم (٦) ومعظمهم على المذهب الشافعى « ولكل مدينة شيخها الذى يقدسه السكان » كتب البارون دى توت هذه العبارة متأثرا بتقديس الأوروبيين والمسيحيين

---

(٢) Maillet : Op. Cit., P. 22.

(٣) انظر وصف مصر ، جـ ١ ، ص ١٨٩ .

(٤) Lucas : Op. Cit., + 3 P. 128.

(٥) Fourmont : Op. Cit., P. 34.

(٦) Lucas : Op. Cit., + 3 P. 192.

لرجال الدين المسيحيين ، كذلك عندما تحدث عن المذاهب الأربعة ذكر « المذاهب الأربعة الأرثوذكسية » فوقع فيما وقع فيه رحالة القرنين السابقين الذين خلطوا بين الاسلام والمسيحية وذلك يرجع الى جهل دى توت بتعاليم الدين الاسلامى (٧) ، ولكننا نجد فى الوقت نفسه العديد من رحالة هذا القرن أدركوا الفوارق بين المسيحية والاسلام ولم يخلطوا بين الديانتين فنجد فورمون يؤكد « أن المصريين مسلمون يعتقدون أن محمدا أعظم الرسل » (٨) .

لاحظ الرحالة التفاوت الطبقى الشديد فى مصر وفى الحقيقة ان هذه الملاحظة تحدث عنها أيضا من سبقوهم من الرحالة ، كذلك كتب عنها الرحالة المسلمون نخص بالذكر أبا القاسم الزيانى الذى كتب معبرا عن هذا التفاوت « هناك الفئات شديدة الثراء » مقارنا بين أحوال الفلاحين الذين يعيشون فى بؤس وشقاء وبين أثرياء البلاد (٩) .

فند الرحالة طبقات المجتمع على النحو التالى :

طبقة الأتراك :

تعتبر فى قمة الهرم الاجتماعى وهى الطبقة الحاكمة على رأسها الباشا وقد وصف لنا فولنى لفظا تركيا ومعناه متتبعا نشأة الأتراك فى آسيا الصغرى حتى اعتناقهم الاسلام وظهور عثمان بن أرطغرل وتأسيس الدولة العثمانية واستيلائها على

---

(٧) De tott : Op. Cit., P. 60.

(٨) Fourmont : Op. Cit., P. 85.

(٩) يونان لبيب : المرجع السابق ، ص ١٢٧ — ص ١٢٨ .

البلاد العربية ، وعقد مقارنة بين الأتراك والعرب فأنصف العرب « لأنهم كانوا أكثر توفيقا فى نشر دينهم » (١٠) .

المماليك :

شكل المماليك طبقة متميزة فى مصر وأفاض الرحالة فى الحديث عن أصولهم فذكر أوليفيه بأنهم « جلبوا من جورجيا والقوقاز » وكتب متعجبا « عبيد يحكمون شعبا حرا » (١١) . وقد ردد فولنى نفس الملاحظة « حكمت فرقة الأرقاء الطغاة مصر » ثم أعطى فولنى القارىء نبذة عن قيام دولة المماليك حتى الفتح العثمانى ثم أبدى أسفه لأن السلطان سليم كان من الممكن أن يمحو هذه الفئة بذبحها أو التخلص منها ولكنه رأى الافادة منهم فأدى ذلك الى تعاظم نفوذهم » (١٢) ، وأكد أوليفيه بأنه « لو اتبع المماليك سياسة أفضل لأمكنهم الاستمرار فى الحكم ولكنهم طغاة تمادوا فى استبدادهم » (١٣) .

واذا كان رحالة القرنين السادس عشر والسابع عشر قد اعجبوا اعجابا شديدا بالمماليك فان رحالة القرن الثامن عشر وصفوهم بالطغيان والجهل ويمكن تفسير ذلك بنمو نفوذ المماليك بالفعل خلال هذه الفترة فزاد تعسفهم وظلمهم ، وعمد بعض الرحالة الى تشويه صورة المماليك فأطلقوا عليهم احكاما عامة خاصة فولنى الذى وصفهم « بالفساد وأن سلوكهم غير سوى وأخلاقهم فاسدة ، فأول درس يتعلمه المملوك هو الشذوذ على يد معلمه مثله فى ذلك مثل اليونانيين والتتار تنتشر بينهم

---

(١٠) فولنى : المرجع السابق ، ص ٧٠ .

(١١) Olivier : Op. Cit., P. 255.

(١٢) فولنى : المرجع السابق ، ص ٧٣ .

(١٣) Olivier : Op. Cit., P. 199.

الخرافات والجهل » وفى الحقيقـة ان نولنى كان الوحيد من الرحالة الذى أشار الى شذوذ المماليك فلم نجد من بين زملائه من وصفهم بهذا الوصف المخزى المـاجن (١٤) .

وتنعم طبقة المماليك بالثراء والنفوذ منهم السادة يمتلكون كل السلطات ، وقد اهتموا بالاثراء على حساب الفلاحين التعساء وقد اعتمد المماليك على الكتبة من الأقباط لتحصيل الضرائب من الفلاحين (١٥) .

وقد تحدث المترجم الفرنسي ديجون عن ثراء المماليك فذكر أن أحد الكتبـة الأقبـاط الذين يعملون لدى مراد أكد له أن سيده يمتلك أربعة آلاف قرية مزروعة وقد أكد هـذه الحقيقة أيضا دينون المصاحب للحملة الفرنسية فى عام ١٧٩٩ م فكتب « رايت عدة قرى كبيرة تابعة لمراد » (١٦) .

لفتت أسلحة المماليك انتباه الرحالة « فهم يهتمون اهتماما شديدا بالأسلحـة المزينـة وركوب الخيـل وهم لا يسمحون للمصريين بركوب الخيل وانما يسمحون لهم فقط بركوب البغال والحمير » وعلل فولنى ذلك « لأن الخيول الفرسان وركوبها شرف يختص به المماليك وحدهم » ويحرص المماليك على وضـع عدة ضخمة الهيـكل يعلوها قربوش يرتفع ثمانيـة قراريط ويغطى الفارس حتى رأس الورك وأمـام قربوش آخر ويضعون تحت السرج أغطيـة صـوفيه سميكة ، وسروجهم واسـعة المقدمة لا سير لها فى المؤخرة وذلك لأن المملوك فارس ثابت قوى » (١٧) .

---

(١٤) فولنى : المرجع السابق ، ص ١٢٢ .

(١٥) المرجع السابق ، ص ٧٦ .

(١٦) Hanotaux : Op. Cit., P. 72.

(١٧) فولنى : المرجع السابق ، ص ١١١ — ص ١١٤ .

وقد عدد الرحالة أنواع الأسلحة والسيوف التى يمتلكها المماليك فكتب فولنى « يملك المملوك قرابينة انجليزية يختارها تطلق عشر رصاصات فى وقت واحد ، يحملون فى وسطهم المسدسات ومن حمالة فى جانبهم الأيمن يتدلى سيف معقوف » قلما نشاهد نظيره فى أوروبا « وتجلب السيوف من الاستانة وأوروبا والبكوات يتنافسون للحصول على السيوف من المصانع القديمة فى دمشق وثمن السيف الواحد أربعين أو خمسين ليرة فرنسية ذهبا » (١٨) . ويظفر المملوك بأكثر وأعلى مما يظفر به جندى على مدى التاريخ فقد كان يحصل فى رمضان من كل عام كسوة كاملة جديدة من الأقمشة الفرنسية والدمشقية والهندية وتتحقق رغبته فى اقتناء المسدسات والجياد العربية الأصيلة وشيلان الكشمير (١٩) .

وهناك ظاهرة لفتت أنظار الرحالة وأفاضوا فى الحديث عنها الا وهى موت أطفال المماليك فذكر البعض بأن ذلك يرجع الى فساد هواء مصر وعجز الجيل الأول والثانى عن التأقلم مع جو مصر ولكن أوليفيه ناقش هذا الادعاء وأكد بأنه غير صحيح وانه « لا يجب أن نتهم هواء مصر بأنه سبب موت أطفال المماليك لأن هواء مصر نقى وصحى » ثم علل موت أطفال المماليك بسبب سوء تربيتهم وتنشئتهم وأكد أنه شاهد أطفال الأوروبيين الذين تزوجوا من نساء مصريات « أصحاء » ، كذلك أشار الى أن الاغريق والرومان أدركوا مدى قوة وصحة المرأة المصرية فتزاوجوا منهن وأنجبوا جيلا يتمتع بالصحة (٢٠) ، وبذلك يمكن القول أن مناخ مصر غير مسئول عن وفاة أطفال المماليك وانما ترتفع نسبة

---

(١٨) المرجع السابق ، ص ١١٥ – ص ١١٧ .

(١٩) فولنى : المرجع السابق ، ص ١٢٠ .

(٢٠) Olivier : Op. Cit., P. 222

وفيات اطفال المماليك لأن نساءهن يحرصن على تنشئة أولادهن فى مكان مغلق لا يجدد فيه الهواء ولا يحصل الطفل على تغذية سوى اللبن ، كذلك تحرص نساء المماليك على أن يرتدى الأطفال ملابس ثقيلة فى الصيف ، وأكد أن الأطفال يتم ابقاؤهم فى جناح الحريم حتى سن السابعة « فتذبل صحتهم وتعلو الصفرة وجوههم لأنهم يعيشون فى أجواء مغلقة غير صحية » ثم اكد أوليفيه « ان اطفال الفلاحين يتمتعون بالهواء المطلق والشمس ولذلك فهم أصحاء » (٢١) .

والواقع ان هذه الملاحظات عن طقس مصر ومناخ مصر وانه المسئول عن ارتفاع وفيات أطفال المماليك اشار اليها أيضا علماء الحملة الفرنسية « طقس مصر يحول دون تكاثر الأجانب » والمماليك محرومون من فرص التكاثر الطبيعى ولذلك يشترون الرقيق الشبان (٢٢) .

وقد علل فولنى ظاهرة استمرار تكاثر أعداد المماليك رغم ارتفاع نسبة وفيات أطفالهم الى استمرارهم فى جلب وشراء الرقيق ولذلك « استمرت أعدادهم فى الزيادة وزودت هذه الطبقة على التوالى بدماء جديدة » .

وهكذا نلاحظ أن الرحالة اعتبروا الأتراك والمماليك هم الطبقة الحاكمة المنفردة فى مصر ولعل خير ايجاز ما ذكره فولنى عن المماليك رغم الاتهامات التى وجهها اليهم من قبل « المماليك اجفل جنود آسيا وأكثرهم ظلما وعتوا » (٢٣) .

---

(٢١) : Ibid, P. 255.

(٢٢) انظر وصف مصر ، جـ ١ ، ص ٣٦ .

(٢٣) فولنى : المرجع السابق ، ص ٧٣ — ص ٧٧ .

طبقة العلماء :

أما عن طبقة العلماء خاصة علماء الأزهر والقضاة والفقهاء فقد اثنى عليهم الرحالة دورفال فكتب « هؤلاء الرجال مسلمون بالفطرة ، يمتازون بالجد والاستقامة » (٢٤) .

كما افاض جرانجيه فى الثناء على الجامع الأزهر « ففى القاهرة كلية عظيمة اسمها الأزهر يدرس فيها المنطق والفلك والتاريخ ، بها رؤساء المذاهب الأربعة لهم الهيمنة والنفوذ ورغم ان الأزهر يخضع للسلطان العثمانى الا انه له استقلاله فى الادارة الداخلية » (٢٥) .

كما اشار الرحالة الى وظيفة مفتى المذاهب الأربعة مؤكدين أن مشايخ الأزهر كان لهم نفوذ كبير على المصريين ، كذلك وصفوا أروقة الأزهر « فيوجد فى الأزهر عدة اروقة لتعليم الطلاب منها رواق المغاربة والشوام والعميان » وكان لطلاب الأزهر مكانة كبيرة . كما تحدث الرحالة عن الاشراف موضحين نفوذهم فى القاهرة وحرص السلطات على أن يشاركوهم فى كافة الاحتفالات الدينية (٢٦) .

الفلاحون :

هم اصل سكان مصر يعيشون فى بؤس وشقاء تنتشر فيهم الأوبئة والمجاعات يعاملون معاملة سيئة فاذا أراد شخص تحقير شخص آخر يطلق عليه لفظ « فلاح » (٢٧) ، ولا ينعم الفلاح

---

(٢٤) Clement : Op. Cit., P. 187.

(٢٥) Granger : Op. Cit., P. 141.

(٢٦) Clement : Op. Cit., P. 187.

(٢٧) Maillet : Op. Cit., P. 24.

بثمرة جهده فنراه منصرفا الى العمل كارها ، لا توجد لديه صناعة قائمة وفنونه بدائية ، يعيش الفلاح فى فقر مدقع غذاؤه ردىء : يصنع خبزه من الذرة ويعتمد على روث الماشية لاشعال النيران، طعامه الرئيسى من الخبز والبصل ويسعد او تخلل طعامه العسل والجبن واللبن الرائب أما اللحم فلا يتذوقه الا فى الأعياد الكبرى (٢٨) .

وملابس الفلاح بسيطة تتكون من قميص من الخام الأسود ، وعلى رأسه قلنسوه من الكتان يلف حولها منديل من الصوف الأحمر ويظهر فى الحقول عارى الذراعين والساقين والصدر وأغلب الفلاحين لا يلبسون سراويل ، مساكنهم من الطين يضيق صدر المرء من غرفها لأنها غير صحية تكثر بينهم أمراض الصدر (٢٩) .

وتفرض الضرائب على الفلاحين وما يحصدونه من حبوب تذهب الى موائد أسيادهم والواقع أن ما ذكره الرحالة الفرنسيون عن المغارم الجبرية والضرائب التى فرضت على الفلاحين صحيحة فقد تزايدت بشكل واضح فى السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر كما تزايدت حوادث الاستيلاء على الحيوانات والبضائع (٣٠) .

وقد أفاض الكونت دانتريج فى تصوير الفظائع التى يتعرض لها الفلاحون خاصة من المماليك من تنكيل ومصادرة لممتلكاتهم (٣١) ، كما اكد المترجم الفرنسى ديجون أن الفلاحين

---

(٢٨) فولنى : المرجع السابق ، ص ١٢٥ .

(٢٩) المرجع السابق .

(٣٠) هاملتون جب : المجتمع الاسلامى والغرب ، القاهرة ، ١٩٨٩ م ، ص ١٢٨ .

(٣١) Auriant : Op. Cit., P. 225.

يعاملون أسوأ معاملة ووصفهم بأنهم « عبيد لديهم انحطاط لا يثورون ضد أسيادهم الذين ينظرون اليهم كحيوانات لازمة ولا يعاملون معاملة انسانية » (٣٢) .

ولكن فولنى كان له رأى مخالف فقد رأى ان الفلاحين لديهم نخوة ويتسمون بالعناد ولا يحتاجون سوى التوجيه حتى تصبح شجاعتهم رهيبة ودلل على ذلك بالفتن التى يثيرونها خاصة فى مديرية الشرقية وأكد أنها تدل « على نار تحت الرماد لا تنتظر الا الانفجار » (٣٣) .

ثم تعجب فولنى من عدم ثورة المصريين على المماليك خاصة ابان المجاعات ، وعلل ذلك فذكر « ان سكان البلاد الحارة مستضعفون وان الطبيعة أعدتهم لأن يكونوا عبيدا للاستبداد » ولكن سرعان ما لجأ للدفاع عن المصريين فذكر « ان أحوالهم قاسية وهم أجدر بالشفقة من الاحتقار انهم مستعبدون لفاتحين غرباء عنهم » ودعا فولنى للثورة ضد المماليك وابادتهم ولكن فى الوقت نفسه رأى أن من الصعوبة تحقيق ذلك « لأن الفلاحين الحفاة المشاة لا أسلحة لهم أمام أسلحة المماليك وهم يجهلون فنون القتال كما أن مصر السهلية المسطحة يسهل فيها تفريق الجماعات عكس البلاد الجبلية التى تكسب شعوبها نشاطا وحيوية » (٣٤) .

البـــدو :

انفرد سافارى عن غيره من الرحالة بتقديم صورة مشرقة للبدو فكتب « انهم يعشقون الحرية يعيشون أحرارا فى الصحراء،

---

(٣٢) Hanotaux : Op. Cit., P. 73.

(٣٣) فولنى : المرجع السابق ، ص ١٣٣ .

(٣٤) فولنى : المرجع السابق ، ص ١٢٩ ـ ص ١٣٠ .

يعتقدون أن سهول مصر سوف تحولهم الى عبيد ، وكثيرا ما اعطتهم الحكومة ارضا ولكنهم كانوا يرفضون الاقامة فيها ، وهم لا يعرفون الكتابة ، عجز الفرس والعثمانيون عن اخضاعهم ، يحتقرون العلوم لديهم كبرياء لا يخضعون لأحد ، وهم أفضل شعوب العالم لا يعرفون الكذب ولا النفاق ، معتدون بأنفسهم كرماء خيامهم مفتوحة دائما لاستقبال ضيوفهم فاذا نزل عندهم مسافر فانهم يكرمونه ويذبحون له الخراف ويقدمون له العسل واللبن وهم يتسمون بالجراة لا يلجأون الى الدسائس للانتقام من خصومهم ، يعرفون المساواة فهم يتحدثون الى مشايخهم دون خوف او وجل وهم لا يميلون الى الأتراك ولا يخشونهم ، وهم شهداء حريتهم التى يعشقونها لأنهم يصرون على الحياة الخشنة الصعبة (٣٥) . واذا كان سافاري قد اثنى على البدو هذا الثناء الا أن غيره من الرحالة خالفوه فى هذا الوصف فنجد لوكا يصفهم بانهم لصوص ، طغاه متشردون ، يعشقون الاغارة على القوافل كما يغيرون على المدن (٣٦) .

وقد قارن اوليفيه بين البدو والفلاحين فرجحت كفة الفلاحين « لأنهم اكثر رقة من البدو » وشهد اوليفيه لبعض زعماء البدو بالكرم فذكر انه استقبل استقبالا حافلا من زعماء البدو فى صحراء ابو قير وقاموا بذبح الخراف له ولكنه كتب « وهذه حالات نادرة » (٣٧) . ولا تقتصر اقامة البدو على المناطق الصحراوية فهم يحاولون كسب عيشهم فى بعض المدن فيقومون

---

(٣٥) Savary : Op. Cit., + 2 PP. 23 — 37.

(٣٦) Lucas : Op. Cit., + 3 P. 112.

(٣٧) Olivier : Op. Cit., P. 108.

بنقل البضائع من رشيد الى القاهرة (٢٨) ولكن من المؤكد أن الغالبية العظمى منهم تقطن الصحراء والأماكن المنعزلة ويعيشون فى ترحال دائم لا يتعلقون بالأرض الا من أجل المراعى وهم عشائر مختلفة تسعى وراء العشب ، وتفد بعض القبائل على مصر كل عام بعد الفيضان لتستفيد من نمو العشب فى فصل الربيع وبعض القبائل المقيمة فى مصر تستأجر بعض الأراضى لزراعتها وبين هذه القبائل حدود متعارفة محترمة المعالم فاذا تجاوزتها تعرضت للحرب ، وللبدو نمط واحد فى المعيشة وعادات وتقاليد واحدة وهم أميون فقراء مسالمون فى ربعهم ولكنهم قساة فى وقت الحرب يكرههم الفلاحون والمسافرون بسبب اغاراتهم المتكررة على المدن والقوافل ولم يختلف وصف فولنى عن البدو عن غيره من الرحالة فكتب « أنهم لصوص متشردون » (٣٩) .

وقد قدم لنا الرحالة صورة مشرقة لبعض زعماء القبائل لعل أبرزهم هو الشيخ همام الذى اتفقت آراء الرحالة حوله سواء الفرنسيين أو غيرهم من الجنسيات فقد وصف بالأدب الجم ، سيطر على مصر العليا وامتد نفوذه من أسيوط حتى أسوان وصفه نوردون بالكرم وانه من خيرة العرب (٤٠) . بينما وصفه الرحالة البريطانى بالقوة والشجاعة والحكمة وقوة الشخصية فقد حرم على سكان فرشوط شرب الخمر والدخان وقد بلغ درجة كبيرة من النفوذ والسلطان حتى أن بكوات القاهرة شعروا بالغيرة منه فأرسل له على بك قوة للقضاء عليه (٤١) .

---

(٢٨) Ibid, : P. 108.

(٣٩) فولنى : المرجع السابق ، ص ٦٠ .

(٤٠) Norden : Op. Cit., P. 56.

(٤١) Bruce : Op. Cit., P. 25.

اهـل الذمـة :

الأقبـــاط :

ينتشر الأقباط على طول وادى النيل (٤٢) ولكن معظمهم يقطن الصعيد حيث تتألف منهم قرى بأكملها وهم ينحدرون من سلالة الفراعنة ولكنهم اختلطوا بالفرس والرومان مذهبهم يختلف عن سائر المسيحيين يعملون فى الأديرة الداخلية أمناء سجلات الأراضى وكتبه ووكلاء وجباة ضرائب لدى الحكومة والبكوات (٤٣) .

والأقباط هم سكان مصر الأصليين عاشـــوا فى رق وبؤس وشقاء وما زالوا يحتفظون ببعض العادات القديمة ، اضطهدهم الرومان فاضطر العديد منهم الى الفرار فى الجبـــال حيث اقاموا فى الأديرة مما ادى الى حفظ تاريخ الكنيسة القبطية (٤٤) .

ورغم تأكيد معظم الرحالة بأن الأقبـــاط هم أحفاد الفراعنة الا انهم اكدوا اختلاطهم بالشعوب الوافدة على مصر خاصـــة الاغريق والرومان ، تتسم وجوه الأقباط بسمة خاصة فالبشرة صفراوية دخانية اللون مما يرجح اصولهم اليونانية لا العربيـــة ولهم وجه منتفخ وأنف افطس وشفة ضخمة ومجمل القول وجه خلاسى واضـــح وقـــد امتزجوا بالاغريق ففقد لونهم حلكتـــه الأولى (٤٥) .

وجدير بالذكر ان هذا الوصف عن الأقباط اقترب كثيرا مما ذكره علماء الحملة الفرنسية والأقباط أكثر الطوائف اثارة للاهتمـــام فيعتبرون انفسهم احفاد المصريين القدمـــاء وهم فى

---

(٤٢) Fourmont : Op. Cit., P. 33.

(٤٣) فولنى : المرجع السابق ، ص ٦١ .

(٤٤) Savary : Op. Cit., + 2 P. 78.

(٤٥) فولنى : المرجع السابق ، ص ٦١ – ص ٦٣ .

ملمحهم يشبهون الافارقة ويعملون فى النواحى الادارية خاصة فى سجلات الضرائب وتقسيم التركات العقارية كما يعمل معظمهم كتبة (٤٦) .

وصف معظم الرحالة الأقباط خاصة رجال الدين منهم بالجهل الشديد وانتقدوا تمسكهم بالمذهب الأرثوذوكسي وتقديسهم البالغ فيه لرؤسائهم الدينيين خاصة القساوسة ، ولعل الأب سيكار كان من أشد المهاجمين للأقباط خاصة وانه حاول نشر المذهب الكاثوليكى بينهم فلم يجد أية استجابة ، وقد كتب بانه « وجد صعوبة فى التعامل مع الأقباط المصريين وذلك لتمسكهم الشديد بالمذهب الأرثوذوكسى » فالتعامل مع الأقباط أمر ليس هينا فهم متعصبون ولذلك « لابد لنا من التعرف على عاداتهم وتقاليدهم حتى نستطيع أن نهزمهم ونصحح اخطاءهم » ولذلك قام سيكار بزيارة الأسر القبطية فى المدن التى مر بها وزار المرضى منهم فى محاولة لكسبهم ولكن يبدو أنه فشل فى مهمته وفى تحويل الأقباط الى المذهب الكاثوليكى فكتب « حاولت دون جدوى ولكنهم لا يريدون التحول عن عقيدتهم » وهم يحترمون البطريك والقساوسة وقد حاولت اطلاعهم على قواعد مذهبنا فرفضوا بشدة ولم يقتنعوا وقد رفض اقباط دمنهور اتباع المذهب الكاثوليكى كذلك اقباط دمياط » وبصفة عامة ينقص الأقباط التعليم ولذلك فهم فى حاجة الي ارشاد وتعليم (٤٧) .

وقد فشلت مهمة سيكار فى مصر العليا لأن هذه المناطق تشتهر « بتعصب الأقباط فيها عن مصر العليا » ولكن يبدو ان

---

(٤٦) انظر وصف مصر ، جـ ١ ، ص ٢٤ ، ص ٢٦ .

(٤٧) Sicard : Op. Cit., PP. 24 — 29.

محاولاته لنشر المذهب الكاثوليكي قد لاقت نجاحا طفيفا فى جرجا فقد ذكر ان اقباط جرجا كتبوا له عدة رسائل تضمنت اعترافا منهم بفضله فى تبصيرهم فى امور دينهم (٤٨) .

والواقع أن بعثة سيكار اليسوعية أعقبها عدة بعثات تنصيرية أخرى تجولت فى مدن الصعيد فى قوص ـ جرجا ـ أخميم ـ منفلوط ـ ملوى وغيرها من المدن ولكن معظم هذه البعثات حققت نتائج محدودة ، ولم يتزايد عدد الأقباط الكاثوليك الا فى القرن التاسع عشر (٤٩) . وقد تعجب سونيني من تمسك الأقباط بمذهبهم وعدم اهتمامهم أو احترامهم للمذهب الكاثوليكي فكتب متعجبا « ان اسم فرنسا الذى يحترم فى أوروبا كلها والشرق وفى الدولة العثمانية محتقر من قبل أهالى الصعيد ، فالأقباط الأرثوذكس يمقتون البعثات الكاثوليكية ويطلقون على أعضائها « الكلاب » ومن الصعب تحويل الأقباط الى الكاثوليكية واكد انه لا يوجد رحالة رلا عضو بعثة تنصيرية الا وشكى من الأقباط وتعصبهم الشديد » (٥٠) .

وقد اسهب الرحالة الفرنسيون فى وصف عادات الأقباط « الخاطئة » من وجهة نظرهم وذلك لمخالفتها لمذهبهم الكاثوليكي فأوضح سيكار « بانهم يعمدون الأطفال بعد مضى اربعين يوما وليس فور ولادتهم ، وان التعميد يتم فى المنازل ، واذا أصاب المرض احد الأطفال ولم يشف فانهم يتركونه يبكى لمدة ثلاثة أيام على أسطح المنازل » (٥١) ، كذلك انتقد فورمون تأثر الأقباط

---

(٤٨) Ibid, : PP. 162 — 166.
(٤٩) Clement : Op. Cit., P. 180.
(٥٠) Sonnini : Op. Cit., + 3 P. 245.
(٥١) Sicard : Op. Cit., P. 131.

بالمسلمين فى طريقة ذبح الحيوانات (٥٢) . كذلك انتقد القنصل ميليه تقديس الأقباط لرجال الدين المسيحيين رغم انهم « لايحبون العلم ولا يحبون التغير حتى كتبهم وآدابهم محفوظة لا تنشر »(٥٣) .

وللأقباط فى القاهرة احياء خاصة بهم للسكنى ، وقد قدرت أعدادهم بعشرة آلاف حسب ما ورد فى أرشيف مارسيليا ومراسلات القناصل وقد ذكرت التقارير بانهم لا يلعبون دوراً فى التجارة التى تهم الفرنسيين مثل البن وتجارة الأقمشة وانما يعملون فى صناعة المصوغات وتتركز محلاتهم فى خان الخليلى والحمزاوى والجمالية ، كذلك يعملون فى صناعة الحرير ، ومعظمهم يميل للعمل كتبه فى منازل البكوات وقد ذكر ديجون بان الأقباط عملوا فى منازل البكوات ولدى ضباط الأوجاق (٥٤) .

اليهـــود :

ركز اليهود اقامتهم فى مدن مصر الهامة مثل القاهرة والاسكندرية وقد قدم سونيني وصفا عاما عنهم « انهم يتحدثون بصوت منخفض على عكس المسلمين ، فاليهود يهمسون » وعلل ذلك لخوفهم من سكان البلاد ، ولذلك نجد اليهودى يسير منحنى الرأس وبخطوات سريعة وهم بخلاء غشاشون (٥٥) .

ولليهود رئيس دينى هو الحاخام الذى يقدس ويحفظ قوانين اليهود ولهم معابد فى القاهرة يمارسون فيها شعائرهم الدينية ولم تختلف طقوسهم الدينية عما كانت عليه فى العصور

---

(٥٢) Fourmont ,: Op. Cit., P. 89.
(٥٣) Maillet : Op. Cit., P. 68.
(٥٤) Raymond : Op. Cit., P. 456.
(٥٥) Sonnini ,: Op. Cit., + 3 PP. 116 — 117.

الوسطى (٥٤) ، ويعمل اليهود فى صناعة الذهب والفضة ولديهم مصانع للمنسوجات الخفيفة ويصنعون منسوجات من القطن الوارد من البنغال ومن الحرير الوارد من سورية (٥٧) .

وفى عام ١٧٢٧ م افتتح اليهود شركة للتجارة مع المسيحيين القادمين من أوروبا ولكن محاولاتهم فشلت كما ذكر ميليه ، وقد تمتع العديد منهم بالثراء فأكد ميليه انه فى عام ١٧٤٧ م أصبح اليهودى ابراهيم سرانو من أغنى تجار القاهرة ، كما ذكر نيبور انهم تمتعوا بحرية تامة فى العمل بمختلف المهن (٥٨) .

وقد عمل اليهود فى تغيير العملة وتركزت أعمالهم فى خان الحمزاوى كذلك عملوا فى دار سك العملة وقد قدر ديجون أعدادهم فى القاهرة عام ١٧٧٨ م من الفين الى ثلاثة آلاف يعملون بالتجارة (٥٩) . وتركز عمل اليهود فى الجمارك وقد قدمت العديد من الشكاوى ضدهم خاصة من قبل التجار الفرنسيين وقد ذكر ميليه قضية اليهودى زافير الذى كان مسئولا عن جمرك الاسكندرية وفرض الغرامات على التجار الفرنسيين فطالبوا الباشا بمعاقبته واستدعى فى الديوان ووجهت اليه الاتهامات ثم قدمت ضده الشكاوى فى استانبول فتم استدعاؤه للمحاكمة (٦٠) .

---

(٥٦) Benjamin : Voyage De Rabbi Benjamin files de Jona De tudele en Europe, eu Asie en Afrique Amesterdam 1873. P. 226.

(٥٧) Savary : Op. Cit., + 3 P. 39.

(٥٨) Maillet : Op. Cit., P. 92.

(٥٩) Raymond : Op. Cit., P. 459.

(٦٠) Maillet : Op. Cit., P. 37.

وقــد قضى على بك على نفوذ اليهود فى الجمــارك ففى عام ١٧٦٩ م أوقف المشرف على جمرك بولاق وشنقه وصــادر أمواله وحل محل اليهود فى ادارة الجمارك الشوام الكاثوليك وقد كتب القنصل الفرنسي فى الاسكندرية عن هذا التغير « لقد انتهى أمر اليهود فقد فقدوا السيطرة على الجمارك » واختفت اسماؤهم من سجلات الجمارك (٦١) .

نساء مصر :

افاض الرحالة فى وصف النســاء فى مصر فقدموا وصفا موجزا عن نساء المماليك والأتراك وقد أعجب الرحالة بنســاء الأتراك فذكر فورمون « انهن على جانب كبير من الجمال فهن من اجمل نساء العــالم يتم جلبهن من موسكو وجورجيا ولكنهن لم ينلن أى نصيب من التعليم » (٦٢) . وقــد أكد فولنى على ان نســاء البكوات على قدر كبير من الجمــال كذلك أكدت هــذه الحقيقــة زوجــة ماجالون بحــكم اختلاطهــا وزيارتها لنســاء المماليك (٦٣) .

أما دانتريج فقد كتب عن مقاييس الجمال بالنسبة للمرأة من وجهة نظر الأتراك والمماليك « فلابد أن تكون المرأة بيضــاء سمينة » ولذلك تكثر فى أقوال المصريين « بيضاء سمينة وجهها كالقمر » (٦٤) وأكد فولنى هــذه الحقيقة فذكر أن العامة يرددون فى أمثالهم « خذ البيضاء من أجل عينيها » (٦٥) .

---

(٦١) Raymond : Op. Cit., P. 84.

(٦٢) Fournont : Op. Cit., P. 103.

(٦٣) Hanotaux : Op. Cit., P. 77.

(٦٤) Auriaut : Op. Cit., P. 295.

(٦٥) فولنى : المرجع السابق ، ص ١٢٢ .

أما نساء مصر فلم يعجب بهن فولني « اجسادهن ضعيفة جلودهن عليها صفرة » فلم ير فولني فى سيدات مصر الا « أشباحا جائلة بعباءات فضفاضة ولولا العيون التى تنفذ من ثقوب البراقع ما فطن المرء الى انوثتهن » (٦٦) ولكن سونيني انصف المراة المصرية فذكر أنها « على جانب كبير من الجمال سواء المسلمات أو المسيحيات يضعن الكحل فى أعينهن ويصبغن رموشهن ويتزين بالحنة » (٦٧) .

أما القرويات فقد وصفهن أوليفيه « انهن قبيحات يخفين وجوههن عند رؤية الأجنبى » (٦٨) ، ولكن سافارى خالفه الرأى فقد وصف القرويات وصفا شاعريا فهن « ممشوقات القوام يحرصن على الاستحمام فى مياه النيل فتبدو أجسادهن المشوقة الجذابة ، يدلكنها بطمى النيل واسترسلت جدائل شعورهن على إكتافهن القمحية الداكنة وبشرتهن التى لفحتها الشمس الحارقة » (٦٩) . وقد وجد سونيني أن نساء الوجه البحرى اجمل من نساء الوجه القبلى فوصفهن بأنهن « قبيحات » (٧٠) .

لم يقتصر وصف الرحالة على نساء مصر من الطبقة الحاكمة والمصريات والقرويات وانما قدموا وصفا لنساء العوالم فى مصر فذكر سافارى « للعوالم مجتمع خاص بهن وهن يتقن الغناء والرقص ولا يوجد احتفال يتم فى مصر دون غناء ورقص العوالم اللاتى يمتزن بنعومة أجسادهن ، يرقصن على نغمات الطبول

---

(٦٦) ثروت عكاشة : المرجع السابق ، ص ٧٣ .

(٦٧) Sonnini : Op. Cit., + 1 PP. 292 — 294.

(٦٨) Olivier : Op. Cit., P. 109.

(٦٩) ثروت عكاشة : المرجع السابق ، ص ٦٨ .

(٧٠) Sonnini : Op. Cit., + 3 P. 223.

ينشدن الأشعار والمواويل حتى الأتراك أعداء كل الفنون يجدون متعة فى الاستماع الى الغنـاء ورقص العوالم ولابد من تواجد العالمـة فى حفلات الزفاف حيث تسير امام العروس مع ايقاعات الموسيقى » (٧١) .

وقد كتب علماء الحملة الفرنسية نفس الملاحظات « تتعلم الفتيات اللاتى يعددن كى يصبحن « عوالم » منذ نعومة أظفارهن والعوالم فى مصر هن بهجة الأعياد » (٧٢) .

وقد اهتم الرحالة بوصف ملابس النسـاء خاصة نسـاء المماليك اللاتى يحرصـن على ارتداء الملابس الثمينـة وتفوق ملابسهن ملابس القرويات فخامة وجمالا وأناقة (٧٣) فملابسهن مزينة بالذهب وتفوق تكاليف ملابسهن ملابس المراة فى فرنسـا ثلاث مرات أو أضعاف (٧٤) .

ويختلف حجم نساء مصر عن حجم الفرنسيات فنساء مصر أكبر حجما وهن يتصفن بالغيرة الشـديدة على الأزواج خاصـة فى الوجه القبلى فلو تزوج رجل امرأة اخرى فان زوجته تدس له السم ببطء وتترك زوجها يتعذب لمدة عـام حتى يسقط شعر رأسه ولحيته وأسنانه وهى تراقبه فى غل وشماته حتى يموت مسموما (٧٥) .

وتلقب المراة بست أو هانم أو باسم ابنها ولا يمكن أن يناديها أحد باسمها وهى حريصـة على تربية أولادها وتستمر فى

---

(٧١) Savary : Op. Cit., + 1 PP. 149 — 155.

(٧٢) انظر وصف مصر ، جـ ٣ ، ص ٩٢ .

(٧٣) Fourmont : Op. Cit., P. 100.

(٧٤) Maillet : Op. Cit., P. 12.

(٧٥) Sonnini : Op. Cit., + 3 P. 24.

ارضاعهم لمدة عامين حسب شريعة محمد ولو عجزت المراة عن ارضاع طفلها فانها تستدعى مرضعة وتعامل مثل ربة المنزل واذا عجزت المراة عن الانجاب فأنها تهدى زوجها جارية فاذا ولدت له ولدا فان التى تتولى تنشئته هى الزوجة الأولى (٧٦) .

كان من الطبيعى أن يلمس الرحالة الفارق بين الفرنسيات ونساء مصر خاصة وان الشرق عرف عنه المحافظة على فضيلة النساء وقد أعجب ميليه بغيرة الشرقى على نسائه فكتب « يراعى الشرقيون التقاليد أكثر منا ويعرفون الفضيلة والطهر اكثر من الغرب » (٧٧) واكد لوكاس « أن المراة لا تخرج الا للضرورة أو الى الحمام أو زيارة صديقاتها » فكتب لوكا « اننا نادرا ما نقابل النساء فى الطرقات » (٧٨) .

واذا خرجت نساء المماليك أو الأتراك للزيارة فلابد أن يصحبها الجنود الانكشارية يسيرون أمامها بينما يتبعها العبيد والجوارى طوال الطريق متمنين لها الصحبة السعيدة والتوفيق (٧٩) .

واسهب سافارى فى وصف مجالس النساء فالمراة عند زيارتها لصديقتها تستقبلها المضيفة بعبارات الترحاب مثل طال انتظارنا لك ، تسعدنا رؤيتك ، ازدان المنزل بحضورك ثم يقدم العبيد القهوة وتجلس النساء على الكنبة حيث تقدم لهن الفواكه من البرتقال والشمام والموز ثم يغسلن أيديهن فى طبق صغير من

---

(٧٦) Fourmont : Op. Cit, P. 111

(٧٧) Maillet : Op. Cit., P. 106.

(٧٨) Lucas : Op. Cit., + 1 P. 75.

(٧٩) Fourmont : Op. Cit., P. 104.

الفضة به ماء معطر ثم ترقص الجوارى تحية للضيفة وعند انتهاء الزيارة يتم تبادل عبارات وصفها سافارى بانها عبارات لطيفة تنم عن الود مثل الله يحفظك ويحفظ أولادك ، وطوال فترة الزيارة يمنع الرجال من دخول الغرفة (٨٠) . ويسمح للنساء بالتنزه فى النيل وتخصص لهن المراكب المغلقة المزينة ويصعدن فى المساء على سطح المركب للاستمتاع بالهواء المنعش وكتب سافارى « ان اقصى ما تتمناه المراة هو نزهة على ظهر مركب أو جولة تحت اشجار البرتقال » (٨١) .

وبينما اعجب سافارى بطريقة حياة المراة فى مصر الا ان معظم الرحالة انتقدوا وضع المراة فذكر سونينى ان النساء فى الشرق مظلومات وهن اسرى الرجال ، ولا توجد عاطفة ولا علاقة قوية بين الأزواج (٨٢) كذلك كتب ميليه ان النساء فى مصر مجبورات على الزواج ليس لديهن فرصة اختيار الزواج كما فى فرنسا والعلاقة الزوجية اجبارية ولكن ميليه أعجب بطهارة الفتاة فى مصر ومحافظتها على سمعتها وشرفها (٨٣) .

واخيرا عند ختام الحديث عما ذكره الرحالة عن النساء سنورد بعض القصص التى رواها مؤكدين بانها حقيقية ذكر سافارى قصة حب بين فتاة من جورجيا عمرها ستة عشر عاما تزوجت كهلا يكبرها فى السن ثم أحبت أحد الأوروبيين وتكررت لقاءاتهما وكلما امتنع الأوروبى عن الحضور ارسلت له الفتاة العبيد يهددونه وقد أفاض سافارى فى الحديث عن لقاءات الفتاة

---

(٨٠) Savary : Op. Cit., + 1 PP. 168 — 170.

(٨١) Ibid : PP. 171 ... 173.

(٨٢) Sonnini : Op. Cit., + 1 PP. 292 — 294.

(٨٣) Maillet : Op. Cit., P. 133.

بالأوروبى بشاعرية وكأنه يكتب قصة أو رواية « تكررت لقاءاتهما تحت ضوء القمر وورائه البرتقال يعبق الجو » (٨٤) .

كذلك سجل ميليه بعض الروايات التى سمعها خلال تواجده فى مصر فكتب عن قصة حب بين حسن وفاطمة واستهل ميليه حديثه بأن الحب فى فرنسا له طابع الرقة والحنان اما فى آسيا وخاصة الأتراك فهم لا يعرفون هذه المشاعر وقص ميليه قصة حسن كخيا العزب فى القاهرة الذى تزوج من فاطمة ابنة سيده كامل كخيا ورغم جمال فاطمة وعراقة نسبها الا ان حسن أحب جميلة جاريتها والتى تفنن فى اختلاق المعاذير لرؤيتها والالتقاء بها ولكن الجارية كانت تحب أحد المماليك المجلوبين من بولندا فأخبرت سيدتها فعملت فاطمة على أن تبيت فى مخدع جميلة كل ليلة بينما زوجها حسن يعتقد أنه يلتقى بجميلة ، كان فى حقيقة الأمر لا يلتقى الا بزوجته ثم انكشف الأمر فى النهاية وسمح حسن للجارية فى النهاية بالزواج من المملوك البولندى . أما ميليه فقد علل السبب فى تصرف حسن أنه لم يحب فاطمة عند الزواج وانما أجبر على الزواج منها لأن التقاليد تفرض عليه الزواج من ابنة سيده (٨٥) .

كذلك قص ميليه قصة مولاى حسن وكان اميرا فى احدى مناطق البحر الأحمر كتب ميليه أن هذه القصة اختلطت فيها العواطف احب مع البخل مع الطمع والجشع فمولاى حسن حكم منطقة عند سلاسل جبال البحر الأحمر وكان محبوبا من سكان هذه المناطق محترما بين الأمراء العرب المجاورين له تقاسموا حكم مصر العليا واتخذوه رئيسا لهم واستشاروه فى كل صغيرة

---

(٨٤) Savary : Op. Cit., + 1 P. 173.

(٨٥) Maillet : Op. Cit., PP. 118 — 120.

وكبيرة وعندما قامت الحرب الفارسية شارك فيها وقدره رجال الدولة العثمانية لشجاعته فى الحرب وكان يمتلك منجما للزمرد فطمع فيه أغا الأتراك فشكي حسن الى الباشا فى مصر الذى أراد التخلص منه واخذ يدبر له المكائد لدى الباب العالى فطلب السلطان استدعاء مولاى حسن الى القاهرة فحضر ومعه زوجته وتحدث الناس عن جمالها للباشا وأخبروه أن حسن يمتلك كنزين الأول زوجته والثانى منجم الزمرد ولذلك صمم الباشا على التخلص منه وأرسل الحملات الى المنطقة التى يقيم فيها حسن حتى تم أسرد والقاء القبض عليه وسيق الى القاهرة ومعه زوجته للمرة الثانية وحاول حسن قتل الباشا ولكن رجاله منعوه وقتلوه أما زوجة حسن فقد أسرعت بتناول السم بعد أن علمت بمقتل زوجها وهكذا عجز الباشا عن أن يحقق أغراضه فلم يظفر بزوجة حسن ، كذلك لم يعرف مكان مناجم الزمرد لأن حسن قتل قبل أن يخبره بها (٨٦) .

---

(٨٦) Ibid. : PP. 308 — 318.

الجالية الفرنسية

كان من الطبيعى أن يهتم الرحالة الفرنسيون بتسجيل وتدوين أحوال الجالية الفرنسية باسهاب شديد خاصة وان اسكالة مصر كانت من أهم اسكالات الشرق وقد مثل التجار الفرنسيون الغالبية العظمى من الجالية الفرنسية .

وقد شهد القرن السابع عشر اهتماما كبيرا من قبل الحكومة الفرنسية لتنظيم اسكالات الشرق بصفة عامة واسكالة مصر بصفة خاصة فقد ظلت هذه الاسكالات منفصلة عن ملوك فرنسا مما أدى الى انتشار الفوضى لضعف الرقابة على القناصل الذين انحصر اهتمامهم فى البحث عن الثروة ولذلك بدأ كولبير سلسلة من الاصلاحات لتنظيم الاسكالات وكان من نتائج هذه الاصلاحات ان أصبح القناصل موظفين ملكيين يتبعون الملك وهو الذى يعينهم بعد أخذ رأى غرفة تجارة مارسيليا ومحافظ بروفانس وحرم عليهم الاشتغال بالتجارة وقدرت لهم رواتب

ثابتة (٨٧) . وقد انفرد الرحالة الفرنسى كوبان فى القرن السابع عشر باعطائنا صورة للمنازعات بين القناصل فى اسكالة مصر (٨٨).

وفى القرن الثامن عشر استمر الاهتمام بتنظيم اسكالات الشرق فصدر أمر فى ٣ نوفمبر عام ١٧٠٠ م بمنع سفر اى تاجر الى الشرق اذا كان سنه يقل عن ٢٥ سنة ، كذلك الزم كل فرنسى يريد العمل بالتجارة أن يحصل على شهادة واذن من السلطات أما بالنسبة للقناصل فقد التزموا بتقديم التقارير الى غرفة تجارة مارسيليا عن الفرنسيين المقيمين فى الشرق (٨٩) . ويرجع الفضل الى لويس الرابع عشر فى تنظيم الاسكالات وادارة القنصليات وتلك الاصلاحات التى قام بها كل من وزير البحرية موروبا والسفير الفرنسى فى استانبول فيلينوف حتى أن المؤرخ الفرنسى ماسون أطلق على هذه الاصلاحات نظام موروبا ـ فيلنوف وقد حرمت هذه الاصلاحات على التجار عام ١٧٢٣ م الزواج من نساء البلاد التى يعطون فيها وذلك « لأن أولادهم لابد وأن يتبعوا فرنسا » كذلك صدر أمر ملكى فى ٢٠ يوليو

---

(٨٧) أسس مجلس المتجارة عام ١٦٦٤ م ثم جعل لغرفة تجارة مارسيليا كيانا مستقلا يشرف عليها ثلاثة قناصل وأربعة أعضاء من التجار وثمانية مستشارين والزم الغرفة بالاجتماع يومين اسبوعيا لدراسة كل ما يتعلق بالتجار ثم أصبح لزاما على أى تاجر يريد التجارة فى الشرق أن ينتمى لغرفة تجارة مارسيليا ليتال عضوها ورخصة تمكنه من مزاولة نشاطه والتمتع بحماية دولته ويجب الا يقل سنه عن أربعة وعشرين عاما وكانت الغرفة تدفع للقناصل رواتبهم وهم مسئولون أمام السفير الفرنسى فى استانبول ، وفى عام ١٦٨١ م أصدرت وزارة البحرية الفرنسية تنظيما للأسكالات وأعطت القناصل حق ترحيل اى مواطن بسبب سوء سلوكه ، كذلك أعطته الحق فى اصدار الأحكام القضائية ومنعته من الاستدانة باسم فرنسا .

(٨٨) الهام ذهنى : المرجع السابق ، ص ٤١ ، ص ٤٥ .

(٨٩) Clement : Op. Cit., P. 133.

عام ١٧٢٦ م بمنع النساء من التواجد في الاسكالات وامتد هـذا المنع ليشمل التجار المتزوجين فمنعوا من احضار زوجاتهم او بناتهم الى الشرق كذلك منع التجار من الزواج من نساء الاقباط في مصر فكتب نائب القنصل في رشيد في ٢٠ مارس عام ١٧٢٨ م « ان النساء هن النساء في كل مكان لا تختلف ان الشرق ليس للنساء والتجارة لا تحتاج تواجدهن » كذلك حددت فترة تواجد وعمل التاجر في الاسكالة بعشر سنوات بمقتضى امر صدر عام ١٧٣١ م ثم زيد الى خمسة عشر عاما ووكل الى القنصل اعادة ارسال التاجر الذى يقضى مدته في الشرق وكانت هـذه المهمة من اصعب المهام لأن كثيرا من التجار رفضـوا العودة الى فرنسا فكتب الوزير موروبا الى غرفة تجارة مارسيليا ينتقد عدم عودة التجار في الموعد المحدد (٩٠) .

استمرت اشراف الدولة في ادارة اسـكالات الشرق حتى قيام الثورة الفرنسية فارتبكت احوال الاسكالات وفي عام ١٧٩١ م صدر قانون بالغاء عمل غرفة تجارة مارسيليا (٩١) .

عمل في اسكالة مصر القنصل الفرنسى ومقره في القـاهرة اما نوابه فقد اقاموا في كل من رشيد ، دمياط ، الاسكندرية وقد عاونهم المترجمون والقضاة والأطباء ومجموعة من رجال الذين « اطلق عليهم جنود القنصلية » وكانت مهمتهم الرئيسية هي العمل على الاشراف على التجـار الفرنسيين وقد اختلفت العلاقة بين هؤلاء التجار والقناصل فأحيانا يسود الود والتفاهم بين الطرفين ، واحيانا تتأزم العلاقات بينهما ويقدم كل طرف الشكاوى ضد الطرف الآخر فعلى سبيل المثال تأزمت العلاقة بين القنصـل

(٩٠) Ibid, : P. 134.

(٩١) Roux : Op. Cit., P. 242.

الفرنسي ميليه والتجار الفرنسيين لأنه اراد تنظيم التجارة فأطلقوا عليه (عدو البروفانسيين) وقدموا العديد من الشكاوى ضده واتهموه بالاتجار فى النبيذ وفى البن واضطر الوزير الفرنسي بونشرتران فى عام ١٧٠٦ م الى ارسال لجنة لتقصى الحقائق أو الحقيقة ولكن التحقيق جاء فى صالح ميليه ورغم ذلك تم ابعاده من مصر « فظل التجار يرقصون طوال الليل ابتهاجا برحيله » (٩٢) .

استمر التجار الفرنسيون فى معارضة أوامر الملك فكان القناصل يقدمون بدورهم الشكاوى ضد هؤلاء التجار فقد قدم القنصل بليرون (١٧٠٧ – ١٧١١) الشكاوى ضد التجار لعدم التزامهم بتنفيذ الأوامر ، كذلك دخل القنصل بينون عام ١٧٣٠ م فى صراع مع التجار وطلب ترحيل التجار الذين يتعاملون مع اليهود ولكن غرفة تجارة مارسيليا اتهمته بالقسوة فدافع عنه الوزير موروبا « ان الهدف هو صالح التجارة ولا مجال للعواطف » (٩٣) .

عاون القنصل نوابه فى المدن المصرية الهامة كذلك المترجمين وكان لوظيفة المترجم أهمية كبيرة فهو الوسيط بين الفرنسيين والسلطات المحلية خاصة الباشا وكبار الشخصيات من البكوات الأوجاق ، وقد تخرجت أعداد كبيرة من المترجمين من مدرسة اطفال اللغات فى بيرا حيث كان الطفل يتعلم فى الأديرة اللغات الشرقية على يد رجال الدين الكابوسيين خاصة العربية والتركية واليونانية والايطالية (٩٤) .

---

(٩٢) Ibid, : P. 89.

(٩٣) Hanotaux : Op. Cit., 198.

(٩٤) الهام ذهنى : المرجع السابق ، ص ٤٦ .

وجدير بالذكر ان الجزويت تقدموا بطلب الى الملك لويس الرابع عشر لاقامة مدرسة للغات فى مارسيليا على غرار مدرسة بيرا وذلك لتعليم الأطفال اليونانية والأرمنية والسريانيــة لكى يكونوا مؤهلين للذهاب الى الشرق ونشر النفوذ الفرنسى ، ثم أزداد الحماس لانشاء مدرسة لتعليم اللغات فى كلية لوس لى جران عندما انشــأ البريطانيون فى اكسفورد مدرســـة لتعليم الأطفال اللغات فكتب الوزير الفرنسى بونشرتران فى ٣١ مارس ١٧٠٠ م الى غرفة تجـارة مارســيلنيا بان الملك علم بتأسيس مدرســة للغات الشرقية فى اكسفورد وان خريجى هذه المدرســة سوف يتم ارسالهم الى الشرق لنشر المذهب الانجليكانى ولذلك قرر لويس الرابع عشر احضــار اثنى طفلا من الأرمن واليونانيين والأقبــاط لتلقى تعليمهم فى كليــة لوى لى جران ليكونوا نواة للبعثــات التنصيرية ويعملون على خدمة القناصــل والتجــار فى اسكالات الشرق ثم صدر مرسوم فى ٢٠ يوليو ١٧٢١ م بدنع اى طالب من الالتحــاق بمدرســة بيرا الا اذا تعــلم فى كليــة لوى لى جران وقد تخرج من هذه الكلية بالفعل معظم المترجمين الذين عملوا فى الشرق (٩٥) .

وقد افادت فرنسا بالفعل من هؤلاء المترجمين فى الشرق افادت منهم فى ترجمة تراث الشرق ولمعت اســماء العديد منهم الذين اهتموا بالاستشراق منهم فيين Jean Baptiste De Fiennes الذى تلقى تعليمه فى بيرا ثم عمل فى كليــة فرنســا ، وبيرا ارمان Pierre Armain الــذى مكث فى بيرا فى الفــترة من عام ١٧٠٦ م حتى عام ١٧١٢ م ونقل العديد من المؤلفات التركية والعربية الى المكتبة الوطنية فى باريس ، وبينون Pignon .

---

(٩٥) Clement : Op. Cit., PP. 138 — 139.

الذى عمل فى مكتبة ملك فرنسا ثم عمل أستاذا للغة العربية والتركية والفارسية فى كلية لوى دى جران عام ١٧٥٢ م كذلك عمل إتيان لى جران Erienne Le Grand مترجما فى الاسكندرية ثم فى القاهرة عام ١٧٤٥ م وترجم العديد من المؤلفات وقد مكث فى اسكالات الشرق حوالى أربعة وثلاثين عاما عمل خلالها فى مصر وطرابلس وحلب واستانبول ثم عين بعد عودته سكرتيرا للملك ثم أستاذا للغات الشرقية فى كلية لوى لى جران واشتهر بانه من أكثر علماء أوروبا علما فى اللغات الشرقية (٩٦) .

ومن الاسماء التى لمعت دنيس جوردون Denis Dominique Gordonne الذى عمل مترجما فى القاهرة عام ١٧٥٤ م ثم عين أستاذا للغات الشرقية فى كلية لوى دى جران وفى عام ١٧٦٠ م عين أستاذا للفارسية والتركية وقد ترك عدة مؤلفات عن تاريخ افريقيا ، وتاريخ أسبانيا تحت الحكم العربى (٩٧) .

أما جيلى Gilly فقد عمل فى اسكالات الشرق لمدة عشرين عاما وفى عام ١٧٦٩ ترك مصر بسبب تخوفه من على بك وعمل أستاذا للغات الشرقية فى مدرسة اللغات فى كلية لوى لى جران (٩٨) .

ولم تقتصر اهتمامات المترجمين على الاستشراق وترجمة المؤلفات العربية وانما اهتم البعض منهم بالموسيقى الشرقية مثل شارل فونتون Charles Fonton الذى عمل مترجما

---

(٩٦) Hanotaux : Op. Cit., P. 175.

(٩٧) Ibid., P. 74.

(٩٨) Clement : Op. Cit. P. 140.

فى القاهرة ثم عمل استاذا للغات الشرقية فى باريس وترك مؤلفا عن الموسيقى الشرقية (٩٩) .

ولعب المترجم ديجون Digeon دورا هاما فى مصر فلم يقتصر عمله على الوساطة بين القنصل وكبار الشخصيات وانما أفاد منه بونابرت عندما ارسلت للحملة الفرنسية على مصر لاتقانه اللغة العربية ومعرفته الوثيقة بأحوال مصر بصفة خاصة والشرق بصفة عامة (١٠٠) .

ولقد شعر المترجمون باهميتهم فعملوا على تقوية علاقاتهم بالسلطات المحلية فتعاظم نفوذهم حتى انهم تطاولوا على القناصل فشكا القنصل داميرا فى عام ١٧٣٩ م « ان المترجمين لا يشعرون أن القناصل رؤساؤهم » (١٠١) .

لا نستطيع التعرف على حياة الفرنسيين فى مصر الا من خلال التقارير ورسائل القناصل الفرنسيين الى غرفة تجارة مارسيليا ، كذلك من كتابات الرحالة خاصة وانهم افاضوا فى القرن الثامن عشر فى وصف احوال الجالية الفرنسية فى مصر وان كنا لا نخفى أن رحالة القرن السابع عشر تحدثوا عن الفرنسيين فى مصر خاصة كوبان الذى عمل نائب قنصل فى دمياط والقى الضوء على الخلافات والمنازعات بين القناصل الفرنسيين ومنافسيهم .

والملاحظ فى كتابات القرن الثامن عشر ان أعداد الفرنسيين لم تتزايد عما كانت عليه فى القرن السابع عشر فلم يغيروا نمط

---

(٩٩) Ibid, : P. 141.

(١٠٠) Hanotaux: Op. Cit., P. 174.

(١٠١) Ibid, : P. 165.

(١٠٢) Clement : Op. Cit., P. 145.

حياتهم فنجدهم فى القرن الثامن عشر يسكنون نفس الأحياء التى كانت مخصصة لهم فى مدن مصر ، فى القاهرة ، رشيد ، والاسكندرية وقد أطلق الكتاب الفرنسيون على الفرنسيين فى مصر اسم الأمة Nation باعتبار انهم يمثلون فرنسا فلم تخل كتابات الرحالة من هذا اللفظ (١٠٢) .

اذا فندنا ما ذكره الرحالة عن الجالية الفرنسية فلابد أن نستهل حديثنا عن الحى الذى سكن فيه الفرنسيون فالحى الفرنسى وقع فى القاهرة الجديدة أى انه ليس فى مصر القديمة وهويقع بين الخليج وحديقة قريبة من الأزبكية وقد قدم لنا القنصل ميليه عام ١٦٩٧ م وصفا للحى الفرنسى « انه فى شارع سيىء مؤلف من عدة منازل سيئة وهى تشبه الفجوات والكهوف، ولا يختلف منزل القنصل عنها » وطالب ميليه باستغلال المساحات الخالية فى الحى لبناء أكثر من ثلاثين منزلا ، وعقد ميليه مقارنة بين منزل القنصل الفرنسى ومنزل قنصل البندقية فكتب فى حسرة « يعتبر منزله قصرا بجانب منزل القنصل الفرنسى » (١٠٣).

ورغم امتعاض ميليه عند وصفه الحى الا اننا نجد أن الرحالة الفرنسى لوكا الذى زار مصر فى فترة لاحقة اختلف فى وصفه عن ميليه مما يؤكد ان منازل الحى تم تجديدها فقد كتب لوكا « منازل التجار مريحة ومنزل القنصل اعظم وأكبر واضخم المنازل مدخله جميل والحى به عدة محلات لتخزين الأخشاب ومنزل القنصل به عدة حجرات مفروشة بأثاث فاخر وفيه حجرة خصصت لاستقبال الأتراك وحجرة ثانية لاستقبال التجار وختم

---

(١٠٣) Hanotaux : Op. Cit., P. 160.

لوكا حديثه لقد شعرت بالسعادة لأن الفرنسيين يشعرون بالسعادة في مصر » (١٠٤) .

وقد افاد القناصل من توثيق الصلات مع السلطات الحاكمة للحصول على امتيازات لأبناء الجالية الفرنسية فأفاد القنصل لى مير من صلاته القوية مع ضباط الوجاق لتجديد الحى فكتب في عام ١٧٢٠ م لقد تمكنت من اعادة بناء الحائط الذى يفصل الحى عن أحياء المسلمين وتمكنت من بناء باب من الخشب لحماية الحى (١٠٥) .

والواقع أن القناصل الفرنسيين تمتعوا بتعضيد أوجاق الانكشارية فى نظير « جعل » معين (١٠٦) .

قدم سونيني وصفا للحى ففيه « ابواب تغلق على الفرنسيين والمبانى المقامة داخله على شكل مربع » (١٠٧) ، وأكد فورمون أن الحى لا يحتوى على منزل القنصل والتجار الفرنسيين فحسب وانما كان هناك مبان خصصت للبعثات الكابوسية واليسوعية (١٠٨) .

اما منازل التجار فقد فرشت بأحسن أنواع الأثاث وتكونت من عدة غرف ومحلات مثل منزل التاجر الفرنسي ديبنى Despiegnes الذى حوى مكتبة ضخمة وكتب متعددة من بينها مؤلفات الرحالة سافارى ومؤلفات الأدباء الفرنسيين مثل :

---

(١٠٤) Lucas : Op. Cit., + 1 P. 52.

(١٠٥) Hanotaux : Op. Cit., P. 160.

(١٠٦) هاملتون : المرجع السابق ، ص ١٣٢ .

(١٠٧) Sonnini : Op. Cit., + 1 P. 201.

(١٠٨) Fourmont : Op. Cit., P. 94.

راسين وباسكال ولافونتين الى جانب العديد من المؤلفات التاريخية والدينية والموسوعات والقواميس (١٠٩) .

ومن الطرائف التي كتبها القناصل ان القنصل لى مير تقدم بشكوى الى السلطات المحلية بشأن وجود باب فى منزله عليه كتابات باللغة العربية علم بعد الاستفسار عنها بأنها تحوى دعاء ضد ساكنى الحى من الفرنسيين فعمل لى مير على التخلص من هذا الباب (١١٠) .

وعلى الرغم مما كتبه الرحالة عن فخامة منازل التجار الفرنسيين والقنصل الا انهم أشاروا الى بعض المتاعب التى تعرض لها الحى بحكم قربه من الخليج مما عكر صفو اقامتهم فكتب القنصل ليرنكور فى عام ١٧٤٨ م يشكو من أن الفرنسيين يعانون بسبب الروائح الكريهة التى تنبعث من الخليج خاصة فى شهر أغسطس عندما ترتفع مياه النيل فلا توجد رائحة أسوء من رائحة الخليج ولابد للفرنسيين من تغيير مكان اقامتهم بعيدا عن هذا الحى بسبب الروائح الكريهة (١١١) .

لم يختلف الحى الفرنسي فى الاسكندرية ورشيد عن القاهرة وقد ذكر سونينى ان الحى الفرنسى فى الاسكندرية كان قريبا من البحر عند الميناء الجديد وهو بناء مربع مغلق من كل الجهات بداخله فناء وحوله الوكالات (١١٢) .

---

(١٠٩) Clement : Op. Cit., PP. 152 — 153.

(١١٠) Ibid, : P. 152.

(١١١) Hanotaux : Op. Cit., P. 161.

(١١٢) Sonnini : Op. Cit., + 1. P. 107.

أما فى رشيد فقد أشترك فى الاقامة مع الفرنسيين جاليات اخرى مثل اليونانيين ويبدو أن الفرنسيين لم تطب لهم الاقامة فى الحى المخصص لهم فى رشيد فتقدم نائب القنصل بشكوى عام ١٧٥٠ م من سوء حال الوكالة وازدحامها بالحيوانات والأجانب اليونانيين واليهود الذين يفدون عليها وأراد نائب القنصل حل المشكلة عن طريق تأجير المكان كله لصالح الفرنسيين أو بناء وكالة خاصة بالفرنسيين فقط (١١٢) .

أما عن أعداد الفرنسيين فقد وجد أن الجاليــة الفرنسية معظم أفرادها من التجار القادمين من بروفانس وليفونن وقد وجد من بينهم الأطباء فذكر القنصل ميليه أن رامى باشا كان يعالجه ويعمل لديه طبيب فرنسى من راجوز ، كذلك كتب داميرا عام ١٧٦٢ م ان محمد باشا له طبيب فرنسى وحمزة باشــا له طبيب من البندقية يدعى بمبينى Bimbini وعند مجىء الحملة الفرنسية على مصر عــام ١٧٩٨ م وجدت طبيبـا فرنسيا من الالزاس مقيما فى القاهرة يعمل لدى البكوات . كذلك عمل الأطباء الفرنســيون لدى بكوات مصر مع على بك ومحمــد ابى الذهب وحسن بك كشكش (١١٤) .

وفى عام ١٧١١ م احصى القنصل عدد الفرنسيين فى القاهرة فوجد ان عددهم ٢٣ تاجرا وتسعة صناع وطبيبين وفى منتصف القرن الثامن عشر بلغ عدد الفرنسيين فى القاهرة ٢٨ فرنسيا منهم الضباط والتجار والحرفيين وفى الاسكندرية ستة عشر وفى رشيد سبعة أى أن اجمالى عدد الفرنسيين ٥١ فرنسيا (١١٥) .

---

(١١٣) Clement : Op. Cit., P. 156.
(١١٤) Hanotaux : Op. Cit., P. 82.
(١١٥) Roux : Op. Cit., P. 7.

شارك الفرنسيون بلدهم فى الاحتفالات وفى الانتصارات ففى عام ١٧١٣ م كتب القنصل الفرنسى مهنئا وزير البحرية بانتصارات فرنسا فى فليبسبورج « احتفلنا وأنشدنا الأناشيد الوطنية » وفى عام ١٧١٣ م كتب بونشرتران الى القنصل « أعلم أنكم انشدتم تسبيحة الشكر لعقد الصلح بين هولندا وبريطانيا كذلك شارك الفرنسيون بلدهم فى أحزانها خاصة عند وفاة لويس الرابع عشر فارتدى التجار الفرنسيون السواد واقاموا القداس فى الكنيسة . كذلك شارك الفرنسيون الدولة العثمانية فى انتصاراتها وشاركوا المصريين فى الاحتفالات بالأعياد والمناسبات الهامة مثل وصول الباشا الجديد والاحتفال بوفاء النيل ، ورحيل القافلة الى مكة » (١١٦) .

واذا كان هناك مراسم لاستقبال الباشا الجديد فان هناك ايضا مراسم لاستقبال القنصل الجديد ولندع ميليه يصف طريقة استقباله « عند وصولى الاسكندرية جاء القاضى وثلاثة من التجار لاستقبالى على ظهر المركب وهنأونى بسلامة الوصول ، ثم جاء الفرنسيون لاستقبالى واصطحبونى الى الشاطىء وعند نزولى من السفينة اطلقت ١٩ طلقة مدفع تحية لى واستقبلنى على البر مدير الديوان ويدعى شلبى اغا الاسكندرية واصطحبنى الصوباشي والكخيا والقاضى واطلق الانكشارية الهتافات لى وسرت وسط الناس الى ديوان الأغا يتبعنى الفرنسيون ، واجلسنى اغا الاسكندرية بجواره وشربت الماء الأسود (القهوة) ثم غسلت يدى فى صحن به ماء معطر ثم عطرونى واهدانى الأغا قطعة قماش غالية الثمن وحصانا ليقلنى الى منزل القنصلية وسرت بصحبة الانكشارية » (١١٧) .

---

(١١٦) Clement : Op. Cit., P. 160.

(١١٧) Maillet : Op. Cit., PP. 5 — 6.

متاعب الفرنسيين فى مصر :

لخص الرحالة والقناصل الفرنسيون أهم المصاعب التى تواجه الفرنسيين فى مصر على النحو التالى :

— عانى الفرنسيون من الطقس والحرارة الشديدة مما أدى الى اصابة الكثيرين منهم بالحمى خاصة فى شهر اغسطس فكتب القنصل الفرنسي فى عام ١٧٥٣ م « انتشرت الحمى بسبب حرارة الجو فى هذا الشهر وتوفى عدد من التجار » وللتغلب على هذه المشكلة كان القنصل ينقل مقر اقامته الى الاسكندرية فى فصل الصيف (١١٨) .

— شكا الفرنسيون من انتشار الأوبئة والمجاعات وانخفاض مياه النيل وقد تعجب فولنى من رغبة الأجانب فى الاقامة فى مصر رغم ما بها من اوبئة وأمراض » ان مصر لها سحر لا يقاوم على الأجانب الذين يسكنون فيها (١١٩) .

— اجبار السلطات المحلية الفرنسيين على ارتداء ملابس معينة وتعجب الفرنسيون من اصرار السلطات التركية على منعهم من ارتداء القبعات والشعر المستعار واللون الأبيض فشكا ميليه الى السفير الفرنسي فى الآستانة من منع الفرنسيين من وضع غطاء راس لونه أبيض (١٢٠) فكتب محتجا « من الصعب على الفرنسيين فى مصر ارتداء القبعات والشعر المستعار مثلما يفعل الفرنسيون فى استانبول والا تعرضوا للاهانات » وقد انتقد الرحالة الفرنسي دانتريج الفرنسيين الذين يقلدون المسلمين فى

(١١٨) Clement : Op. Cit., P. 65.

(١١٩) فولنى : المرجع السابق .

(١٢٠) Maillet : Op. Cit. P. 7.

ارتداء الملابس الشرقية وعاب عليهم ذلك (١٢١) بينما ذكر سونينى انه فى الاسكندرية يسمح للفرنسيين بارتداء الملابس العادية اما فى القاهرة فلابد من ارتداء الملابس الشرقية ، كذلك ذكر انهم لا يستطيعون ارتداء الملابس الخضراء لأنها مخصصة للاشراف وانتقد سكان القاهرة ووصفهم بانهم برابرة واكثر شراسة من غيرهم لأنهم يجبرون الأجنبى على ارتداء ملابس معينة (١٢٢) .

— منعت السلطات المحلية الفرنسيين من ركوب الخيول وذكر دانتريج انه سمح للفرنسيين بركوب الحمير فقط وكلما مر أحد المماليك كان لابد من النزول من على ظهر الحمار وذكر حادثة تعرض لها أحد التجار الفرنسيين فقد مر على أحد المماليك ونسى أن ينزل من على حماره فتعقبه العبيد وكسروا قدمه (١٢٣)، ولم يصرح بركوب الخيل الا للقنصل فقط ، وقد فضل القنصل ميليه ركوب الحمير لأنها أنسب لشوارع القاهرة (١٢٤) .

— عداء المصريين للفرنسيين وشعور الفرنسيين بعدم الأمان فقد ذكر ميليه ان أحد عبيد ضباط الانكشارية صفع أحد التجار الفرنسيين فطالب القنصل بضرورة توقيع العقاب على العبيد فوعده الضابط وضربه بالفعل ولكنه مات من أثر الضرب المبرح فتجمع العامة أمام منزل القنصل يريدون الانتقام منه واضطر الباشا الى ارسال بعض القوات لاطلاق سراح ميليه وفى مايو عام ١٧٥٠ م كتب القنصل ليرنكور « من النادر أن يعود التاجر من القاهرة الى بلاده دون أن يكون قد تلقى عدة ضربات

---

(١٢١) Auriant : Op. Cit., P. 283.

(١٢٢) Sonnini : Op. Cit., + 2. P. 305.

(١٢٣) Auriant : Op. Cit., P. 283.

(١٢٤) Maillet : Op. Cit., P. 7.

بالعصى(١٢٥) ، ولم ينج من الضرب بالعصى حتى كبار الشخصيات ، فقد ذكر سونينى ان المترجم الفرنسى اونسون والذى يعمل فى أكاديمية باريس خلال زيارته لمصر تقدم أحد التجار بشكوى ضده الى الباشا الذى أمر بضربه بالعصى وانتقد سونينى هذا التصرف قائلا « رجل له ذكاؤه وخبرته ودراسته القيمة يضرب بالعصى » (١٢٦) .

ولم تتركز العقوبات والاهانات التى تعرض لها الفرنسيون فى القاهرة فحسب وانما تعرضوا لها فى باقى المدن المصرية ففى دمياط شكا نائب القنصل لى نوار لى رول عام ١٧٠١ م بان شيخا ضريرا قاد مظاهرة أمام منزله وبصحبته عدد من الأطفال اخذوا يصيحون « لا نريد الفرنسيين فى دمياط » واضطر الفرنسيون الى الاختباء وعدم الخروج لمدة ثلاثة أيام وعند خروجهم من دمياط عزف الأهالى الموسيقى تعبيرا عن فرحتهم برحيلهم ولذلك آثر لى نوار عدم استلام منصبه والرحيل من البلاد (١٢٧) .

— ومن المصاعب التى واجهت الفرنسيين تدخل السلطات المحلية فى شئونهم ففى عام ١٧٤٩ م حذر ابراهيم كخيا القنصل الفرنسى ليرتكور من تعيين خادم مسلم ولكن سمح له باستخدامه فيما بعد ذلك بعد ان حصل على موافقة من أحد المشايخ فأخبره بجواز عمل الخادم لديه ولكن بشرط الا يعمل فى المطبخ (١٢٨) .

---

(١٢٥) Clement : Op. Cit., P. 65.

(١٢٦) Sonnini : Op. Cit., + 1 P. 207.

(١٢٧) Clement : Op. Cit., PP. 120 — 121.

(١٢٨) Hanotaux : Op. Cit. P. 176.

— لم تقتصر متاعب الفرنسيين فى القاهرة على تدخل السلطات المحلية فى شئونهم وعلى عداء المصريين لهم وانما واجهوا العديد من المتاعب بسبب تصرفات الفرنسيين أنفسهم فالقناصل الفرنسيون شكوا دوما من عدم التزام التجار الفرنسيين بالقوانين والأوامر وقد كتب ميليه عام ١٧٠٠ م « اننى أعلم الحياة الماجنة التى يحياها معظم التجار الفرنسيين » كذلك تقدم بالعديد من الشكاوى ضد التجار ومحاولاتهم للاتصال بالنساء » وكتب فى ١٦ ابريل ١٧٠٣ م علمت ان سيدة فرنسية تقوم بارسال الاشارات لبعض نساء البكوات للحضور الى منازل الفرنسيين فى يوم الجمعة » كذلك قدم ميليه شكوى ضد المترجم فورنتى لأنه « أقام العديد من العلاقات النسائية » ولذلك كان القناصل يخشون من انتقام السلطات المحلية فكانوا يقومون على الفور بترحيل الشخص المشكوك فى سلوكه وقد أفاض الرحالة والقناصل فى ذكر العديد من المخالفات التى ارتكبها الفرنسيون فقد قام القنصل بيليرون بترحيل الطبيب الفرنسى شاربير لأنه اتصل بجارية سوداء عمرها خمسة عشر عاما ، كذلك قام القنصل مور فى عام ١٧٨٤ م بطرد التاجر الفرنسى لازار مارتين لاقامته علاقة مع جارية مسلمة (١٢٩) .

وهكذا تدخل القناصل لمراقبة الحياة اليومية للجالية الفرنسية ومراقبة سلوك أفرادها وكتبوا العديد من التقارير عنهم وطالبوا بضرورة احترام تقاليد وعادات البلاد والا تعرضوا للمتاعب .

وجدير بالذكر ان ما ذكره القناصل الفرنسيون عن مخالفات الفرنسيين فى مصر فيه الكثير من الصحة ففى دراسة أجراها

(١٢٩) Ibid, : P. 170.

د. صلاح هريدى عن الجاليات الأوروبية فى الاسكندرية فى العصر العثمانى وبعد اطلاعه على وثائق المحكمة الشرعية وجد العديد من الشكاوى مقدمة ضد التجار الفرنسيين نذكر منها احتساءهم الخمر ، اعتداءهم على مساكن المسلمين ، سرقة بعض الأوروبيين بعضهم البعض واشارات الوثائق الى صور الاعتداءات الأخلاقية للفرنسيين والأوروبيين مثل ممارستهم الدعارة وغير ذلك من المخالفات (١٣٠) .

ــ ومن المتاعب التى أشار اليها القناصل فى تقاريرهم هو تعود بعض الفرنسيين على حياة الكسل فقدم بينون فى عام ١٧٣٠م تقريرا حوى شكوى ضد المترجم الفرنسى شابان لأنه لا يعمل بجد (١٣١) ويعمل على اضاعة الوقت « فهو شخص لا قيمة له ولا يريد أن يفعل شيئا » .

ــ اضف الى ذلك منازعات الفرنسيين أنفسهم وبينهم وبين الأوروبيين أيضا ، فنجد منازعات ومنافسات لا تنتهي بين البعثات التنصيرية خاصة الكابوسينية واليسوعية وبين آباء الأراضي المقدسة واختلاف هذه البعثات حول مراسم الدفن والزواج وآداء الشعائر الدينية ، كذلك التنافس فيما بينهم على جذب الأقباط المصريين لتحويل مذهبهم الأرثوذكسى الى المذهب الكاثوليكي (١٣٢) .

ــ لعل من أكبر المصاعب التى تعرضت لها الجالية الفرنسية بالفعل هي عند نشوب الحروب الأهلية والاضطرابات

---

(١٣٠) انظر صلاح هريدى : الجاليات الأوروبية فى الاسكندرية فى العصر العثمانى الاسكندرية ١٩٨٩ ، ص ٧١ ، ٧٥ .

(١٣١) Hanotaux : Op. Cit., P. 170.

(١٣٢) Clement : Op. Cit., P. 178.

بين المماليك فى القاهرة فكان أعضاء الجالية يضطرون للبقاء فى الحى ويمتنعون عن التجول فى الشوارع وقد عبر عن ذلك فولنى فكتب « أن اسكالة القاهرة أقل اسكالات الشرق استقرارا واكثرها استنفارا » (١٢٣) .

— عانى التجار الفرنسيون من منافسة اليهود لهم خاصة وان البعض منهم كانت له صلاته القوية بيهود ليفورن كذلك تحكموا فى الجمارك . فقدم القنصل الفرنسي ميليه شكوى ضد المسئول عن الجمرك فى الاسكندرية وكان يدعى زافير وذلك لأنه فرض العديد من الغرامات على التجار الفرنسيين وتم استدعاؤه فى الديوان ووجه اليه الباشات الاتهامات وتم ترحيله الى الاستانة حيث أعدم .

ويبدو أن زافير ادرك مصيره فأخبر الفرنسيين قبل رحيله « انه يود رؤية رأس ميليه معلقة كذلك رؤوس الفرنسيين ورأس ملك فرنسا » (١٢٤) .

— تزايدت الغرامات والاتاوات المفروضة على الفرنسيين كذلك القروض الاجبارية والهدايا وقد اضطر الفرنسيون الى الاستجابة للسلطات المحلية خوفا على تجارتهم وقد شكا القنصل الفرنسى جوانفيل من انه بنى بابا للحى الفرنسى فقامت قوات حسن بك بمداهمة الحى وأمر على بك بنزعه ولكن بعد تولى القنصل داميرا أغدق الهدايا على على بك ليسمح له باعادة وضع الباب للحى فأهدى على بك ساعة مزينة بالماس قيمتها ٣٥٠ سكينى ، وحسن تقارير القناصل كانت الهدايا تقدم سنويا

---

(١٢٣) فولنى : المرجع السابق ، ص ١٤٩ .

(١٢٤) Maillet : Op. Cit., P. 57.

أعلى بك وغيره من أصحاب القوى والنفوذ فعندما عاد من مكة بلغ مجموع ما قدمه الفرنسيون له من الهدايا أربعة آلاف أبو طاقة وأثناء حروبه فى بلاد الشام قدم له الفرنسيون عشرة آلاف قرش ثم استدان بعد ذلك بعدة أشهر خمسة وعشرين ألف أبو طاقة (١٢٥) .

أما فى عهد محمد أبى الذهب فقد أفاض القناصل فى وصف مطالبة من الفرنسيين كان أغربها طلبه مركبة تجرها الخيول فوقع القنصل فى حيرة لأنها مكلفة وفى الوقت نفسه خشى من انتقام أبى الذهب من التجار الفرنسيين فتعددت المراسلات والتقارير بين القنصل الفرنسى وغرفة تجارة مارسيليا والحكومة الفرنسية واضطر القنصل الفرنسى داميرا الى التأكيد فى تقاريره على غرفة التجارة على شكل المركبة وحجمها ونوعية الخيول التى تجرها وكيفية تزيينها وارسل داميرا تعليماته لابد أن تكون العربة مزودة بأربعة مقاعد مزينة مسموح برسم الورود والفواكه ويحظر رسم الوجوه أو الشخصيات ولابد الا يقل ثمنها عن أربعة آلاف جنيه وأن تكون المركبة فاخرة ولكن اذا رات غرفة تجارة مارسيليا أن تشترى عربة قديمة فعليها أن تقوم بتجديدها واعادة تجهيزها واعادة دهانها حتى تبدو كالجديدة .

ـــ كذلك كتب داميرا عن نوعية الخيول التى ستجر المركبة فلابد ان تكون من اصل دانمركى أو المانى كبير الحجم « فكما تعلمون مصر هى بلد الخيول العريقة » (١٢٦) .

(١٢٥) Clement : Op. Cit., PP. 213 — 214.

(١٢٦) قدم المؤرخ الفرنسى مقالا عن مركبة ابى الذهب ، انظر Douin : Le Carosse De Mohamed Bey--Bulletin de L'institut d'Egypte tome 8 Session 1925 — 1926. Le Caire 1926 PP. 170 — 184.

وقد دارت المراسلات بين غرفة تجارة مارسيليا وقصر فارساى بشأن شراء هذه العربة واستقر الرأى على شرائها خوفا على تجارة الفرنسيين ، وفى عام ١٧٧٤ م شكل وزير البحرية دى بوين De Boynes لجنة لشراء المركبة التى تجرها الخيول الأربعة وكتب الوزير الفرنسى سان دينديه الى غرفة تجارة مارسيليا فى مايو ١٧٧٤ م « من الصعب علينا عدم الاستجابة لمطالب ابى الذهب دون أن نخشى عواقب ذلك ، فمن الأفضل أن نضحى ونعمل على اتمام المشروع وقرر الملك الموافقة على شراء العربة » .

وقامت اللجنة المشكلة بالتجول فى مدن فرنسا خاصة باريس وافيثيون لشراء المركبة وحرص أعضاء اللجنة على التدقيق عند اختيارهم الخيول واكدوا على ضرورة معرفة سلالاتها وبينما الأمور تجرى على قدم وساق فى فرنسا كان التجار الفرنسيون فى القاهرة يشعرون بالقلق فقد مضت ستة اشهر ولم يتم ارسال المركبة فكتبوا الى الحكومة يحثونها على سرعة ارسال المركبة .

وقد تم ارسال المركبة محمولة على ظهور بغال أستوردت خصيصا من مالطة ولكن لم يقدر لأبى الذهب أن ينعم بها فقد وافته المنية عند وصولها الى ميناء الاسكندرية فأصبحت من نصيب ابراهيم بك وكتب القنصل مور متحسرا عام ١٧٧٥ م « لقد آلت المركبة الى ابراهيم بك (١٣٧) وبعد وفاة أبى الذهب أستمر مراد بك وابراهيم بك فى فرض الغرامات على التجار الفرنسيين رغم توطد العلاقة بين ماجالون التاجر الفرنسى وزوجته

---

(١٣٧) Ibid, : P. 184.

بالمماليك وقد أفاد ماجالون من هذه العلاقة لتوطيد النفوذ الفرنسي في البلاد ولعب دور الوساطة بين المماليك والتجار الفرنسيين فقد حدث في عام ١٧٧٥ م أن قدم التجار ساعة هدية الى مراد بك ويبدو انه لم يعجب بها فرماها على رأس المترجم الفرنسي ولكن مدام ماجالون اسرعت بمعالجة الموقف وكتب القنصل الفرنسي الى غرفة تجارة مارسيليا في ١٦ اكتوبر عام ١٧٧٥ م « لقد عالجت مدام ماجالون الموقف لأن لها نفوذا مطلقا على زوجة مراد » وفي اليوم التالي عاد المترجم وقدم لمراد بك هدية أخرى باهظة الثمن مكونة من دبوس مزين بالماس ومسبحة من اللؤلؤ (١٣٨) .

وجدير بالذكر أن القناصل اعتادوا ذكر الهدايا المقدمة الى البكوات وكبار الشخصيات في تقاريرهم السنوية ففي عام ١٧٧٦ م كتب القنصل الفرنسي الى غرفة تجارة مارسيليا « قدمنا هذا العام لابراهيم بك عدة ساعات وخنجرا مزينا بالماس ثمنه عشرة آلاف أبو طاقة » وفي عام ١٧٧٧ م كتب مور « بلغت قيمة الهدايا المقدمة الى ابراهيم بك هذا العام ٣٣٣٤ أبو طاقة » (١٣٩) .

وقد ساء أوليفيه أن يقدم التجار الفرنسيون هذه الهدايا الثمينة الى المماليك فكتب « لقد ساءت العلاقة بين المماليك والتجار الفرنسيين » رغم محاولات القناصل التقريب بين الطرفين لقد قدم التجار الفرنسيون « التضحيات » من الأموال والهدايا للحصول على الأمن والحماية ولكن رغم ذلك لم يتوقف المماليك عن فرض الغرامات وطلب المزيد من الهدايا (١٤٠) .

---

(١٣٨) Clement : Op. Cit., P. 229.
(١٣٩) Ibid, : P. 229.
(١٤٠) Olivier : Op. Cit., PP. 200 — 201.

وعندما جاءت حملة حسن باشا الى مصر عام ١٧٨٦ م أعتقد الفرنسيون انهم سيحصلون على الحماية من الباب العالى فأسرعوا بتقديم الهدايا الثمينة الى قائد الحملة كما ذكر أوليفيه ولكن حسن باشا لجأ بدوره الى فرض الغرامات على الفرنسيين فأصيبوا بخيبة الأمل (١٤١) .

ولكن سرعان ما انتعش الأمل فى نفوس التجار الفرنسيين بعد تعاظم نفوذ اسماعيل بك وفرار مراد وابراهيم بك فعملوا على تقوية صلاتهم به فطلب اسماعيل بك من وزير البحرية دى اوزرن امداده ببعض الصناع الفرنسيين وضباط من المدفعية لتعليم قواته ، واراد اسماعيل بك تقديم بعض الهدايا الى لويس السادس عشر فعرض على ماجالون ارسال بعض الخيول ، ولكن وزير البحرية تجنب الاتصال المباشر مع اسماعيل بك خوفا من اغضاب الباب العالى وظل أسماعيل بك يقدم تعهداته لماجالون بحماية الفرنسيين وقد كتب عنه ماجالون معجبا « أن بكوات القاهرة ليسوا وحوشا يعيشون فى الغابات فاسماعيل بك يعرف اسماء ملوك اوروبا ولديه فكرة عن قوتهم وهو على استعداد للتحالف مع فرنسا » (١٤٢) .

لم يقدر للفرنسيين أن ينعموا بحماية اسماعيل بك طويلا فسرعان ما نشبت الثورة الفرنسية وقامت الاضطرابات بين أفراد الجالية الفرنسية انفسهم فقد اختلفت آراؤهم حول الثورة ما بين مؤيد ومعارض وزاد من تفاقم الموقف بالنسبة لهم انتهاز القنصل الايطالى روزيتى الفرصة للدس بين الفرنسيين والمماليك فقد ذكر لمراد بك « لقد أصبح الفرنسيون بلا قوة منذ قيام ثورتهم

---

(١٤١) Ibid, : P. 202.

(١٤٢) Roux : Op. Cit., PP. 223 — 226.

فهم بلا حكومة وبالتالى هم بلا حماية من قبل الباب العالى وقد رصد أوليفيه تحركات روزيتي وكتب عن دوره الخطير من أجل استبعاد التجار الفرنسيين من البلاد » (١٤٣) .

وعندما علمت حكومة الثورة الفرنسية بسوء أحوال التجار الفرنسيين عينت ماجالون قنصلا فى القاهرة عام ١٧٩٣ م وكانت مهمته الاتصال بالبكوات وتقوية العلاقات معهم ولكن رغم مكانة ماجالون وزوجته لدى مراد بك وابراهيم بك الا أن هذا لم يمنعهما من فرض الغرامات على التجار الفرنسيين من جديد فقد طلب مراد بك مبلغ ١٢ ألف قرش وذلك بسبب سفر قافلة الحج الى مكة ونظرا لتزايد الغرامات على التجار الفرنسيين فكر البعض منهم فى السفر الى الآستانة وتقديم الشكاوى ضد مراد ولكن مراد ألقى القبض عليهم وتعرضوا للاهانة وأصدر مراد أمرا بمنع سفر الفرنسيين وضرورة دفع غرامة ١٣ الف قرش (١٤٤) .

وقد أدت هذه الغرامات كما ذكر اوليفيه الى افلاس العديد من التجار وفى عام ١٧٩٤ م طلب ابراهيم بك من التجار الفرنسيين تجديد ملابس البكوات واهدائهم أقمشة من الجوخ وقد اضطر التجار الى هجر اسكالة القاهرة والانتقال الى الاسكندرية تفاديا لهذه المغارم (١٤٥) .

وفى نوفمبر عام ١٧٩٤ م ارسل ماجالون تقريرا الى لجنة العلاقات الخارجية طالبا نجدة المواطنين الفرنسين لأن « الحالة

---

(١٤٣) Olivier : Op. Cit., P. 203.

(١٤٤) Ibid, : P. 207.

(١٤٥) Ibid, : P. 208.

سيئة للغاية » كذلك أرسل فى ٨ أكتوبر ١٧٩٤ م الى ديكورش السفير الفرنسي فى الاستانة يستنجد من أجل حماية الفرنسيين وفى ١٢ فبراير ١٧٩٥ م طلب ماجالون النجدة من الباب العالى « لاستخدام نفوذه السياسى والدينى لانقاذ الفرنسيين » (١٤٦) .

ورغم كتابات وتقارير ماجالون ضد مراد بك وابراهيم بك الا انه كان يتقرب منهم فى الوقت نفسه مدعيا « ان فرنسا هى الصديق الوحيد للمسلمين » كذلك عمل على احباط محاولات قنصل النمسا للتقرب من المماليك (١٤٧) .

وقد اضطرت الحكومة الفرنسية بسبب كتابات ماجالون الى ارسال لجنة لتقصى أوضاع التجار الفرنسيين فوصل تانفيل Thäinville الى الاسكندرية عام ١٧٩٦ م وزار القاهرة ورشيد وقابل ابراهيم بك ومراد بك وحاول تانفيل تمجيد بلاده أمام المماليك مذكرا اياهم بأمجاد فرنسا وهيبتها وعظمتها ولكن ابراهيم بك رد عليه بذكاء« يبدو لى منذ خلع ملك فرنسا وكل فرد فى بلادكم أصبح له حق القيادة والحكم » ثم تقابل تانفيل مع مراد بك طالبا منه تخفيف الغرامات على التجار الفرنسيين فصاح مراد « انكم تهددونى وليكن فى علمكم اننى لا أخشى شيئا » واضطرت بعثة تانفيل الى الرحيل بعد اربعة اشهر ولم تحصل من المماليك سوى على وعود زائفة بحماية التجار الفرنسيين (١٤٨) .

والواقع ان الغرامات التى تعرض لها الفرنسيون فى اسكالة مصر تعرضوا لها ايضا فى اسكالة الشام فقد كان الباشا يفرض

(١٤٦) Roux : Op. Cit., PP. 265 — 268.

(١٤٧) Ibid, : P. 270.

(١٤٨) Ibid, : PP. 285 — 288.

الغرامات على التجار ويلزمهم بدفعها متعللا بحجج واهية وقام القناصل الفرنسيون بنفس دور زملائهم فى مصر فكانوا يجمعون الأموال من فرنسا لسد طلبات الباشا (١٤٩) .

وأخيرا يكفى أن ندلل على خطورة الغرامات التى فرضها المماليك على الفرنسيين من ان حكومة الادارة اتخذت من هذه الغرامات ذريعة لمجيء الحملة الفرنسية على مصر وهو ما ذكره العالم الفرنسى جيرار المصاحب للحملة (١٥٠) .

ويتضح مما سبق أهتمام الرحالة الفرنسيين بوصف أحوال الجالية الفرنسية وأدق تفاصيل حياتهم اليومية . ولم يكتف القناصل والرحالة بتقديم وصف عن الجالية الفرنسية فحسب وانما اهتموا بتدوين ملاحظاتهم عن باقى الجاليات خاصة الأرمن واليونانيين وقد ذكر ميليه تواجد أعداد من اليونانيين فى دمياط ورشيد والقاهرة والأسكندرية (١٥١) .

اما عن الأرمن فقد وصفهم ديجون بأنهم اقتصاديون يعملون فى صناعة المصوغات وحياكة الملابس والبناء وهم وسطاء بين التجار الفرنسيين ولكن لم يكن لهم دور بارز فى التجارة مثل الشوام الكاثوليك او اليهود ، وقد تركزت محلاتهم فى الصاغة والموسكى ولهم كنيسة قريبة من القنطرة الجديدة (١٥٢) .

---

(١٤٩) ليلى الصباغ : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٣٦٢ .

(١٥٠) انظر وصف مصر ، جـ ٤ ، ص ٣١٥ ، جيرار : الحياة الاقتصادية فى مصر فى القرن ١٨ .

(١٥١) Maillet : Op. Cit., P. 92.

(١٥٢) Raymond : Op. Cit., P. 500.

وكتب ميليه عن بعض احتفالات وعادات الأرمن خاصة عند الزواج فسجل متعجبا من ان « العريس يمكث خمسة أيام لا يرى عروسه ثم يسمح له برؤيتها والعروس لا تتحدث معه الا بالاشارات أو بصوت منخفض واذا حدثها شخص فانها تحييه بهز رأسها » (١٥٣) .

كذلك تحدث الرحالة الفرنسيون عن الشوام الكاثوليك الذين وفدوا على مصر فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، واستطاعوا ممارسة نشاطهم التجارى بحرية تامة وقد استقروا فى خان الحمزاوى ودرب الجماميز والجمالية وتاجروا فى الصابون والطباق وقد تزايدت أعدادهم بدرجة ملحوظة منذ منتصف القرن الثامن عشر وقد تولوا أمر الجمارك بدلا من اليهود ولكن التجار الفرنسيين قدموا الشكاوى ضدهم الى غرفة تجارة مارسيليا فى عام ١٧٥٧ م « انهم يكيدون لنا وسوف يتسببون فى ضياع تجارة ليفورن مع مصر » وقد تركز الشوام فى دمياط وقد شعر القنصل داميرا بالضيق من استفحال نفوذ الشوام فى مصر فكتب فى عام ١٧٧٣ م « لقد أصبحوا بمثابة وزراء الحكومة » وكتب القنصل مور فى عام ١٧٨١ م عن وضع السوريين الكاثوليك « منذ عشر سنوات والجمارك كلها فى يد السوريين الكاثوليك الذين استقروا فى هذا البلد » (١٥٤) ، أما فولنى فقد وصفهم « ان الأسر الشامية فى مصر أسوء أنواع البشر ، ان اخلاقهم لا ترتفع الى اخلاق المسلمين » (١٥٥) .

---

(١٥٣) Maillet : Op. Cit., P. 84

(١٥٤) Raymond : Op. Cit., PP. 487 — 488.

(١٥٥) فولنى : المرجع السابق ، ص ١٥٠ .

كذلك استقرت جماعةمن المــارون الشوام فى مصر وكانت لهم علاقاتهم التجارية مع تجار مارسيليا وليفورن واسسوا فى عام ١٧٣٤ م شركة للتجــارة مع ايطــاليا ، فقد شعر التجــار الفرنسيون والقنصـــل الفرنسى بالقلق من تزايد نفوذ المــارون خشية احتكارهم للتجارة فكتب القنصل الفرنسى فى عام ١٧٥٢ م « ان تجارة الفرنسيين تتجه نحو الدمار بسبب توافد المسيحيين القادمين من حلب فهم يكيدون للتجار » (١٥٦) .

---

(١٥٦) Raymond : Op. Cit., PP. 484 — 486.

ثانيا ــ الاحتفالات والأعياد

حرص الرحالة على تسجيل الاحتفالات والأعياد التى شاهدوها فى مصر فسجلوا احتفالات قدوم الباشا الجديد وجاء ما ذكروه مطابقا الى حد كبير لما ذكره الأمير أحمد الدمرداش فى كتابه « الدرة المصانة » ولنقرأ ما سجله سافارى عن الاحتفال بمجىء باشا جديد « يتم استقبال الباشا وسط مظاهر من الحفاوة وفى موكب ضخم فاذا كان الباشا قادما من البحر أى من بلاد الشام يتم استقباله فى الاسكندرية بواسطة كبار الشخصيات ويقام له معسكر كبير وتنصب الخيام الزاهية الألوان وتفرش أرضيتها بالسجاجيد الثمينة ويقيم أثرياء المماليك المآدب والولائم ثم يركب الباشا سفينة ضخمة تتبعه السفن والمراكب المزينة حتى يصل الى قصر الحلى فى بولاق حيث يكون فى استقباله الأغوات والسناجق ويسلمه أغا الانكشارية مفاتيح القلعة ويسير الباشا فى موكب كبير حوله الجنود على الجانبين بينما ترتفع أصوات الموسيقى والفرسان يحملون أسلحتهم مرتدين أجمل الملابس على ظهور الخيول العربية الأصيلة » .

وفى اليوم التالى يجتمع الباشا فى الديوان بالقلعة حيث يقوم باهداء شيخ البلد قفطانا وجوادا ثم يهدى البكوات ايضا مجموعة من القفاطين (١٥٧) .

ولم تقتصر ملاحظات الفرنسيين على احتفالات تولية باشا جديد لمصروانما ذكروا أيضا كيفية عزله فذكر سافاري « يحضر مندوب عن السلطان يرتدى ملابس سوداء ويقوم بالاجتماع مع البكوات فى ديوان القلعة ثم يرمي الأوراق في ركن الديوان ويطوى طرف السجادة ويقول انزل يا باشا وعلى الباشا جمع متعلقاته فورا ومغادرة البلاد في خلال ٢٤ ساعة ، واذا كان لدى البكوات شكوى من الباشا فانهم يحاسبونه حسابا عسيرا ويستردون الأموال التي حصل عليها أثناء ولايته (١٥٨) .

والواقع أن الجبرتى كتب عن عزل الباشا فذكر : أن الأوده باشا كان هو الذى يبلغ الباشا بالعزل عندما يقرر البكوات أو الكخيا عزله وسمي أبو طبق لشكل العمامة التى كان يضعها على رأسه وكانت من الجوخ الأسود وبعد مقابلة الباشا يقلب يقلب طرف السجادة ويقول انزل يا باشا » (١٥٩) . وقد تفاوتت مراسم استقبال الباشا الجديد من حيث الفخامة والبساطة فبعض الباشوات دخلوا مصر فى موكب متواضع فذكر ميليه ان « رامي محمد باشا دخل مصر في موكب بسيط » أما القنصل جوانفيل فقد افاض في وصف موكب محمد باشا عام ١٧٣٠ م من حيث الفخامة (١٦٠) . وقد حضر لوكا موكب قدوم الباشا

(١٥٧) Savary : Op. Cit., + 2 PP. 201 — 205.

(١٥٨) Ibid, : P. 206.

(١٥٩) جلال يحيى : المرجع السابق ، ص ١٤٦ .

(١٦٠) Hanotaux : Op. Cit., P. 20.

حيث خرج الناس لاستقباله حاملين المشاعل (١٦١) . وسجل دانتريج موكب اسماعيل باشا حيث اقيمت الخيام وفرشت بالسجاجيد الفارسية وأقيم لاسماعيل باشا معسكر فخم ورائع (١٦٢) .

ومن أجمل الاحتفالات التى حرص الرحالة على تسجيلها هو الاحتفال بسفر المحمل الى الأراضى المقدسة وأفاضوا مثل من سبقوهم من الرحالة فى وصف القوافل المتجهة الى الحجاز وطريقة تزيينها وحراستها ولابد من حضور الباشا عند خروج المحمل من القلعة بقيادة أمير الحج يصحبه عدد من الانكشارية والعزب ، كذلك أفاض الرحالة فى وصف الاحتفالات التى تقام عند عودة القافلة من الحج حيث يتم تزيين منازل الحجاج وتقام الولائم احتفالا بهذه المناسبة (١٦٣) .

ومن الاحتفالات الهامة أيضا الاحتفال بسفر الخزنة الى الاستانة ففى يوم الاحتفال ينزل الباشا من القلعة ويسير مع القافلة المتجهة الى الاستانة وهى تحمل أموال الخزنة ويسير المركب فى نظام تام على دقات الطبول مصحوبا بآلاف من الجنود والانكشارية لحراسته (١٦٤) .

أما الاحتفال بفتح الخليج فكان من أهم الاحتفالات وقد ارتبط بفيضان النيل ويحضره الباشا حيث يسير فى موكب مع كبار الشخصيات ويضرب الباشا بالفأس جدار الخليج فتتدفق

---

(١٦١) Lucas : Op. Cit., + 1 P. 81.

(١٦٢) Amiaut : Op. Cit., P. 304.

(١٦٣) انظر الهام ذهنى : المرجع السابق ، ص ٨٨ .

(١٦٤) المرجع السابق ، ص ٩١ .

الميـاه من القناة ويستمر الاحتفال سبعة أيام وتقام الاحتفالات فى الروضـة ويزين السكان منازلهم ويقذفون بقطع من النقود والزهور فى النيل ويستحم الرجال عرايا ويتقاذفون بمياه النيل « وكأنهم يقبلونه » ويحرض المماليك على حضـور هذا الاحتفال ويقيمون المعسـكرات لاستقبال الزوار ولا يقتصر الاحتفـال بفتح الخليج على منطقة الروضة وانما تزين باقى مناطق مصر خاصة الأزبكية ومصر القديمة حيث تزين المنازل بالمصـابيح وقد كتب لوكا ملاحظـة طريفة بان « المصريين يحتفلون بفتح الخليج تعبيرا عن حبهم للنيل لأنه أنقذهم وانقذ بلادهم » (١٦٥) .

وتكثر فى مصر بصفة عامة الاحتفالات الدينية وقد كتب لوكا « لا يوجد فى العالم بلد يستمر فيه الرقص والغناء طوال الليـل مثـل مصر (١٦٦) ، فلا يمر يوم لا نرى فيه احتفـالات فالمصريون مغرمون بها وهى تتركز فى المدن أكثر من الريف »(١٦٧) .

ومن الاحتفالات الدينية الهامة الاحتفال بعيد الفطر وعيد الأضحى وليلة القدر وقد حرص الفرنسيون على مشـاهدة هذه الاحتفالات ويعتبر مولد الرسول الكريم من أهم الاحتفـالات فى القاهرة حيث تضـاء المدينة كلها بالمشاعل والأنوار ويستمر الاحتفال بالمولد النبوى طوال الليل وتزدحم الشوارع بالناس وقد ذكر لوكا انه عند الاحتفال بالمولد النبوى لابد من زيارة منزل أحد الأشراف فى الأزبكية وكان مضـاء بالمشاعل وأقيمت الاحتفالات امام منزله واستمرت حتى الصباح كما زاره فى هـذا اليوم كبار الشخصيات (١٦٨) .

---

(١٦٥) Lucas : Op. Cit., + 1 PP. 76 — 78.

(١٦٦) Ibid, : + 3 P. 234.

(١٦٧) Maillet : Op. Cit., P. 106.

(١٦٨) Lucas : Op. Cit., + 1 P. 75.

ويميل المصريون الى الاحتفال بموالد كبار المشايخ (١٦٩) وقد حضر سافارى أحد هـذه الموالد فى رشـيد فشاهد مولد سيدى ابراهيم حيث سار الناس فى موكب كبير يتقدمهم علماء الدين ، وفى المسـاء اقيمت الاحتفـالات وحضر أعـداد من الحواة قاموا بوضـع الثعابين حول أعناقهم وأجسـادهم ورأى سافارى بعض الحواة ينزعون بأسنانهم جلود الثعابين وهى حية بينما تنسكب الدماء من أفواههم « وكأن بين الطرفين معركة لابد من خروج احدهما منتصرا » (١٧٠) .

ولا تقتصر احتفالات المصريين على المناسبات الدينية فهناك بعض الاحتفالات القديمة العريقة حرصت الأجيال على توارثها مثل الاحتفال بيوم شم النسيم حيث يأكل فيه كل الناس البصل والسمك المملح والخضراوات وقد اثنى ميليه على الفسيخ المصنوع فى دمياط والبحر الأحمر فهو من أجمل الأنواع وقد تخصصت هذه المناطق فى صناعته (١٧١) .

احتفالات الزواج :

أما احتفالات الزواج فقد اهتم ميليه بالحديث عنها مؤكدا اختلاف عادات الزواج فى مصر عن أوروبا ففى أوروبا لابد وان تتحقق ثلاثة أمور قبـل الزواج الأمر الأول التعارف والثـانى الارتباط الدائم وعدم الطـلاق والثالث المساواة فى المصـالح ، هـذه الأمور الثلاثة غير متوفرة فى مصر ، فلا يسمح للفتـاة بالتعرف على زوجها قبل الزواج ، كذلك لا يوجد ارتباط دائم

---

(١٦٩) Ibid + 3 P. 236.
(١٧٠) Savary : Op. Cit., + 1 PP. 62 — 63.
(١٧١) Maillet : Op. Cit., P. 110.

بين الزوجين اذ يمكنهما الانفصال ، ولا يوجد تفاهم أيضا بينهما فالعرب لا يتزوجون الا من نفس قبيلتهم حتى من يستقر منهم فى الريف لا يصاهر أبناء الفلاحين ويميل الآباء خاصة فى المدن الى تزويج بناتهن من أشخاص أقل فى المرتبة لكى يشعر الزوج دائما بأنه فى مستوى صهره ولذلك يختار الأب أحد المماليك للزواج من ابنته وبذلك يضمن سيطرة الابنة على زوجها وأحيانا يزوج الرجل زوجته لأحد مماليكه بعد طلاقها وكثيرا ما تزوجت النساء بمملوك زوجها بعد وفاته ، وقد وجد ميليه أن السيدة هى المستفيدة الأولى من هذا الوضع فأحيانا يكون زوجها مسنا وتكون فى ريعان الشباب فتسعد بالزواج من المملوك الشاب بدلا من زوجها الكهل (١٧٢) .

ويسمح للمسلم بالزواج من أربع زوجات كما يسمح له أيضا بفراق زوجته وطلاقها ولكنه اذا أقسم ثلاث مرات على الطلاق فلابد من مفارقة زوجته نهائيا ولا تعود لمعاشرته الا اذا تزوجت مرة ثانية (١٧٣) .

وكان من الطبيعى الا يفهم الرحالة معنى كلمة المهر فذكر ميليه أن الرجل يدفع مبلغا من المال لشراء زوجته ، كذلك يشترى لها بعض الهدايا من الأساور وهى فى نظر ميليه دليل العبودية فهى قيود من الذهب والفضة (١٧٤) .

وتقام الاحتفالات بالزواج ولابد أن تقوم العروس بتلوين وتخضيب أقدامها بالحناء وتذهب الى الحمام أربعة أيام متتالية فى موكب رائع ينشد فيه المغنون الأغانى وفى الزفاف يقام حفل

---

(١٧٢) Ibid, : P. 81.

(١٧٣) Savary : Op. Cit., + 3 P. 45.

(١٧٤) Maillet Op. Cit., P. 87.

كبير يتجمع فيه الرجال فى بهو كبير يقضــون الليل فى شرب القهوة والاستمتاع بالغنــاء ورقص العوالم اللاتى لا يعــدلهن أحد فى الرقص ويعزفن بالطنبور وتغنى العالمــة للعروس كلمات تعبر فيها عن جمال العروس وعفتها وحسنها ولا تختلف مراسم الاحتفال بالزواج بين المسلم والمسيحى (١٧٥) .

وقد ذكر بعض الرحالة بعض العادات المتعلقة بالزواج بين الأقباط فى مصر فأكد ميليه انه فى يوم الزواج لا تنام العروس فى فراش زوجها وانما فى اليوم التالى يحضر القس ومعه قطعة من زنار من حرير يمررها على رقبة العريس راسما شكل صليب ويكون ذلك ايذانا له بممارسة حقه كزوج (١٧٦) .

كذلك ذكر ميليه بعض احتفالات الزواج لدى بعض الجاليات الأجنبية خاصــة الأرمن فلديهم تقليد غريب اذ يمكث العريس خمسة أيام لا يرى العروس وفى يوم الزفــاف يقام حفل كبير فى كنيسة الخــان ليلا حيث يضــع الأشبين القمــاش على ايدى العروسين ويتم لبس خاتم الزواج فى اصبع كل منهما ، ولكن لابد من تغير الخاتم ووضعه فى كل أصبع على حدة ثم يســير العروسان حتى يصلا أمام مقعد القس فيجرى مراسم الزفاف واضعا اكليلا من الورد على رأس العروسين وفوقه قطعــة من القماش توضع بالتبادل على رأس العروسين ثم يحضر القس قدحا من النبيذ يغمس فيه قطعا من الخبز يأكل منه العروسان والأشبين ويشربون النبيذ ثم يقذفون بالقدح نحو الحــائط ثم يسير القس وبصحبته العروسان حول المقاعد فى الكنيســة ثم ينزع الأكليل وتقام الصلوات (١٧٧) .

---

(١٧٥) Savary : Op. Cit., + 3 PP. 45 — 51.

(١٧٦) Maillet : Op. Cit., P. 84.

(١٧٧) Ibid, : P. 85.

احتفالات الختان :

الختان ضرورى فى مصر وهو يتم للذكور فور الولادة وأحيانا عندما يبلغ الطفل اثنى عشر عاما (١٧٨) وهو عملية ضرورية يشترك فيها المسلمون والأقباط على حد سواء (١٧٩) ، أما العالم سونينى فقد علل أهمية الختان فى مصر « من أجل حرارة الطقس بين شعب قليل الاعتناء بنظافته » ثم انفرد سونينى عن غيره من الرحالة بالحديث عن ختان البنات فى مصر وكتب ان أحدا لم يتحدث عن ختان الفتيات فى مصر وانما اهتم الجميع بالحديث عن ختان الذكور فقط وأكد سونينى ان ختان الفتيات معروف فى الشرق ؛ أما فى مصر فان نساء الصعيد متمرنات فى هذه المهنة فهن يطفن الشوارع وينادين على مهنتهن ويوجد أيضا فى مصر بعض النساء الحبشيات يقمن بهذه المهنة أو العملية وقد حرص سونينى على مشاهدة ووصف ختان احدى الفتيات (١٨٠) .

هذا ولم يقتصر وصف الرحالة على احتفالات المصريين من زواج وختان الخ ، وانما وصفوا أيضا اجراءات دفن الموتى ، فذكر ميليه ان المصريين اعتادوا قديما تحنيط موتاهم ولكنهم أقلعوا عن هذه العادة الآن (١٨١) ، ويتم لف جسم الميت بالقماش ثلاث مرات ويعطر الكفن بالزهور والروائح الجميلة ويكون الكفن عادة مصنوعا من القطن (١٨٢) .

وفى مصر نساء مهنتهن الرئيسية البكاء على الميت وينتشرن

---

(١٧٨) Fourmont : Op. Cit., P. 88.

(١٧٩) Maillet : Op. Cit., P. 73.

(١٨٠) Sonnini : Op. Cit., + 2 PP. 35 — 39.

(١٨١) Maillet : Op. Cit., P. 89.

(١٨٢) Lucas : Op. Cit., + 1 P. 125.

فى جرجا وفى وجه قبلى بصفة عامة وهن يصبغن وجوههن بالنيلة ويضربن صدورهن ويمسكن بالمناديل السوداء فى أيديهن ويستمر صراخهن حتى انتهاء اجراءات الدفن (١٨٣) .

وعند وفاة المسلم توضع رأسه فى اتجاه الكعبة ، أما المسيحى فتوضع رأسه تجاه الشرق والنساء فى مصر مجبورات على البكاء على أزواجهن ولابد من زيارة المدافن ثلاث مرات أسبوعيا (١٨٤) ، وقبل دفن الميت لابد من احضار الشيوخ لقراءة القرآن فى المنزل ويتجمع الناس حول جسد الميت ثم يدفن خارج المدينة ويستمر البكاء أسبوعا (١٨٥) .

وفى القاهرة توجد « قرافة » المقطم التى دفن فيها الطبيب الشافعى وصفها المقريزى على حد قول فورمون بأنها مدينة الأموات (١٨٦) .

والى جانب مواكب الاحتفالات والأعياد وصف الرحالة مواكب التشهير بالمجرمين حيث يتم وضع المجرم على الجمل ويطاف به فى شوارع المدينة وقد شاهد لوكا تنفيذ عقوبة الاعدام فى اثنين من الأعراب فكتب ، تم وضعهما على ظهور الجمال ، وعلق فى رقبتيهما قطعة الخشب على شكل صليبى معلق بها عدد كبير من الشموع لكى تنزل على جلودهم فتحرقها وقد تم اقتيادهم فى أحياء القاهرة حتى وصلوا ميدان الرميلة وهو الميدان المخصص للاعدام فتم طرحهما أرضا ونزع الجلد من على

---

(١٨٣) Ibid, : P. 125.

(١٨٤) Fourmont : Op. Cit., P. 115.

(١٨٥) Lucas : Op. Cit., + 1 P. 125.

(١٨٦) Fourmont : Op. Cit., P. 112.

ظهريهما وبطنيهما فمات الأول من النزيف، أماالثـــانى فقد نهض وسار عدة خطوات ثم مات .

كذلك شاهد لوكـــا عقوبة الاعدام على الخازوق وذكر انه شاهد الشخص الذى وضـــع على الخازوق حيا لمدة تسع ساعات وبالغ لوكـــا فى الأمر واكد أنه ظل يشرب القهوة حتى مات (١٨٧) .

وقد وصف الرحالة الاحتفالات التى تقام عند ختان الطفل وحضر القنصل ميليه عـــام ١٦٩٦ م حفل ختـــان ابراهيم بك ابن اســـماعيل بك وكان عمره خمسة عشر عاما فوصـــفـ حفل الختان بانه كان رائعا حضره مندبو الاقاليم واستمر عشرة ايام وأجريت خـــلاله مسابقـــات للخيـــل والحيوانات وتم احضـــار الراقصين من دمشق وحضر الحفل البكوات ورجـــال الأوأجق وتم فيه كسوة العبيد ، وارتدى ابراهيم بك كسوة من القماش البندقى المطعم بالذهب وغطـــاء الرأس به ورود وبدل الصبى ملابسه أربع مرات ودفع الباشا غرامات المحبوسين وافرج عن المسجونين وتم ختان عدد كبير من العبيد فى هـــذا الحفل ويبدو ان هذا الحفل كان عظيما فقد احصى ميليه عدد المصـــابيح التى تم انارتها فوجد انها تزيد عن الف مصباح (١٨٨) .

ويحرص المصريون فى أعيادهم واحتفالاتهم على تقديم الطعام واقامة الولائم ، ومن عاداتهم فرش الموائد على الأرض على مفرش من الجـــلد الأحمر وهم يأكلون كل أنواع الطعـــام وكل انـــواع اللحوم خاصة لحوم الأبقار والمـــاعز فيما عدا لحم الخنزير فهو محرم عليهم (١٨٩) .

---

(١٨٧) Lucas : Op. Cit., + 1 PP. 55 — 59.

(١٨٨) Maillet : Op. Cit., P. 73.

(١٨٩) Fourmont : Op. Cit., P. 95.

والغـذاء الرئيسى للمصريين الخبز والخضروات والفواكـه والأرز ويحبون مختلف أنواع الجبن أما البدو فغذاؤهم الرئيسى بسيط مكون من القمح المطحون المضـاف اليه قليل من اللبن ويميل المصريون لشرب الشـاى والقهوة والشيشـة ونـادرا ما يشربون الكحوليات وهم يشربون المياه من النيل وهى تعطيهم القوة والنشاط (١٩٠) .

وهناك بعض العقوبات الخاصة بمخالفة الأسعار أو الغش فى المواد التموينية وقد وكل بها الى المحتسب وقد وصفه بول لوكا بانه يمشى فى شـوارع القاهرة يعتلى حصانا يلبس رداء أسود وله غطـاء رأس على شكل قربة مغطى بالموسلين الأبيض يسبقه موظفوه حاملين الموازين وحوله الانكشارية وأعوانه يحملون العصى والكرابيج يسير فى المراكز التجـارية الهامة ومن يغش فى الموازين يضرب على رجليه ؛ وقد وصف لوكـا العقوبات التى توقع على البائعين فذكر انه شاهد المحتسب يدق مسمارا فى أنف وأذن الباعة الغشاشين كذلك شاهد معاقبة احد الخبازين باع خبزا ناقص الوزن فتم طرحه أرضـا وضرب على ظهره وبطنه ثم دهن وجهه بالطين (١٩١) .

---

(١٩٠) Savary : Op. Cit., + 3 P. 2.

(١٩١) Ibid, : + 1 P. 57.

ثالثا ـ المنشآت الاجتماعية

المساجد :

عندما نتحدث عن المساجد فلابد لنا أن نذكر الجامع الأزهر هكذا بدأ ميليه حديثه عن مساجد مصر ، مؤكدا روعة وجمال الجامع الأزهر فلا يوجد جامع يضاهيه فى فخامته ثم اثنى ميليه علي دور الأزهر مؤكدا بانه لا يقود مصر فحسب وانما له دور رائد فى العالم الاسلامى كله وفيه يتم تعليم علوم الفلك والطب والرياضة والتاريخ وكل دارس له جراية من الخبز واللحم والخضار والأزهر فى وقت من الأوقات كان قادرا على تعليم واطعام ١٤ الف شخص يوميا ولكن هذا العدد انخفض الآن الى ١٤٠٠ فقط (١٩٢) .

وذكر فولنى انتشار الأروقة فى الأزهر فأكد أن الرواق السورى فى الأزهر كان من انشط الأروقة وعلل ذلك لأن الطلبة السوريين كان لديهم استعداد للسفر خارج بلادهم أكثر من

(١٩٢) Maillet : Op. Cit., P. 198.

المصريين فقد توجهوا للجامع الأزهر للتعليم (١٩٣) ، وأفاض ميليه فى وصف جمال جامع الأزهر بأعمدته الرخامية الضخمة وأعمدته من الجرانيت وهو الآن من أجمل وأضخم المساجد (١٩٤) .

أما سافارى فقد أعجب بمساجد القاهرة ومناراتها المرتفعة ولكنه تعجب من عدم وجود أجراس للتنبيه على الصلاة وعندما سئل احد العلماء كانت اجابته « ان الأجراس مزعجة ولا تمس القلب وانها صنعت خصيصا للبهائم وليس للبشر » (١٩٥) .

وقد بنيت مساجد القاهرة على نمط واحد فالمسجد مربع كبير من الداخل فناؤها مفتوح وحول المربع العديدة من الأعمدة الجميلة (١٩٦) .

ولما كان فورمون قد اطلع على الحضارة الاسلامية مع اتقانه للغة العربية فقد شرح للقارىء الفرنسى المذاهب الأربعة السنية فى مصر وأعطى نبذة عن المذهب الشيعى خاصة فى عهد الدولة الفاطمية واكد احترام وتقديس المصريين للقرآن الكريم فلهم طريقة معينة فى القراءة ومحرم عليهم التلفظ بأى خطأ فى القرآن كما اكد اعتزاز المصريين بالمذهب الشافعى ويفخرون بأن صاحب المذهب مدفون فى بلادهم (١٩٧) .

المستشفيات :

تحدث فولنى عن الطب فى مصر فأكد انتشار الجهل والأمراض حتى ان الخدم الأوروبيين كانوا يستشارون فى الأمور

---

(١٩٣) هاملتون : المرجع السابق ، جـ ٢ ص .

(١٩٤) Maillet : Op. Cit., P. 192.

(١٩٥) Savary : Op. Cit., + 1 P. 99.

(١٩٦) Maillet : Op. Cit., P. 200.

(١٩٧) Fourmont : Op. Cit., PP. 50 — 54.

الطبيـة ، وقد افتتح عدد من الأوروبيين عدة صيدليـات فى القاهرة حسب ما ذكره أوليفيه (١٩٨) ، على أن أشهر مستشفى حرص الرحالة على الحديث عنها هى مستشفى « المجـانين » التى تحدث عنها ميليه وقد نسب ميليه بناءها الى ابنة أحمد ابن طولون وكان السبب فى بناءها ان احدى الأميرات اصيبت بالجنون فتم تخصيص قصر لها للبقاء فيه وحراستها وبعد شفائها خصصت القصر للمجـانين ليشفوا من امراضهم وتقع المستشفى فى شارع رئيسى من أجمل الشوارع فى القاهرة حيث يوجد مسجد السـلطان حسـن وحول المستشفى عدة مبان للمجـانين وكل مريض يخصص له شخص للعناية به وفى المساء وقبل النوم يتم عزف الموسيقى ويسمح للمرضى بحرية التجول ساعتين نهـارا وبالمستشفى كميات كبيرة من الأدوية والأطباء ويوجد مكان للفقراء ويتم تصنيف المرضى حسـب حالتهم وكل مريض مخصص له طبيب معين وكانت هناك شروط لاختيار الأطباء فى القاهرة (١٩٩) .

الحمامات العامـة :

علل سافارى وجود أعداد كبيرة من الحمامات العامة بسبب ارتفاع حرارة الجو فى مصر ، كذلك لأن ديانة المصريين تحث على النظافة وعقد سافارى مقـارنة بين حمامات مصر ومثيلاتهـا فى فرنسا فأكد ان الأخيرة تشبه السجن لأنها ضيقة بينما حمامات مصر متسعة جميلة (٢٠٠) . والحمامات العامة فى مصر جميلة رائعة أرضياتها من الرخام ويتوسط الحمام نافورة وتوجد بهـا موائد من الرخام يستلقى عليهـا المستحم للتدليك وهى مزودة

---

(١٩٨) هاملتون جب : المرجع السابق ، ص ٣١٠ – ص ٣١١ .

(١٩٩) Maillet : Op. Cit., P. 202.

(٢٠٠) Savary : Op. Cit., + 2 P. 124.

بالماء الساخن والبارد ؛ ويقصد الرجال والنساء الحمامات ولكن خصصت الفترة المسائية للنساء (٢٠١) .

ورغم وجود اعداد كبيرة من الحمامات العامة الا ان الفقراء يؤثرون الاستحمام فى النهر للطهارة ولانهم لا يملكون المال اللازم للذهاب الى الحمامات وتتخذ النساء من الذهاب الى الحمامات ذريعة للخروج من منازلهن (٢٠٢) ؛ وعند خروج المرأة الى الحمام ترتدى أفضل أنواع الثياب المصنوعة من الكشمير وتضع المناديل المصنوعة من الهند على رأسها وتسير الى الحمام ويصحبتها العبيد (٢٠٣) .

واعجب سافارى بالحمامات فى مصر وبطرق التدليك فيها فبعد الحمام « نشعر بالدماء تجرى فى عروقنا » كما انها تساعد على اختفاء بعض الأمراض خاصة الروماتيزم وأمراض الجلد وهى لا تصيب الجهاز التنفسى بأية أضرار (٢٠٤) .

---

(٢٠١) Fourmont : Op. Cit., P. 67.
(٢٠٢) Maillet : Op. Cit., P. 203.
(٢٠٣) Savary : Op. Cit., + 1 P. 123.
(٢٠٤) Ibid, : P. 132.

رابعا ــ الأمراض والأوبئة

وعنى الرحـالة الفرنسيون بالحديث عن الأمراض فى مصر وعللوا وجود هذه الأمراض بسبب حرارة الجو وهبوب الرياح وقد فندوا هذه الأمراض على النحو التالى :

أمراض العيون :

علل فورمون اصابة سكان مصر بالعمى بسبب الرياح المتربة القادمة من الصحراء الغربية (٢٠٥) ، واضـاف جرانجيه ان مناخ مصر المترب والهواء المحمل بالأتربة هو السبب الرئيسى للاصابة بالعمى (٢٠٦) ، أما فولنى فأكد ان أمراض العيون ليـست قاصرة على مصر وحدها فهى تنتشر فى سورية أيضـا أما فى مصر فهى بسبب قذارة القاهرة والحرارة المتزجة بالرطوبة كما ان هواء الدلتا به نسبة كبيرة من الملوحة أضف الى ذلك نوعية طعـام ...

---

(٢٠٥) Fourmont : Op. Cit., P. 26.

(٢٠٦) Granger : Op. Cit., P. 22.

المصريين الذى يتكون من اللبن الرائب والجبن والعسل والثمار الخضراء يحدث كل ذلك تشويشا فى أسفل البطن فيتأثر البصر، واضاف فولنى سببا آخر الا وهو كثرة العرق عند المصريين لأنهم يلبسون العمامة فينزل العرق على عيونهم بغزارة فاذا كشفوا رؤوسهم تعرضوا للبرد فتكون عيونهم اقل مقاومة (٢٠٧) .

أما أوليفيه فأكد ان الهواء المحمل بالأملاح هو السبب فى انتشار أمراض العيون فى مصر خاصة الرمد وكتب تبريرا غريبا وهو ان المصريين اعتادوا النوم ليلا فى الهواء الطلق خارج منازلهم فيكونون عرضة لهبوب رياح الصحراء ويكون الهواء لطيفا ليلا وفى الصباح تشتد أشعة الشمس فهذا الانتقال الفجائى من حرارة الليل المنخفضة الى حرارة الصباح الشديدة هى وراء انتشار أمراض العيون فى مصر (٢٠٨) .

أما سافارى فقد عزى سبب اصابة المصريين بأمراض العيون الى انهم يستنشقون رائحة الورود ليلا فتسبب لهم الحساسية لعيونهم ، كذلك اكد أن رياح الخماسين هى السبب فى انتشار العمى ونفى سافارى أن تكون الحرارة أو الشمس الحارقة هى المسئولة عن أمراض العيون مؤكدا أن البدو يعيشون فى الصحراء وعيونهم سليمة (٢٠٩) .

الحمـــى :

عانى الرحالة الفرنسيون من الحمى بسبب ارتفاع حرارة

---

(٢٠٧) فولنى : المرجع السابق ، ص ١٥٥ ــ ص ١٥٦ .

(٢٠٨) Olivier : Op. Cit. P. 152.

(٢٠٩) Savary : Op. Cit., + 3 P. 11.

الجو ولكن فورمون اكد ان هواء القاهرة نظيف وأن مياه النيل هي العلاج الوحيد للحمى وهي لا تحتاج لغلي أو تطهير (٢١٠) .

أمراض الرئـة :

اكد فولني ان أمراض الرئة ترجع الى الحرارة ورياح الخماسين فهي تؤدي الى اضطراب الدورة الدموية في الشرايين فيطرد القلب الدم الى الرأس والصدر وهذا ما يفسر النزف من الأنف والفم ولذلك عند هبوب الرياح لابد من وضع قطعة من القماش على الأنف تجنبا للنزف (٢١١) .

الأوبئـة :

اما الأوبئة في مصر فأشهرها الجدري وقد وصفه فولني بانه شديد الفتك بالأرواح ويعالج باعطاء عسل وسكر يوميا لمدة ستة أيام وفي اليوم السابع يعطي سمكا مملحا ولا يأخذ المريض مسهلا قط ويمنع من غسل عينيه حتى ولو امتلأتا بالقيح وانطبقت جفونه وأكد فولني أن مرضى الجدري يعالجون في مصر بطريقة سيئة للغاية (٢١٢) .

وأكد فورمون انتشار الطاعون في مصر واشار الى أن ابن دقماق أكد وفاة ٢٠ ألف شخص من جراء الطاعون (٢١٣) ، وقد اشار أحمد شلبي الى انتشار هذا الوباء في النصف الأول من القرن الثامن عشر بصورة ملحوظة مما ترتب عليه انتشار

---

(٢١٠) Fourmont : Op. Cit., P. 26.

(٢١١) فولني : المرجع السابق ، ص ٥٠ - ص ٥١ .

(٢١٢) المرجع السابق ، ص ١٦٠ .

(٢١٣) Fourmont : Op. Cit., P. 23.

الوفيات خاصة خلال عام ١٧٢٦ م « فقد زاد الطاعون الى أن صار يدخل البيت فلا يبقى فيه أحد وبيوت لم يدخلها قط وبيوت أخذ منها البعض من الذين فرغت آجالهم وأبقى من بقى فى عمره بقيــة » (٢١٤) .

كذلك أشار الى انتشار هــذا الوباء مؤرخنـــا الجبرتى فى حوادث عام ١١٤٧ هـ الموافق ١٧٣٤ م « وقع الطـاعون ويسمى الفصل المائق يأخذ على الرائق ، ومات به كثير من الأعيان » (٢١٥) ، وفى عام ١٧٨٣ م رأى فولنى الطاعون يفتك بالسكان فتكا ذريعا حتى انه خرج من أبواب القــاهرة فى يوم واحد ألف وخمسمائة جثة وأكد فولنى أن مصر ليست منشأ الطــاعون وانما هو يفد عليها من سورية والمغرب وهو ينتشر شتاء لأن الحر يقتل المرض ونتتبع انتشار المرض فى مصر فهو يأتى اولا من الســواحل خاصة من السفن القادمة الى الاسكندرية ومنها الى القاهرة ودمياط وعندما يشعر الفرنسيون بانتشار الوباء فانهم يغلقون باب الخان ولا يكلمون أحدا ولا يختلطون بأحد وتنكب مصر بالطاعون كل أربع سنوات فطن الباب العــالى وانشاء محــاجر صحيــة فى أزمير وكنديا والاسكندرية (٢١٦) .

---

(٢١٤) احمد شلبى : المرجع السابق ، ص ٤٨٨ .

(٢١٥) الجبرتى : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٢٢١ .

(٢١٦) فولنى : المرجع السابق ، ص ١٦٢ — ص ١٦٣ .

الخاتمـــة

يتضح لنا مما سبق أن الرحالة الفرنسيين الذين زاروا مصر خلال النصف الأول من القرن الثامن عشر تابعوا خطا الحجـاج المسيحيين فزاروا الأماكن المقدسة فى الشام ومنها اتجهوا الى مصر حيث اهتموا أيضا بزيارة أهم المزارات المسيحية فيها من أديرة وكنائس وكهوف قبطية ، وقد كلف البعض منهم من قبل ملوك فرنسا والساسـة الفرنسيين فى مهام رسمية مثل لى نوار لى رول وكانت مهمته الاتصال بملك الحبشة لفتح طرق تجارية بين البلدين ونشر المذهب الكاثوليكى . كذلك كلف الملك لويس الخامس عشر بول لوكان بالسفر الى الشرق للبحث عن الآثار ، وكلف الطبيب جرانجيه بدراسة التاريخ الطبيعى لمصر ويلاحظ أن البعض منهم جاء على رأس بعثة تنصيرية هدفهـا الرئيسى تحويل الأقباط الأرثوذكس الى المذهب الكاثوليكى مثل سيكار ، كذلك كلف البعض من هؤلاء الرحالة بشراء المخطوطات العربيـة والقبطيـة مثل الأب دورفال وفورمون لاثراء المكتبـة الملكية فى باريس .

هذا بينما تنوعت وظائف الرحالة فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر فلا نجد من بينهم اعضاء بعثات تنصيرية او رجال دين باستثناء الأب بينو وانما تنوعت وظائفهم فمنهم العالم الطبيعى مثل سونينى والمتعمق فى دراسة اللغة العربية مثل سافارى وصاحب الدراسة الجادة فولنى ، والطبيب أوليفيه وقد وصل هؤلاء الرحالة الى مناطق لم يصلها فرنسى خاصة فى مصر العليا واتصفت كتاباتهم بالطابع العلمى الى حد كبير واعتمد البعض منهم على المؤلفات العربية ساعدهم فى ذلك اتقانهم للغة العربية وقد حقق رحالة القرن الثامن عشر تقدما فى علم الجغرافيا والأثنوجرافيا وقد اتصفت كتاباتهم خاصة فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر وحتى مجيء الحملة الفرنسية بالدقة فكانت بمثابة تحقيقات علمية أصبحت نواه المعهد العلمى المصرى فى عهد الحملة الفرنسية .

ويقابلنا فى القرن الثامن عشر ظاهرة تسجيل القناصل وتدوينهم لمشاهداتهم فدون ميليه ملاحظاته عن مصر فى بداية القرن الثامن عشر ونشر كتابه باسم « وصف مصر » كذلك اعتمدنا على رسائل القنصل الفرنسى مور فى التعرف على أحوال مصر السياسية والاقتصادية . وقد شهدت السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر بزوغ نجم ماجالون ولاشك أن تقاريره ورسائله المثيرة الى لجنة الأمن العام وحكومة الادارة كانت من أهم الأسباب التى ادت الى مجيء الحملة الفرنسية على مصر .

اسهب الرحالة والقناصل الفرنسيين فى وصف اوضاع مصر السياسية فى القرن الثامن عشر فألقوا الضوء على المنازعات بين الفرق العسكرية المختلفة وقد ساهم القناصل فى وصف المنازعات وذلك بحكم عملهم واحتكاكهم بالقوى السياسية المختلفة

فى البلاد ، كذلك امدنا الرحالة والقناصل فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر بمعلومات عن تصاعد نفوذ المماليك خاصة على بك ومراد بك وابراهيم بك .

لم يكتف الرحالة بتدوين ملاحظاتهم عن أحوال مصر السياسية بل اهتموا بوصف احوالها الاقتصادية بما يخدم مصالح بلادهم فدعا البعض منهم السيطرة على البحر الأحمر واحياء طريق التجارة القديم وقد بالغ بعضهم فى أحلامه خاصة مور وماجالون فاعتقدوا أن فرنسا أحق بامتلاك ثروة مصر الاقتصادية من القوى السياسية المتصارعة العاجزة عن النهوض بالبلاد .

اسهب الرحالة فى وصف مدن مصر خاصة وأن منطقة مصر العليا لم تعد غريبة عليهم فقد تعمقوا فى جنوب البلاد ووصلوا الى مناطق لم يصلها فرنسى من قبل فقدموا وصفا ورسما للمدن وللآثار المختلفة التى شاهدوها فلم تعد مصر مجهولة أو غامضة او مأهولة بالمتوحشين كما كان يحلو لبعض الرحالة السابقين وصفها وانما زادت المعرفة عنها وعن حضارتها العظيمة .

قدم الرحالة الفرنسيون وصفا لطبقات المجتمع وكان من الطبيعى أن يركزوا حديثهم عن الجالية الفرنسية ومتاعبها اليومية وحياتها فى مصر وأن يبرزوا ويضخموا من الغرامات التى تفرضها السلطات الحاكمة عليهم . ووصفوا المماليك بالطغاة الأرقاء وقد فرق الرحالة بين الدولة المملوكية فى أوج عظمتها ومجدها وبين بقايا المماليك فى القرن الثامن عشر الذين تمنوا لهم زوال السلطان .

حمل الرحالة حملة شعواء على الأقباط في مصر فقلما نجد من يثني عليهم وقد وصفوهم بالجهل والقذارة والانحطاط ولم يسلم رجال الدين المسيحي من هذه الأوصاف ويمكن تعليل ذلك ان الأقباط في مصر تمسكوا بمذهبهم الأرثوذكسي ورفضوا اتباع المذهب الكاثوليكي رغم محاولات الرحالة وأعضاء البعثات التنصيرية المختلفة فلم تحقق البعثات الكاثوليكية في مصر الا نجاحا محدودا للغاية .

وبينما حمل الرحالة على الأقباط حملة عنيفة نجد في المقابل اشادة بعلماء الأزهر ودورهم الديني فمعظم الرحالة أشادوا بعلماء الأزهر وعلمهم الغزير « فهم مسلمون بالفطرة مثاليون » كما أثنوا على دور الأزهر التعليمي والديني ، ولكن هذا لا يعني أن نعفي البعض منهم التعصب ضد الاسلام والمسلمين ، كذلك خلط بعضهم بين الاسلام والمذاهب الأربعة والمذهب الأرثوذكسي مثل تعجبهم من « عدم وجود أجراس في المساجد » أو ما ذكره بعضهم من « وجود أربعة مذاهب أرثوذكسية في مصر » .

أبدى الرحالة الفرنسيون اعجابهم بالمرأة الشرقية بصفة عامة والمصرية بصفة خاصة ، كذلك اعجبوا بغيرة الشرقي على زوجته وقارنوا بين وضع المرأة الأوروبية ووضع المرأة المصرية فرجحت كفة الأخيرة ، ولكن هذا لا يمنع من مهاجمة بعضهم للتقاليد الشرقية خاصة فولني واوليفيه فلم ير فولني في نساء مصر سوى « أشباحا جائلة » .

اننا لا نتعجب من العمل الضخم الذي انجزته الحملة الفرنسية الا وهو « وصف مصر » فما كان لهذا العمل ان يتم لولا وجود أساس قوي متين استند عليه علماء الحملة فانجاز

الحملة فى ثلاثة أعوام انما هو حصيلة جهد تم على مر ثلاثة قرون وان كانت كتابات الرحالة والقناصل فى القرن الثامن عشر هى أساس وركيزه عمل الحملة فمن الطبيعى أن تجىء الحملة على مصر وهى مزودة بفكرة عامة عن كل ما يتعلق بمصر من أحوال سياسية واقتصادية واجتماعية فتعمل على دراسة مصر دراسة علمية دقيقة ، ولا ننسى ان كتابات ورسوم رحالة القرن الثامن عشر عن الآثار الفرعونية والقبطية والاسلامية قد اتسمت بالقمة خاصة وان هذه الرحلات تمت فى عهد لويس الخامس عشر عصر الأبهة والعظمة والفخامة فى فرنسا .

واخيرا لقد كانت كتابات الرحالة والقناصل نواة المعهد العلمى المصرى فى عهد الحملة كما اسهمت فى تعريف القارىء الفرنسى بحضارة مصر واصبح الرأى العام الفرنسى شغوفا بالتعرف عليها لذلك أيد الجميع حملة بونابرت على مصر تلك الحملة التى صورت فى فرنسا وكأن الغرض الرئيسى منها هو اكتشاف الحضارة التى طالما قرأ عنها الفرنسيون من خلال كتابات الرحالة . لقد وصفت مصر بالفعل قبل مجىء الحملة ولكننا لا نستطيع أن ننكر أن وصف علماء الحملة جاء أدق وأعمق وعلى أسس علمية متينة .

اولا ـ المصادر والمراجع :

١ ـ احمد الحتـة :
تاريخ مصر الاقتصادى فى القرن التاسع عشر : القاهرة ، ١٩٦٧ م .

٢ ـ أحمد الدمرداشي :
كتـــاب الدرة المصـــانة ، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن ، المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية ، القاهرة ، ١٩٨٩ م .

٣ ـ احمد شلبى عبد الغنى الحنفى المصرى :
أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات الملقب بالتاريخ العينى ، تقـديم وضـبط وتصحيح د. عبد الرحيم عبد الرحمـن ، القاهرة ، ١٩٧٨ م .

٤ ـ أحمد عزت عبد الكريم :
دراســـات فى تاريخ العـرب الحـديث ، القاهرة ، ١٩٧٠ م .

٥ ـ اسماعيل سرهنك :
تاريخ الدولة العثمانية ، القاهرة ، ١٩٨٨ م .

٦ ـ الشاطر بصيلى عبد الجليل :
معالم تاريخ ســودان وادى النيـل من القرن العاشر الى القرن التاسع عشر ، القاهرة ١٩٥٥ م .

٧ ـ العمرى ـ شهاب الدين ابى العباس احمد بن يحيى :
مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار « دولة المماليك الأولى» ٧٠٠هـ ـ ٧٤٩ هـ (١٣٠١ ـ ١٣٤٩م) دراسة وتحقيق دوروتيا كرافولسكى ، المركز الاسلامى للبحوث ، بيروت ١٩٨٦ م ، الطبعة الأولى .

٨ ـ الهام محمد ذهنى :
مصر فى كتابات الرحالة الفرنسيين فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، القاهرة ، ١٩٩١ .

٩ ـ اندريه ريمون :
فصول من التاريخ الاجتماعى للقاهرة العثمانية، ترجمة زهير الشايب ، القاهرة ، ١٩٧٤ م .

١٠ ـ ثروت عكاشة :
مصر فى عيون الغرباء الرحالة والفنانين والأدباء (القرن التاسع عشر) ، القاهرة ، ١٩٨١ جـ ١ .

١١ ـ جلال يحيى :
مصر الحديثة (١٥١٧ ـ ١٨٠٥) ، الاسكندرية.

١٢ ـ زينب راشد :
تاريخ اوروبا الحديث ، القاهرة ، ١٩٨٦ م جـ ١ .

١٣ ـ شوقى الجمل :
تاريخ كشف افريقيا واستعمارها ، القاهرة ، عام ١٩٧٢ م .

١٤ ـ صلاح هريدى :

الجاليات الأوروبية فى الاسكندرية فى العصر العثمانى ، دراسة وثائقية من سجلات المحكمة الشرعية ٩٢٣ هـ ـ ١٢١٣ هـ (١٥١٧ ـ ١٧٩٨ م) ، الاسكندرية ١٩٨٩ م .

١٥ ـ عبد الرحمن الجبرتى :

عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، بيروت ، جـ ١ ـ جـ ٢ .

١٦ ـ عبد الرحمن الرافعى :

تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر ، ١٩٨١ جـ ١ .

١٧ ـ عبد الرحيم عبد الرحمن :

تاريخ العرب الحديث والمعاصر ، القاهرة ، عام ١٩٨٦ م .

١٨ ـ عبد العزيز الشناوى :

الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، القاهرة ، ١٩٨٠ م جـ ١ ـ جـ ٢ .

١٩ ـ عبد العزيز الشناوى ، جلال يحيى :

وثائق ونصوص التاريخ الحديث والمعاصر ، القاهرة ، ١٩٦٩ م .

٢٠ ـ عبد العزيز نوار :

الشعوب الإسلامية ، القاهرة .

٢١ ـ عبد الوهاب بكر :
الدولة العثمانية ومصر فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، القاهرة ١٩٨٢ م .

٢٢ ـ علماء الحملة الفرنسية :
وصف مصر جـ ١ ، المصريون المحدثون ، ترجمة زهير الشايب ، القاهرة ١٩٨٦ م .

علماء الحملة الفرنسية :
وصف مصر جـ ٢ ، العرب فى ريف مصر وصحراوتها ، القاهرة ١٩٨٠ م .

علماء الحملة الفرنسية :
وصف مصر جـ ٣ ، مستخلص من دراسة عن بحيرات وصحراوات مصر مصر السفلى .

علماء الحملة الفرنسية :
وصف مصر جـ ٥ ، الحياة الاقتصادية فى مصر فى القرن ١٨ ، القاهرة ١٩٧٩ م .

علماء الحملة الفرنسية :
وصف مصر جـ ٦ ، وصف الحياة الاقتصادية فى القرن ١٨ ، القاهزة ، ١٩٨٠ م .

٢٣ ـ على حسون :
تاريخ الدولة العثمانية ، دمشق ١٨٩١ م .

٢٤ ـ فاروق اباظة :
عدن والسياسة البريطانية فى البحر الأحمر ١٨٣٩ ـ ١٩١٨ م ، القاهرة ، ١٩٨٧ م .

٢٥ ـ فولنى :

ثلاثة أعوام فى مصر وبر الشام ، نقلها الى العربية ادوارد البستانى ١٩٤٩ جـ ١ .

٢٦ ـ ليلى الصباغ :

الجاليات الأوروبية فى بلاد الشام فى العهد العثمانى فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، بيروت ١٩٨٩ جـ ١ ، الطبعة الأولى .

٢٧ ـ ليلى عبد اللطيف :

الصعيد فى عهد شيخ العرب همام ، القاهرة ، عام ١٩٨٧ م .

٢٨ ـ محمد فريد :

تاريخ الدولة العلية العثمانية ، القاهرة ، عام ١٩١٢ م .

٢٩ ـ محمود الشرقاوى :

دراسات فى تاريخ الجبرتى مصر فى القرن الثامن عشر ، القاهرة ، ١٩٥٧ م جـ ٢ ، الطبعة الثانية .

٣٠ ـ هاملتون جب ، هارولد بووين :

المجتمع الاسلامى والغرب ، ترجمة احمد عبد الرحيم مصطفى ، القاهرة ، ١٩٩٠ جـ ٢ .

٣١ ـ يونان لبيب ، محمد مزين :

تاريخ العلاقات المصرية المغربية منذ مطلع العصور الحديثة حتى عام ١٩١٢ ، القاهرة ١٩٩٠ م.

ثانيـا ـ المجلات العربية :

ـــ المجلة التاريخية المصرية ، العدد الثانى المجلد الثانى عام ١٩٤٩ م ، مقالة للدكتور محمد أنيس « النشاط الأوروبى بمصر وجيرانها أواخر القرن الثامن عشر » .

ـــ الجمعيـة المصرية للدراسـات التاريخيـة ، المجـلد العشرون ١٩٧٣ م أندريه ريمون ، القاهرة العثمانيـة بوصفها مدينة « شئون البلديات ومشكلات المرافق » ترجمة زهير الشايب .

ـــ مجـلة كليـة الدراسـات الانسانيـة ، العدد السـابع ١٤٠٩ هـ ـــ ١٩٨٩ م ، فرنسـا والهند الصينية ، د. الهام ذهنى .

ثالثـا المراجع الأجنبية :

1. Auriant : Un Français d'autrefois en Egypte Paris 1935.

2. Benjamin : Voyages De Rabbi Benjamin fils De Jona De tudele en Europe, en Asie en Afraique depuis l'espagne jusqu'à La chine Amesterdam 1734.

3. Brehier, Louis : L'Egypte de 1798 à 1900 Paris 1900.

4. Bruce, James : Travels to discover the source of the Nile in the years 1768 — 69 — 70 — 71 — 72 — 73 London 1804 Second Edition Vol. II.

5. Carré, Jean Marie : Voyageurs et écrivains Français en Egypte. Le Caire 1960.

6. Clement : Les Français en Egypte. Le Caire 1912.

7. Combe, E : Lettre De Mure Consul de France à Alexandrie à M G R Le Comte De choiseul Gouffier Ambassadeur De France à la Sublime Porte Le Caire. 1927.

8. De Tott : Mémoires du Baron De Tott sur les turcs et les tartares. Paris 1875 + 2.

9. Douin : M G : Le Carosse De Mohamed Bey. Bulletin de L'institut d'Egypte. Le Caire 1926 + 8. session 1925.

10. Fourmont : Description historique et géorgraphique des plaines d'Heliopolis et de Memphis Paris 1755.

11. Goby, Jean Edouard : Les quarantes éditions traduction et adaptations «Du Voyages dans La Basse et La Haute Egypte De Vivant Denon » Le Caire 1952.

12. Granger, Le Sieur : Relation du Voyage fait en Egypte par le Sieur Granger de l'année 1730 Paris 1765.

13. Hanotaux, Gabriel : Histoire de la Nation Egyptienne par Henri Deherain Paris 1931 + 5.

14. Lucas, Paul : Voyage du Sieur Paul Lucas Au Levant. Rouen 1772 3 tomes.

15. Maillet : Description de l'Egypte. L'abbé le Mascrier composée sur les memoires de M. Maillet ancien consul de France au Caire. Paris 1735.

16. Norden, Frederic Louis : Voyages d'Egypte et de Nubie Paris 1795.

17. Olivier, C : Voyages dans l'empire Ottoman L'Egypte et la Perse fait par ordre du gouvernement pendant les six premiers années de la republique + 3.

18. Pococke : A discriptioln of the east and some other countries. London 1763 Vol. V.

19. Raymond, André : Artisans et commerçants au Caire au 18ème siècle Damas 1974.

20. Roux, Charles : Les Origines de l'expédition d'Egypte Paris 1910.

21. Roux, Charles : Les échelles de Syrie et De Palestine au 18 ème siècle Paris 1928.

22. Savary : Lettre sur l'Egypte. Paris 1786 3 tomes second édition.

23. Sonnini, C. Voyage en Egypte Paris 1793 3 tomes.

24. Sicard : Nouveaux mémoires des missions de la compagne de Jésus dans le levant Paris 1722.

25. Volkoff, Oleg : Voyageurs Russes en Egypte. L Caire 1972.

صدر من هذه السلسلة :

١ ـ مصطفى كامل فى محكمة التاريخ

د . عبد العظيم رمضان

٢ ـ على ماهر

اعداد : رشوان محمود جاب الله

٣ ـ ثورة يوليو والطبقة العاملة

اعداد : عبد السلام عبد الحليم عامر

٤ ـ التيارات الفكرية فى مصر المعاصرة

د . محمد نعمان جلال

٥ ـ غارات أوربا على الشواطىء المصرية فى العصور الوسطى

عطية عبد السميع

٦ ـ هؤلاء الرجال من مصر ج ١

لمعى المطيعى

٧ ـ صلاح الدين الأيوبى

د • عبد المنعم ماجد

٨ ـ رؤية الجبرتى لأزمة الحياة الفكرية

د • علي بركات

٩ ـ صفحات مطوية من تاريخ الزعيم مصطفى كامل

د • محمد انيس

١٠ ـ توفيق دياب ملحمة الصحافة الحزبية

محمود فوزى

١١ ـ مائة شخصية مصرية وشخصية

شـــكرى القاضى

١٢ ـ هدى شعراوى وعصر التنوير

د • نبيل راغب

١٣ ـ أكذوبة الاستعمار المصرى للسودان

د • عبد العظيم رمضان

١٤ ـ مصر فى عصر الولاة

د • سيدة اسماعيل كاشف

١٥ ـ المستشرقون والتاريخ الاسلامى

د • علي حسن الخربوطلي

١٦ ـ فصول من تاريخ حركة الاصلاح الاجتماعى فى مصر

د • حلمى أحمد شـــلبى

١٧ ـ القضاء الشرعي في مصر فى العصر العثمانى
د • محمد نصر فرحات
١٨ ـ الجوارى فى مجتمع القاهرة المملوكية
د • علي السيد محمود
١٩ ـ مصر القديمة وقصة توحيد القطرين
د • أحمد محمود صابون
٢٠ ـ المراسلات السرية بين سعد زغلول وعبد الرحمن فهمي
د • محمد أنيس
٢١ ـ التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى جـ ١
توفيق الطويل
٢٢ ـ نظرات فى تاريخ مصر
جمال بدوى
٢٣ ـ التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى جـ ٢
توفيق الطويل
٢٤ ـ الصحافة الوفدية
د • نجوى كامل
٢٥ ـ المجتمع الاسلامى
ترجمة : د • عبد الرحيم مصطفى
٢٦ ـ تاريخ الفكر التربوى فى مصر الحديثة
د • سعيد اسماعيل علي
٢٧ ـ فتح العرب لمصر جـ ١
ترجمة : محمد فريد أبو حديد
٢٨ ـ فتح العرب لمصر جـ ٢
ترجمة : محمد فريد أبو حديد

٢٩ ــ مصر في عهد الاخشيديين
د · سيدة اسماعيل كاشف

٣٠ ــ الموظفون فى مصر
د · حلمى احمد شلبى

٣١ ــ خمسون شخصية وشخصية
شــــكرى القــــاضى

٣٢ ــ هؤلاء الرجال من مصر ج ٢
لمعى المطيعى

٣٣ ــ مصر وقضايا الجنوب الافريقى
د · خالد الكومى

٣٤ ــ تاريخ العلاقات المصرية المغربية
د · يونان لبيب رزق

٣٥ ــ اعلام الموسيقى المصرية عبر ١٥٠ سنة
عبد الحميد توفيق زكى

٣٦ ــ المجتمع الاســــلامى والغرب ج ٢
ترجمة : د · احمد عبد الرحيم مصطفى

٣٧ ــ الشيخ على يوســـف
تاليف : د · سليمان صالح

٣٨ ــ فصول من تاريخ مصر الاقتصــــادى والاجتماعى فى العصر العثمانى
د · عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم

٣٩ ــ قصـــة احتلال محمد على لليونان
د · جميل عبيد

٤٠ ــ الأسلحة الفاسدة ودورها فى حرب ١٩٤٨
د · عبد المنعم الدسوقى الجميعى

٤١ ـ محمد فريد الموقف والمأساة
رفعت السعيد
٤٢ ـ تكوين مصر عبر العصور
محمد شفيق غربال
٤٣ ـ رحلة فى عقول مصرية
ابراهيم عبد العزيز
٤٤ ـ الأوقاف والحياة الاقتصادية فى مصر فى العصر العثمانى
د ٠ محمد عفيفى
٤٥ ـ الحروب الصليبية
تأليف : وليم الصورى
ترجمة : أ ٠ د ٠ حسن حبشى
٤٦ ـ تاريخ العلاقات المصرية الأمريكية ١٩٣٩ : ١٩٥٧
تأليف : د ٠ عبد الرؤوف أحمد عمرو
٤٧ ـ تاريخ القضاء المصرى الحديث
تأليف : أ ٠ د ٠ لطيفة محمد سالم
٤٨ ـ الفلاح المصرى
تأليف : د ٠ زبيد عطا
٤٩ ـ العلاقات المصرية الاسرائيلية
تأليف : أ ٠ د ٠ عبد العظيم رمضان
٥٠ ـ الصحافة المصرية والقضايا الوطنية
تأليف : د ٠ سهير اسكندر
٥١ ـ تاريخ المدارس
اعداد : د ٠ عبد العظيم رمضان

الفهرس

الصفحة

تقـديم د/عبد العظيم رمضان ٥

المقدمـــة ٧

الفصل الأول : علاقة فرنسا بالدولة العثمانية ومصر في القرن الثامن عشر ١٣

موقف فرنسا من الصراع العثمانى الأوروبى ١٥

فرنسا وفكرة تقسيم الدولة العثمانيـــة ٢٩

مصر في مخططات الساسة الفرنسيين ... ٣٥

الفصل الثانى : تعريف بالرحالة والقناصل الفرنسيين ٤٧

تعريف بالرحالة الفرنسيين ٤٩

القناصل الفرنسيين ٨٥

الفصل الثالث : احوال مصر السياسية كما صـــورها القناصل والرحـــالة الفرنسيين ٩٥

أحوال مصر السياسية في النصف الأول من القرن الثـــامن عشر ١١٥

احوال مصر السياسية في النصف الثانى من القرن الثامن عشر ١٢٧

الصفحة

الفصل الرابع : نشـــاط المصريين الاقتصادى ١٥٥

الفصل الخامس : وصـف مدن مصـر ١٩٥

وصـف مدن وجــه بحرى ٢٠٧

وصف لمدن الوجه القبلى ٢٤٣

الفصل السادس : الحيــاة الاجتماعيــة ٢٦٥

أولا : طبقــات المجتمع المصرى ٢٦٧

الجاليــة الفرنســية ٢٩١

ثانيا : الاحتفالات والأعياد ٣١٨

ثالثا : المنشآت الاجتماعية ٣٢٩

رابعا : الأمراض والأوبئــة ٣٣٣

الخاتمـــة ٣٣٧

رقم الايداع ١٩٩٢/٣٣٢٢

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 — 01 — 3018 — 4

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب